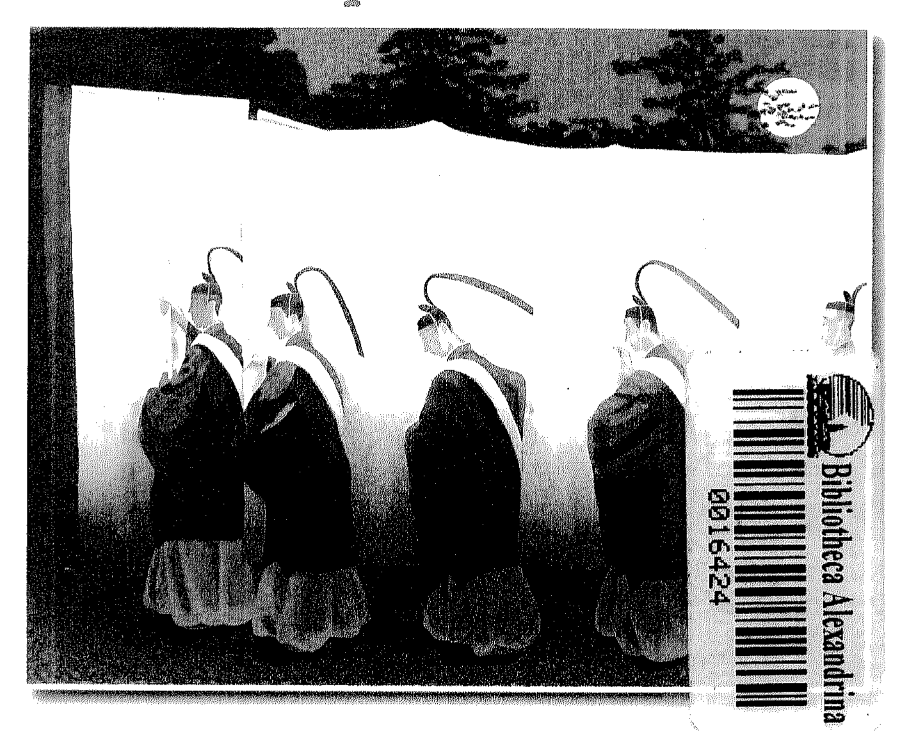
محمد عضيمة

غابة المرايا اليابانية

مقدمة ذاتية...





غابة المرايا اليابانية

● ـ غابة المرايا اليابانية

● ـ محمد عضيمة

● ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨

● ـ الغلاف من تصميم الفنان محمد حمدان

● ـ لوحة الغلاف للفنان الياباني تايجي ـ هامادا

● ـ دار الكنوز الأدبية

● ـ بيروت ـ لبنان

● ـ ص. ب: ٧٢٢٦ ـ ١١

● ـ هاتـف : ٧٣٩٦٩٦

محمد عضيمة

غابة المرايا اليابانية

مقدمة ذاتية...





ملحق نيسان

بلاد مشغولة بحالها. لاجوار لها إلّا هي. من الغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى. من باريس المبنية لكلِّ النّاس، كما يقول الفرنسيون، إلى طوكيو المبنية لأجل أبنائها فقط كما تقول هي وأقول أنا ويقول فيها الغرباء. مدينة وأرخبيل لانسيج لهما إلّا التوالي على الذات، توالي الفصول على بعضها. أرخبيل يتوالى على ذاته، ومدينة تنوب عن ذاتها. شعوب مأخوذة بالنظر إلى حالها في مياه بئر، أو مياه حفرة فوق طريق، أو في مرآة متدلية من شبه سماء.

مدن وبلدان تعيذ أبناءها من جيرة الغرباء. مدن وبلدان لاتستحي من الصمت على روائحها التاريخية، لاتستحي من الانكفاء على طبيعة الإنسان الأولى. مدن تلوذ بمدن، وبلدانٌ تعيذ بلدانا، وشعوب يجترّ بعضها بعضاً. تاريخ يدخل في تاريخ، وعصور تخرج من عصور. زوّارٌ، سوّاح، ومقيمون. حضور وغياب. مدن يتقدَّم بعضها بعضاً، يأكل بعضها بعضاً. عَدَمٌ يسري ولاغير.

بالمصادفة سافرت إلى باريس، وبالمصادفة سوف أعيش فيها عقداً من الزمن. وسوف أتركها بالمصادفة أيضاً. لم أخطط لشيء في حياتي. أمشي فإذا بسيلٍ يأخذني ولا أدري. تفّاحٌ، رمّان، عِنَبٌ مسلوقٌ، أعلو، أهبط مع هذي الأشياء، والسَّيلُ كبيرٌ وجميل وعظيم كالأخطاء. زمن يمشي ولاغير.

مملكة الخمور والأطفال الحديثة (سيرة ذاتية). ملك الخمور اليابانية. ذئب الخمور اليابانية. مملكة الأطفال اليابانية (سيرة شخصية). غابات الخمر الياباني. سيرة ذئب الخمور اليابانية. غابة الخمارات اليابانية. أنهار الخمور اليابانية. غابة الخمور اليابانية.. وفجأة تختفي الخمور والأطفال والممالك...

غابة الألغاز اليابانية. غابة الأشياء اليابانية. غابة الألغام اليابانية. ثكنة

المرايا اليابانية. رهبان المرايا اليابانية. راهبة المرايا اليابانية... وفجأة تختفي الألغاز والأشياء والألغام والثكنات والرهبان والراهبات، وتبقى غابة المرايا اليابانية (وقائع وشهادة خاصة) (سيرة، شهادة، وقائع) (سيرة وشهادة) (شبه سيرة ذاتية) (وقائع من سيرة ذاتية)... إلخ

تلكم هي سيرة هذا العنوان.

ملحق نيسان

بلاد مشغولة بحالها. لا جوار لها إلا هي. من الغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى. من باريس المبنية لكل الناس، كما يقول الفرنسيون، إلى طوكيو المبنية لأجل أبنائها فقط كما تقول هي ويقول فيها الغرباء. مدينة وأرخبيل لا نسيج لهما إلا التوالي على الذات. توالي الفصول على بعضها. أرخبيل يتوالى على ذاته ومدينة تنوب عن نفسها. شعوب مأخوذة بالنظر إلى حالها في مياه بئر، أو مياه حفرة فوق طريق، أو في مرآة متدلية من شبه سماء... مدن وبلدان تعيز أبناءها من حيرة الغرباء. مدن وبلدان لا تستحي من الصمت والانكفاء على الطبيعة الأولى. مدن تلوذ بمدن، وبلدان تعيز بلداناً، وشعوب يجتر بعضها بعضاً. تاريخ يدخل في تاريخ، وعصور تخرج من بين عصور: زوار، سواح ومقيمون. حضور ثم غياب. بلدان تسكن في بحر المصادفات: تمشي فإذا بسيل يأخذها ولا تدري. تفاح، رمان، عنب مسلوق، تعلو، تهبط مع هذي الأشياء، والسيل كبير وعظيم وسريع كالأخطاء.

ملحق أيار

انتهت مدة العمل والإقامة في ربيع ١٩٩٣ وتهيأت للعودة إلى سوريا بعد غياب ست سنوات متتاليات. اخترت المرور بباريس. فما الذي حدث لي خلال هذه الفترة التي لم أغادر أثناءها طوكيو أبداً، وكنت سماءً مفتوحة على كلِّ شيء. لدى نزولي في مطار شارل ديغول أحسست بفزع وخوف شديدين وأنا الذي كنت أعتبر نفسي واحداً من قبضايات باريس. أفزعتني نظرات النّاس المباشرة، أفزعني تعدد الألوان والوجوه، أفزعني هذا الخليط، أفزعتني قدرتي على تمييز وجهٍ عن آخر. تكومت على نفسي وإلى جانبي صديق حميم آخر ينظر إليَّ وإلى حركاتي بدهشة: مالك متوجس هكذا، مستنفر ومرتعد.. يبدو

أن المدينة التي أحببتها وأحبتني طوال عقدٍ من الزمن قد تغيرت.. لِمَ هي موحشة هكذا، وحشية هكذا.. ولِمَ النّاس يروحون مثل الشظايا دون أي انتظام.. وأنا كيف أسير. لاتوجد حشمة في الحركات، في الأصوات، في الكلام... ألبسة الناس عجيبة، فهي متعددة الأذواق والأشكال، متفاوتة بشكل لافت وغير معقول.. ما المعقول إذاً.. لايوجد نظام في طريقة اللباس.. ماهذا العالم.. إنّه الثّالث أو الرّابع. حاولت نبش باريس البعيدة في الذّاكرة، لكن عبثاً.. هي ذي باريس أمامي ولم تتغير.. أنا الذي تبدلت أحواله خلال سنوات من الإنغلاق داخل الأرخبيل الياباني.. كيف لو بقيت هناك قرنين لا أرى خلالهما سوى أولاد الشمس المشرقة..

في الطريق إلى الفندق، استغربت كيف أن صديقي الحميم هذا، لم يكف عن الكلام والأسئلة.. شنو بابا شنو.. يابا محمد مالك.. أنا مشتاكلك يابا.. يابا ليش صامت.. وأنظر إليه، أبتسم ابتسامة خفيفة وأصمت.. أحياناً أجيب: لا أعرف.. أين أنا من هذا العالم.. ما الذي فعلته مدن الشرق الأقصى. هل قتلت طوكيو باريس.. إذاً لِمَ أنا غريب بشدة في مكاني القديم الأليف هذا...

لايوجد وجه يشبه آخر

لاتوجد مرآة.

داخل غرفة الفندق حيث نزلت لم أبارح المرآة.. أنظر إلى وجهي لأكتشف وجهي قبل سنوات لعلّي أعود إليه قليلاً. أهشٌّ أنا لهذا الحد... أحفر في المرآة لأعثر على أثر واحدٍ من آثار وجهي ذاك، لكن عبثاً.. والمرآة لاتعكس شيئاً سوى نفسها. مرآة غريبة تلك: كيف أعكس نفسي عليها لأراني قليلاً. يبدو أنني فقدت فراغي ووجودي معاً. لاوجود الآن ولا فراغ. فقط مرآة عاطلة.

ملحق أيار

لاوجود الآن ولافراغ. فقط مرآة عاطلة. وفي الطريق إلى المرآة هشاشة من جميع الجهات. لاأثر لذلك الوجه الواضح المعالم مثل صرامة

الجنود. نقط داخل المرآة وجه على شكل أنقاض. تنزع من القدرة على تمييز القامات والثياب والأشكال. لدومة الذات على الذات. وبالقرب صديق لايكف عن الكلام: شنو بابا شنو... يابا محمد تاآلك... أنا مشتاكلك يابا... ليش صامت. ثم ابتسامة باردة. جافة وتكاو شقوقها تبتلع المدينة. هل تتلت طوكيو باريس، إذاً، لم الغربة في هذا المكان القديم الأليف.

ملحق حزيران

المرآة عاطلة، والشوارع، والسرير، والحمّام، والنّافذة، والستائر، أينبغي أن أدهش بعد كلِّ غياب. صامت، مصاب بالدوخة، خافت الحركة، مشوّش إلى حد لايطاق. زرت الأماكن التي كانت أليفة فيما مضى، لعلّي أستعيد بعض شجاعتي السابقة. خفت أكثر، توترت، شعور بعدم الاطمئنان والأمن. شعور بالضجيج والصخب الغريب: شيء في الدّاخل يدفعني إلى الانكماش، إلى غرفة الفندق، إلى تلك المرآة المغلقة.

كلُّ شيء مباشر، صريح، واضح، فجّ، وحشي. لكن لِمَ لم أر هذا من قبل؟ لابدَّ أنني كنت جزءاً منه، ومن هذا الخليط المذرّى في جميع النواحي.

لابدَّ للحصاة أن تعود إلى وحدتها،

حصاة تقاذفتها الأرياف والمدن من عصر إلى آخر،

حصاة دخلت إلى جوف طوكيو وفُتِّتت، لاهوية لها الآن، ضباب، غيوم، حجب سوداء. لا أرى شيئاً. هيولى. إنسان بالقوة، مفترض، كامن. إلى هذا الحد، وربما أكثر، يبتلع الأرخبيل الياباني. دعوة إلى الذوبان، أو إلى الخروج، دعوة إلى «الجنون» والإنطفاء والامحاء، أو إلى الطفر.

بَلَدٌ مسكون بالأرواح،

والحارسُ ربٌّ موجودٌ في كلِّ مكانٍ،

في حجرٍ ملقي، في برّادٍ، في كرسي

أو في دولابْ،
أربابٌ تتوالد في صمتِ الأشكالِ،
في شجرٍ أخضرَ، أو في بابْ،
في عقدٍ، في سيف، أو في مرآةْ.
بَلَدٌ مزروع بالأشباحِ... آحِ.. آحِ... آحِ... آح..

هواتف إلى جميع الأصدقاء: تركت طوكيو، وأعود الآن إلى سوريا. أسبوعان من الليالي البيضاء. بلا نوم. قلق. وضياع في جميع الحركات. باريس الباهية تحوّلت إلى أخرى. لا أعرفها: فوضوية، حرّة جداً. فردية، مليئة بالغرباء والأجانب من جميع الألوان. في الأكشاك صحف بجميع اللغات. لكن هذا كان منذ البداية. أنا الكنت لا أرى. عندما نعيش الشيء لانراه.

ملحق حزيران

المرآة عاطلة أم الوجه، والشوارع، والسرير، والحمام، والنافذة، والستائر، أتنبغي الدهشة بعد كلّ حضور. صامت، مصابة الدوخة بالدوران، خافت الحركة، مشوّش إلى حد الإيطاق. زيارة الأماكن الأليفة قد تعيد بعض الشجاعة السابقة. خوف أكثر. توتر أشد. شعور بعدم الإطمئنان. شعور شديد بالصخب الغريب. شيء في الداخل يدفع إلى الإنكماش، إلى غرفة الفندق، إلى تلك المرآة المغلقة. ومن هذا الخليط المدزى في جميع النواحي لابد للحصاة أن تعود إلى وحدتها. حصاة دخلت والاهوية الآن سوى الضباب أو الغيوم؛ إنها دعوة إلى الإنطفاء أو الظفر.

ملحق تموز

الحرية الكنت تعلمتُها في الغرب، طحنت في الشرق، وعجنت، وخبزت، وأكلت. سوف لن يبقى لي شيء خاص. كلّ شيء سيكون مِلْك العام. عودة إلى غريزة العبيد. إلى الصمت. إلى الخضوع. إلى الطاعة. سوف لن يستفيد الذئب من العواء أو العويل. ولاحتى في الليل وتحت جناح الظلام...

في اليوم الثاني بباريس، وفيما كنت أسير دون رفيق أو صديق، كنت أحيي بعض من أظنهم يابانيين بابتسامة خفيفة غامضة وطأطأة للرأس خفيفة وغامضة أيضاً. وسوف يستغربون هذا السلوك. أنا نفسي لم افهم. في باريس لايحيي الغرباء بعضهم دون سابق معرفة.

ملحق تموز

بلد مسكون بالأرواح والمارس ربّ موجودة في كلّ مكان: في حجير ملقى، في براد، في كرسي أو في دولاب. أرباب تتوالد في صمت الأشكال، في شجير أخضر أو في تاب، في عقد، في سيف، أو في مرآة. بلد مزروع بالأشباح وهواتف في كلّ الجدران. باريس الباهية، كما يقول التعبير الوهراني، تحوّلت إلى أخرى: فردية جداً، حرة جداً، مليئة مثلي بالغرباء والأجانب من جميع الألوان، وأكشاكها بالصحف من جميع اللغات. أهي طوكيو الوحيدة المليئة مثل نفسها بلغة واحدة وقامة واحدة وبرنامج واحد. أهو الشرق هكذا على الدوام من الواحد إلى الواحد الاخير.

ملحق آب

كان الوداع في مطار ناريتا حارّاً، وشبه رسمي. تلويحات بالأيدي. ابتسامات مبهمة. هل أعود. هل يعود هذا الأجنبي العجيب. ليس معي سوى السراب. خارجاً من بلاد السراب، لا أحمل غير الوهم والفراغ والعدم. أية خيبة لبستني لدى هذا الشعور. إحساس بالفزع. عندما لانفهم نشعر بالخوف. وعندما نفهم نشعر بالرهبة. للمعنى قوانين لايدركها غير الشكل. وأنا الشّكل الذي يطير من معنى إلى آخر. متتاليات خاصة بأولاد الشمس المشرقة.

ملحق آب

وفي اليوم التالي لاشيء خاصاً. كلّ شيء للشارع. سوف لن يستفيد أي ذئب من العواء والعويل والاحتمي في الليل وجنح الظلام. ابتسامة خفيفة في وشاح غامض. طأطأة للرأس خفيفة وغامضة هي الأخرى. كان الوداع حارّاً وشبه رسمي. تلويحات مبهمة. وليس في

الجيوب غير الوهم والسراب، أني حمل ثقيلا خارجاً من بلاد الأشياء والجدران، ليس للمعنى قانون لا تدركه الأشكال، وليس للأشكال سوى وهم المعاني، متتاليات ومعادلات خاصة بأولاد «أماتيراسو»، أولاد الشمس المشرقة. الشكل طير يقفز من هذا المعنى إلى ذاك ولا حول ولا قوة لأي سؤال يجيئ منفرداً. لابد أن يكون داخل قبيلة من الأسئلة المتشابهة المتداخلة المتوارية.

ملحق أيلول

انتهت «خدمة التدريس الإلزامية». انتهت أسئلة: من أين أنت ولِمَ أنت هنا، وهل تحب الأرخبيل، وطعام الأرخبيل، وطبيعة الأرخبيل، وكم أخاً عندك، وكم أختاً، وهل أنت متزوج أم لا، ولِمَ تشرب الخمور وأنت مسلم، ولِمَ تأكل الخنزير وأنت مسلم.. وانتهى صيد الصراصير في بيت الأشباح، وانتهت المراقبات اليومية.. وها هو الذئب يستعيد، أو يظن أنه يستعيد الحرية المفقودة. لكن هل تُفقد الحرية حقاً... ثمَّ هل تعود بعد تذوق طعم العبودية... أين الحرية وأين العبودية، ما الحدود الفاصلة.. هل الحرية عبد نفسها، لا حرية في هذا العالم، ولا في أي عالم آخر. الحرية وهم من أوهام العبيد، اخترعوها، أمثلوها، وصاروا عبيداً لها..

ملحق أيلول

... وكم أخاً لك وكم أختاً، ثم وكم زوجة وكم طفلاً. انتهى صيد الصراصير في بيت الأشباح ذاك حيث كان الوقت ينقضي ثقيلاً ثقيلاً مثل ياطر سفينة في أعماق محيط بلا حدود وبلانهاية، وحيث كانت تلك الروائح ذاتها تخرج من خلايا جدار أو سجادة غارقة في سباتها تحت أكوام الغبار، وحيث كانت الستائر قد اصفرت تماماً من تدخين حفلات طلاب السنة الأولى. وكان الدرج الداخلي إلى الطابق الأول يصدر في الليالي الباردة أو الحارة صريراً يسبب أعتى أنواع القلق ولامن مجير سوى الصمت والاستسلام. وبعدها كيف يمكن أن تستعاد الحرية المفقودة. لكن هل تفقد الحرية حقاً، وهل تعود بعد تذوق طعم العبودية المذلة، وبعد ارتداء قميص الطاطاة المرقه... ثم أين الحدود الفاصلة

بين الحرية والعبودية؟ وأيهما أسبق وأقدم؟. في اللغات الشرقية جداً (كي لاتقول الشرق أقصوية) وحسب طقوسها التلالية يقال إن الحرية عبد نفسها واللاحرية في هذا العالم، هي وهم ابتدعوه وأسلموه وصاروا ينادون به... والوقت ثقيل ثقيل مثل باطم ولايبلغ أي قلم.

ملحق تشرين الأول

لم تكن علاقتي مع دمشق قوية وحميمية. صداقات قديمة أُحييها من حين إلى آخر عندما أعود. لا أعرف مدينة عربية واحدة بعمق. دوماً عبور مؤقت. هل هناك مدينة عربية. لا أدري... في سوريا نسي الأصدقاء، والنّاس أنني عشت في باريس... هو عائد من اليابان. عندما كنت أعود من باريس، أيام الدراسة، إلى سوريا في عطلة أو ماشابه، كانت الأسئلة: هل فرنسا جميلة، هل نمت مع فرنسيات كثيرات، هل تترجم لنا هذا الرواية أو ذاك الشاعر، هل أتيت معك بعطر فرنساوي، هل أكلت حلزوناً هناك، هل رأيت فلاناً الذي هاجر ولم يعد منذ نصف قرن، أو فلاناً الذي ذهب مع الجيش الفرنساوي، يقال إن العنصرية ضد العرب تزداد هناك، هل هذا صحيح... الخ.

ملحق تشرين أول

في الداخل صرخة عاقفة على التفكير بالنهوض والاتصل إلى نتيجة. العلاقة مع دمشق أو القاهرة أو بيروت غير واضحة تماماً. صداقات قديمة، أو جديدة، تعاد من حين إلى آخر أثناء الرجوع. معرفة قليلة بالمدينة العربية. وعلى الدوام عبور مؤقت وإقامة معجزة. لكن هل هناك مدينة عربية تشبه هذه المدن التي تأكل الغرباء. ليس بعد. جميع المدن العربية مشغولة بأبنائها، ولم تؤخذ بعد بموجبات المدن العالمية الكبرى. لاتزال أطباقها محلية من أولاد القرى الوافدين.

ملحق تشرين الثاني

في اليابان سوف أُسأل: ماهو مشروبكم الوطني، ماهو طعامكم الوطني، هل عندكم أسماك مثلنا، وفي سوريا وغيرها من البلدان العربية سوف يسأل الجميع: ماذا يعبد النّاس في اليابان، ماهو إله اليابانيين، ماهي ديانتهم، ماهي معتقداتهم، هل عندهم إله، هل هم مسيحيون أم يهود، ماهي كتبهم المقدسة، ولماذا لانعرفها، هل تستطيع التمييز بين الياباني والصيني، لماذا لليابانيين أشكال صينية؛ هل هم محافظون مثلنا على الطريقة الشرقية.. وإذا كان السائل مثقفاً: كيف تفسّر تقدّم اليابان، ألن ينتقم اليابانيون من أمريكا بسبب هيروشيما وناغازاكي، يبدو أنهم سوف ينتقمون وقد بدأوا الحرب الاقتصادية، مارأيكَ، فهم يباشرون دوماً بالحروب، مارأيك. لماذا انتحر ميشيما وكاواباتا، لماذا ينتحر اليابانيون، لاسيما الكتّاب والروائيون. أسئلة مشابهة من أصدقاء عرب، سوريين وغيرهم. الياباني في/ومن هذه الدنيا، العربي في/ومن العالم الآخر.

ملحق تشرين الثاني

في اللقاءات الجماعية كما في اللقاءات الفردية سوف لن تتغير الأسئلة كثيراً: ماذا تأكلون في بلادكم وماذا تشربون. وإذا ارتقى السؤال إلى مرتبة أجمل فسوف يكون: ماهي وجبتكم الوطنية؟ ومن لايعرف، كيف يجيب!! من طنجة وتطوان إلى دمشق وبيروت وبغداد، مروراً بالأهرامات، كم وجبة وطنية موجودة!!! ولو طرح هذا السؤال على طباخ عربي فهل يقدر على الإجابة. لكن لو جاء سؤال من نوع: ماهو الإسلام، أو ماهي المسيحية، أو ماذا تعبدون، أو كيف تفكرون، أو ماشابه من هذا الأسئلة، لكانت الإجابة مسهبة ولكان الكلام أكثر دقة... غير أن أولاد «أمَا تيراسو»، أولاد هذه الشمس المشرقة من هواة الأسئلة ذات الأجوبة الفاصلة المحسوسة، الأجوبة المطبوخة في تدور من فضة أو من نحاس.

ملحق كانون الأول

وعندما أجيب، أو أحاول الإجابة، سيرى سائلي أنني أقع في تناقضات. معه حق. أنا أيضاً معه. اليابان وكلُّ مايحدث فيها متناقض من وجهة نظرنا الثقافية. لكن في البسكيولوجية اليابانية لاوجود للتناقض. هناك أشياء أخرى محله.

ملحق كانون الأوّل

وتنقلب الآية في الجهة الأخرى من الإقامة: في دمشق أو في بيروت أو في غيرهما من المدن العربية، تأتي الأسئلة جميعها حول العبادة والدين... ماذا يعبد الناس هناك في بلاد الشمس المشرقة، في اليابان... ماهي كتبهم المقدسة، وماهي معتقداتهم الدينية. وإذا كان السائل مثقفاً: كيف يُفسّر تقدم اليابان، لماذا انتحر ميشيما وبعده كاواباتا، لِمَ ينتحر الروائيون والكتاب هناك. على هذه الأسئلة الأخيرة لاتصعب الإجابة كثيراً. لكن لابد من التناقض ووضع الكلام كله بين هلالين أثناء الإجابة على الأسئلة الأولى. ولو جاء السؤال من نوع: ماهي وجبتهم الوطنية، ماذا يأكلون ويشربون، لكانت الإجابة طويلة ودقيقة دون تناقض أو هلالين. ويكبر التيه، يكبر بين الإقامتين ولاخيام ولا أعمدة، فقط خيول سابحة ولاسروج فوقها ولا كأن الطير فوق رؤوسهم، ولا ليلاً كموج البحر سوف يرخي مالديه من سدول على الجميع بأنواع الهموم ليبتلي...

ملحق كانون الثاني

في المجتمع السوري، وفي المجتمع العربي عموماً، سوف أكتشف كثيراً من ملامح المجتمع الياباني: دجل. ضغط. مراقبة. نميمية. وشاية. مؤامرات. أفلام... الخ. لكن بشكل أقل تنظيماً. أقل حضارة مما في اليابان. هنا كلُّ شيء له قناع جميل. أما هناك فكلُّ شيء مكشوف. عارٍ. مفضوح. والمرأة، هنا أو هناك، عاهرة إلى أن تصبح أماً أو زوجة. فتصير مقدّسة. هل أذهب إلى حدّ

القول إن العربي لايزال ينظر إلى المرأة ــ بسبب انعدام الحضارة ــ نظرة إنسانية أكثر من الياباني «المتحضر»، اليوم. ربما. لا أعلم. هل الحضارة ضد المرأة. هل الحضارة ذكورية إلى هذا الحدّ. هل الذكر متوحش إلى هذا الحد!!

ملحق شباط

لأن الغربة مرض، فقد أصبت به. هناك من يُجْبَرُ عليها فيأخذها وطناً ولايتاح له أن يذوق طعم الوطن. وهناك من يعيشها ترفاً فتنخر أيامه ويحرم ذاته من نكهة الوطن. وهناك من يحار في علاقته بها، فلا يستيقظ إلّا وقد أصبح كرة بين أقدامها ولاحول. سنة، سنتان، ثلاثة، عشرون كافية للإصابة بجراثيمها. إنّها الإيدز العربي. ولذلك لا أكمل سنة في سوريا. سوف أعود إلى... إلى اليابان هذه المرّة. لالشيء على الإطلاق إلّا لأنني واحد من ضحايا الغربة، ضحايا الوهم: وهم البحث عن الجديد. كان يمكن أن يكون أيُّ بلد آخر. شاءت المصادفات أن تكون اليابان. ومنذ فترة وجيزة ولحد كتابة هذه السطور أواخر ١٩٩٧ ، أعيش متردداً حائراً بين العالم العربي وبين الأرخبيل الأحمر، بين دمشق وطوكيو، بين سوريا وبين اليابان بين مرارة الوطن ومرارة الغربة: أنجع حلّ لبلوغ هذا الإستقرار والشفاء.

ملحق آذار

ربّما لانحقن جيداً، في بلادنا ومنذ الطفولة، ضد أمراض الغربة. أو لعلّنا نولد مرضى بها فلا تنفع الحقن والأدوية.. داخل غرفة الفندق في دمشق أيضاً، أقف أمام المرآة بحثاً عن آخر أثر من آثار أي وجه من وجوهي السابقة وجهي القروي، وجهي الدمشقي، وجهي الحلبي، وجهي الباريسي، وجهي الوهراني الجزائري، أو حتى وجهي الياباني، وجه الأمكنة التي صاغتني، لكن عبثاً. لابدَّ أنني مرضتُ بوجه مشظّى، بوجهِ الياباني الذي يولد عجوزاً ويموت طفلاً. نعم، الياباني يولد عجوزاً ويموت طفلاً.



البوابة الأخيرة



مقدمة الرّياح

إلى يومها، لم أكن قد عرفت أو التقيتُ يابانياً من قبل. أو لم أكن أميز بين ياباني وصيني أو كوري أو ماشابه من هذا العرق الأصفر. لم يكن أولاد هذا العرق، أولاد الشرق الأقصى، يثيرون اهتمامي. لا لشيء. إلّا أنني كنت مأخوذاً بأشيائي الخاصة، ومأخوذاً بالغرب. ولم أكن أعرف عن اليابان إلّا بعض قصائد الهايكو التي لم ترق لي آنذاك لشدة قصرها وغموض مدلولها وانعدام أية ذات أو أنا فيها، ولأنني كنت مولعاً في ذلك الحين بالقصائد الطويلة والإسهاب الشعري.. كنت مولعاً بالتجريد وبجميع مشتقاته... وكنت أعتقد أن فرص العمل متوفرة فقط في العالم العربي أو في الغرب أو أمريكا.. وكذلك الثقافة والحضارة والتقدم.. إلى يومها، لم يكن الشرق الأقصى في نظري أكثر من اسم جغرافي أسمع به من حين إلى آخر، وأكثر من عيون مغولية مشدودة الأطرافِ وضيقة، وكلُّ قادم من هناك صيني...

المكان ناءٍ وناءٍ جداً. لكن أحوال باريس ليست على مايرام. والأصدقاء فيها من مقهى إلى آخر، يتناول بعضهم بعضاً بصيغ مذرية.. يتناوبون على النميمة وذرّ الشتائم.. صداقات متعبة.. غربة تخرج من غربة لتدخل في أخرى. وأية بوابة تنفتح أولاً وقبل غيرها، سوف أتجه صوبها، حتى ولو كانت بوابة الشيطان.

هكذا كان الوضع عندما فاتحني صديق حميم بإمكانية السفر إلى هناك للعمل كأستاذ زائر في جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية عدة من سنين. جاء العرض آخر سنة ١٩٨٨ ، أي بعد سنة تقريباً على تركي الجزائر حيث كنت أعمل في جامعة وهران. تركت الجزائر وعدت إلى باريس من جديد.. حركة

مدّ وجزر حكمت علاقتي بباريس الباهية، باريس الزاهية، كما يقول التعبير الوهراني. أتعب منها فأهجرها، لكن سرعان ما أعود، إلى أن خطفتني طوكيو سنة ١٩٩٠ . كان على الصديق الحميم أن يذهب، هو، إلى تلك الجامعة. لكنه سوف يعتذر لانشغاله وضيق وقته. وأحبَّ أن يسدي لي خدمة من بين خدمات أخرى لاأنساها أبداً.. «سوف أقترحك مكاني. مارأيك؟»... وهل يمكن الأمر؟ «أقترحك، ونرى ماسيكون». ومع ذلك، لم أنتظر جدياً تلك الفرصة. وتابعت البحث عن فرص أخرى داخل العالم العربي. وفي صيف ١٩٨٩ وصل إلى باريس مسؤول قسم الدراسات العربية في الجامعة المذكورة. واتصل بالصديق الحميم يسأله عن مدى استعداده تلبية رغبة الجامعة اليابانية بالتعاقد معها.. دعاه الصديق إلى البيت وأخبرني بالموعد.

لم أتأخر. انطلقت إلى بيت الصديق الحميم، وكان لقاء الثلاثة... اعتذر عن عدم قدرته تلبية تلك الرغبة لأسباب عرفتها فيما بعد، واقترحني مكانه في الوقت نفسه. في الطريق إلى ذلك الموعد خطرت لي جميع صور رؤساء الأقسام الذين عرفتهم من دمشق إلى باريس إلى الجزائر: قامة محنية، شعر أشيب ومحفظة كبيرة مليئة بالأوراق والكتب يتناقلها من يدٍ إلى أخرى؛ ثم وجه جدي مليء بالأخاديد والحفر، ونظارتان سميكتان يسندهما أنف طويل. غير أن شيئاً من هذا لم يكن لدى رئيس القسم الجديد. أدخلُ فإذا بشخص مربوع القامة يجلس في الصالون على كنبة خفيضة قبالة الصديق الحميم. أسلِّم وأجلس صامتاً أتفحص الوجه الطفولي لرئيس القسم هذا.. نعم، له وجه طفل، وجه شاب لم يتجاوز الثلاثين من العمر. أصغيت إليه وهو يتكلم العربية دون أن تفارق وجهه ابتسامة مدهشة وعجيبة.. ونحنحة أثناء الكلام.. ثم أسئلة جريئة يطرحها على المعلم الصديق... أسئلة شخصية وخاصة... أحدِّق وأتفحص... شاب ومن عمري!! أو لعلي أكبره قليلاً!! فأنا بشاربي أبدو أكبر منه بالتأكيد... لكنه كان في حوالي الخمسين من عمره.. لاخبرة لي مع هذا العرق الأصفر.. فالخمسيني يبدو ثلاثينياً وأقل، والستيني يبدو أربعينياً وأقل.. أعمارهم لاتظهرُ على وجوههم. هكذا يبدو الأمر لمراقب أبيض جديد. لكنه لايخفى على أحد فيما بينهم.

ثم خرجنا من عند الصديق الحميم معاً. في الشّارع أمام محطة المترو ترددت ماذا أقول له. كنت قد سلّمتُه الأوراق التي طلبها مني وأهديته مجموعتي الشعرية الأولى «الميامر والتساعات التابعة».. ترددت في دعوته إلى كأسٍ من البيره.. هل يشرب؟ لايشرب؟ لعلَّ أولاد الشرق الأقصى لايشربون؟! أو لعلّهم لايعرفون الشّراب؟ أو ربّما لأنه أستاذ جامعي ورئيس قسم أيضاً لايشرب؟! حقاً ترددت. ماذا سيقول إذا دعوته: قد يفكر مثل أي أستاذ مغلق بأنني سكير لمجرد تناول البيرة فقط. وأنا لا أذكر، خلال عشر سنوات في باريس، أنني شربت حتى الثمالة.. مرتان أو ثلاث مرّات. أيُّ أسفٍ أشعر به الآن.. وقد يأخذ دعوتي على أنها رشوة، وأنا غير قادر على الرشوة وغير مقتنع بجدواها... لا أعرف كيف بدا لي آنذاك أن رئيس القسم هذا شيخ متدين. ولا أعرف كيف نظرت إليه قائلاً: ما رأيكَ هل تشرب معي كأس بيرة؟ لا أفهم لماذا لم أدعه إلى القهوة أو إلى الشاي؟ الابتسامة التي تعلو وجهه هي نفسها، لم تتغير. ولا أعتقد أنها سوف تتغير. ابتسامة تبعث على الطمأنينة والقلق في آن. سوف أكتشف فيما بعد أنها ليست ملكاً خاصاً به، بل هي هي نفسها بحذافيرها تعلو وجه كلّ ياباني. وفوجئت عندما وافق على تناول البيرة معاً. إذاً هو شاب ومن عمري!! وإلّا هل يُعقل أن رئيس قسم يشرب؟ هل يُعقل أن الياباني يشرب؟ ودارت في رأسي أسئلة أخرى مشابهة.. لا أعرف لماذا وكيف خطرت لي فكرة أو أفكار أن الياباني لايشرب وأنه أقرب إلى التدين منه إلى أي شيء آخر. أذكر أننا شربنا كأسين فقط، ثم افترقنا وكلّي يقين بأنَّ شيئاً لن يحدث فيما يخص موضوع السّفر إلى اليابان.

مقدمة الوهم

وفي صبيحة ذات يوم من صيف سنة ١٩٨٩ (تموز أو آب) يهتف لي إلى غرفتي في الدائرة السابعة من باريس. «أستاذ محمد عضيمة، أنا نوتاهارا الياباني، هل يمكن أن نلتقي اليوم. عندي رغبة أشوفك ونتحدث شوية». ثم

اتفقنا على اللقاء في حي السّان ميشيل. كان الوقت مساءً وكان يريد أن يذهب إلى مشرب انكليزي pub. لكنَّ هذا النوعَ من الأماكن غالٍ ولا أعرف الكثير منها في باريس، ولم أبحث عنها، فقط لأنّ الدراسة كانت شغلي الشاغل، ولأن الظروف لم تكن مواتية. ومع ذلك نجحت في الوصول إلى مشرب معقول. بدا لي أنه كان يريد رفيق كأس من جهة، واكتشافي من جهة ثانية. لكنه أعطى انطباع من لايعرف الفرنسية ويريد من يعرفها لمرافقته. والواقع يعرف الفرنسية جيداً ولايحتاج إلى أي مترجم. أذكر أننا طلبنا كأسين من الويسكي. أنهى الأولى بسرعة وطلب الثانية، أما أنا فقد نزعت إلى الاكتفاء، إذ لم أكن قادرا على دفع ثمن اربع كؤوس أو أكثر في محلّ مماثل. شرب كأسيه كما يشرب الحليب. أراقب صامتاً: لِمَ السرعة، يا لهذا!! برميل دون قاع!! يشرب كالبالوعة!! ولكن من سيدفع؟ فهذا الرجل مجرد أستاذ جامعي، وقد لايكفيه راتبه. وربّما عنده عائلة وأطفال. ومن المؤكد أنه يحتاج إلى شراء مراجع دائماً. ثم هو زائر في باريس. ياترى أعنده فلوس!! والواقع، كنت قد احتطت للأمر بمبلغٍ جيد، إضافة إلى دفتر الشيكات الذي لم يكن يفارقني، حتى وإن كان رصيدي في المصرف ضئيلاً إلى درجة الصفر أحياناً... ثم لماذا يشرب بهذه الطريقة القصوى؟ هل أدرك مادار في ذهني وما خطر لي من أن الياباني لايشرب، ولذا يحاول برهنة أن الياباني مثل الجميع يشرب ويسكر.. أم لعله أراد أن يقول: صحيح أنا رئيس قسم، لكنني إنسان أولاً وأشرب كما يشرب الآخرون ولا أريد أن أكون قدوة الطلاب حتى في إجازتي وفي أوقات راحتي... قلت لعلَّ الأمر هكذا.. ومع ذلك لم أتركه يثلّث خوفاً من ورطة مادية قد نقع ضحيتها.. واقترحت عليه الخروج إلى مكان عادي غير هذا الذي نحن في داخله. فوافق وهمَّ كلٌّ منا بدفع الحساب.. كنت جاهزاً للدفع في حالٍ، أو في حال كلٌّ يدفع عن نفسه. تريثتُ قليلاً، فإذا به يدفع بشكل طبيعي دون تردد وبثقة. أدركت وقتها أن الرجل ابن مهنة وابن كاس بحق... كان الليل «قد أرخى سدوله» على باريس وطاب وقت التسكع.. لم أعد أفكر بموضوع العلاقة بيننا، ولابقصة السّفر. فالرّجل يبدو شهماً وأنا فلّاح الطباع،

ولابدّ أن أردَّ الدّين هذه اللّيلة.. سوف أسقيه الويسكي ذاتها، لكن في مقهى عادي، أو في مقاه عادية، وبسعر أقل. وقدته من مقهى إلى آخر، وفي كلّ مقهى نشرب واقفين على البار، نتجاذب أطراف أحاديث لا أذكر منها شيئاً... أحاديث سكارى... في باريس لم أكن أشرب على الإطلاق إلّا في المناسبات... وكانت تلك اللّيلة واحدة منها.

ومع ذلك، لم يغير ذلك اللقاء تصوري الأولي عن الياباني. واعتبرت أنَّ رئيس القسم هذا قد لايكون نموذجاً يابانياً دقيقاً... ثم جاء الهاتف الثاني بعد فترة وجيزة: «أستاذ محمد عضيمة، أنا نوتاهارا الياباني، هل يمكن أن نلتقي اليوم، عندي رغبة أشوفك ونتحدث شوية». بلا تردد قلت نعم. واتفقنا على اللقاء في مقهى صغير قرب السوربون حيث كنت أجلس وأعمل على ترجمة رواية: «طبول المطر» للألباني اسماعيل كاداريه. تلك الرواية التي نشرتها دار الآداب سنة ١٩٩٠ . لم نطل المكوث في المقهى كان يريد الحديث بشكل جدي حول موضوع عملي في اليابان. سرنا في اتجاه حديقة اللكسمبورغ ورحنا نتجول في نواحيها. وهناك سألني عما إذا كنت جاهزاً للسفر في نيسان سنة ١٩٩٠ . أجبت بـ: نعم. ثم طوينا الحديث ورحنا نشرب. أذكر يومها أنني دعوته إلى مطعم شاورما تركي، حيث نأكل واقفين، ثم ننتقل إلى الشراب في مكان آخر. يومها. فهمت أن الرّجل طيب جداً وذو معدن نقي، فقط لأنه أكل كما آكل تماماً. فأنا لي فلسفة في فهم الآخرين: في الجلسة الأولى فهمت أنه ابن كاس ويتذوق طعم الكاس جيداً، يتمتع إذ يشرب ودون عربدة. أمير من أمراء الكاس، واقطاعي كروم. وفي الجلسة الثانية أثناء الطعام، أكل بشهية واثقاً من طعم مايذوق. هناك أناس يأكلون بشراهة، وهؤلاء غير قادرين على إقناعي بطيبتهم ولا بنقاء معدنهم. أما صديقي هذا، فقد منح الطعامَ ثقته، فمنحه الطعامُ نكهته. شعرتُ وهو يأكل أن صداقة قديمة توجد بينه وبين ما يأكل. وهذا لايحدث لي دائماً. هناك من يأكل وكأنَّ له ثأراً قديماً مع اللقمة، فلا يأكل إلّا بأسنانه دون أي شعور بحضور الطعام. أما صديقي فكان يأكل بكامل

حواسه هادئاً ودون أي انفعال. تلكم هي فلسفتي البسيطة في اكتشاف معدن الآخرين... هناك من يأتي إلى الطعام من فوق، وكأن له فضيلة على الطعام إذ يأكله... هذا النوع من النّاس أتقيه لإحساس بلؤمه. وهناك من يأتي إلى الطعام بقلب هني وروح مفتوحة، هؤلاء هم بعض أصدقائي. ولا أخاف من أخطائهم إذا أخطأوا معي. ثم هناك من يأتي إلى الطعام من تحت وبدناءة نفس وكأنهم لم يعرفوا مذاق الطعام في حياتهم، هؤلاء أسوأ القوم وليس لِي بينهم أي صديق.. هكذا أفهم الآخرين إذا جمعتنا مائدة... وهكذا فهمت أن رئيس القسم هذا طيب القلب وصافي السريرة... في ذلك اللقاء صرت أسأله عن معاني بعض أسماء السيارات اليابانية، أو هل لهذه الأسماء من معانٍ... سألته مثلاً عن معنى «سوزوكي» فأجاب أي «جرس الشجرة» وسألته عن معنى «ياماها» فأجاب أي «جبل»... إلخ أذكر أن المعاني أعجبتني، وأذكر أنني لمحت ذكاءً ما لدى هذا الرجل. لا أعرف بالضبط ما الذي دفعني إلى أن أسأله عن معاني أسماء السيارات... لكنه أدرك أنني لا أعرف شيئاً عن اليابان وأنني بريئ كالأطفال حول هذا الموضوع. لم يكن همي إقناعه بنفسي من أجل السفر والعمل. فسرعان ما أدركت أن اليابان بلد بعيد عني ثقافياً وجغرافياً وقد لاتكون لي مصلحة كبرى في الرحيل إليه. والواقع كنت أبتغي واحدة من جامعات المغرب، وكنت قد بدأت بنسج خيوط علاقة تفضي إلى هذه الغاية. غير أن ظروفاً عجيبة حالت دون ذلك بعد أن تأكد أمر العمل هناك تقريباً. وهكذا أقنعت نفسي بضرورة السعي في أقاصي المعمورة. وصرت أحاول فهم هذا الصديق الياباني أكثر، لأنه سيكون البوابة الوحيدة المتبقية في ذلك الموسم.

أكلنا الشاورما التركية، ثم شربنا البيرة في مكان آخر... تسكعنا بعض الوقت في شوارع باريس ثم افترقنا. وبعد عدة أيام يهتف لي من أجل لقاء آخر. والتقينا. ثم أخبرني بأن عملي في اليابان مؤكدّ ٨٠٪. لم أعرف كيف تأكد من الأمر. قلت: لعله أجرى اتصالات هاتفية مع الجامعة ومع الإدارة وحدّثهم عن أمري فردّوا عليه بالإيجاب... أعلن النبأ وأردف قائلاً: ما رأيك أن نحتفل

بهذه المناسبة... وانطلقنا باتجاه مطعم إيطالي لتناول الغداء أو للإحتفال بالمناسبة... لم أكن معتاداً على الشراب نهاراً، وكان عندي عمل لابدَّ من إنهائه... شربنا يومها زجاجتين من النبيذ الإيطالي ولم يعد بإمكاني العمل فعدت للنوم في البيت يخالطني فرح مبهم. تتالت لقاءاتنا وتعددت. صار يتمتع بالتقاط الصور لي في الشوارع وفي المقاهي، وأنا جالس أكتب، أو أتناول القهوة.. ولم يلتقط لنفسه أية صورة. فهمت فيما بعد أنه يحب التصوير. وفهمت أن الأمر هواية يابانية بامتياز. ولكثرة ما صوّرني اعتقدت أنه يسخر مني ويُجرِّب عضلات كاميرته بشواربي. ومع ذلك كنت أذعن للأمر قائلاً إن هي إلّا واحدة..

في بداية سنة ١٩٩٠ بدأتُ الإستعداد للسفر... للسفر إلى بلاد لا أعرف عنها أي شيء، سوى ماكنت قد رحت أقرأه في كتب للسياحة.... في باريس، أيقظ هذا الياباني ذئب الخمور الذي كنت قد أخفيته في داخلي عندما تركت مدينة حلب بعد إنهاء الخدمة الإلزامية سنة ١٩٧٩ . منذ ذلك الحين لم أسمع عواءه في أعمق أعماقي إلّا عندما التقيت بنو بواكي.. حلب هي الوكر الأول لذاك الذئب الذي نام بقلق تارة وبهدوء تارة أخرى. كلُّ باريس، بما فيها لم تستطع إيقاظه طوال عشر سنوات. ولا أعرف لماذا تنحنح منذ لقائي الأول بنو بواكي. وفي كلِّ مرّة التقي بها نوبواكي، يستيقظ ذئب الخمور ويعبُّ كما لو أنه غاب دهراً عن الكروم والشراب.

حتى ذلك الحين، ورغم ولع صديقي بالخمور، لم تتغير في ذهني الصورة الأولى والفطرية عن الياباني: متدين لايشرب، تقليدي لايشرب... الخ وكان من المستحيل انتظار أنَّ اليابان غابة من الخمارات وأن ساكنيها قطعان من ذئاب الخمور... نوبواكي نفسه، بالإبتسامة نفسها تلك، كان في انتظاري بمطار ناريتا الدولي بتاريخ ١٦ ــ ٤ ــ ١٩٩٠ . توقعت أن نتبادل القبلات على طريقتنا (ضمير الجميع هنا لابدَّ أن يعود إلى العرب والأوروبيين وإلى الشعوب التي تعرف هذه العادات)، لكنَّ نوبواكي تراجع بطريقة أربكتني. وقلت لنفسي:

لعلّه يتأفف من هذا الموضوع، فلا بأس. ولم أعلّق على الموضوع كثيراً، وإن بقي في داخلي شيء من الحرج واللّوم. لكن عتبت عليه فيما بعد، واعتبرت الأمر «صفعة». كان يجب أن يجاملني على الأقل لأنه مستعرب ويعرف جيداً هذه العادة العربية. وكان جوابه أنه لايعرف المجاملة. لكن سوف أكتشف فيما بعد أنَّ الياباني مجاملٌ إلى درجة «النفاق» أحياناً، إلى درجة، ينسى فيها أنه يجامل، إلى درجة تبدو المجاملة فيها جزءاً من طبيعته. وسوف أكتشف أن نوبواكي، صديقي، ياباني بامتياز، ومجامل من درجة رفيعة. وسوف أكتشف أيضاً أن المستعرب الياباني يتعامل مع الثقافة العربية، ومع العرب، من فوق. ولهذا حديث سوف أرويه لاحقاً من خلال تجربتي مع الإستعراب الياباني. لكن أقول، وبإيجاز، إن المستعرب الياباني يتعامل مع مادته العربية بصفتها بضاعة لأكثر، وبصفته تاجراً لأكثر.

الطريق والتابوت

من شباك الطائرة بدا لي الساحل الياباني. زرقة البحر هي التي بدت أوّلاً. ثم خضرةٌ لامتناهية. هي ذي اليابان، هو ذا الربيع، ربيع سنة ١٩٩٠ . هل ودّعتُ باريس. كلّا. كانت لاتزال في الرأس. هي ذي طوكيو. في الطريق إلى طوكيو، كان نوبواكي هو الذي يقود سيارة باجيرو، وكنت أنا أنظر ذات اليمين وذات الشمال، لعلّي أرى شيئاً لاعهد لي به. عندما سافرت إلى باريس لأول مرّة، كنت أتساءل: هل يوجد في فرنسا تراب مثل التراب في سوريا. وعاد إليّ السؤال عينه: هل في اليابان تراب وأشجار مثل التراب والأشجار في فرنسا وفي سوريا. كنت أبحث عن تراب غير التراب وعن أشجار غير الأشجار. إنه البحث عن أرض أخرى، وعن عالم آخر. ذلكم هو السَّفر والانتقال من مكان إلى مكان مثل أحوال الوقت... هو ذا الشرق الأقصى «السحري» الذي ياما حلم به الكثيرون... هو ذا أنا الشرقي، في الشرق الأقصى.. واكتشف أن التراب هو التراب نفسه، وأن الأشجار هي الأشجار

نفسها... غير أنني في الشرق الأقصى... أي عبث هذا.. لاجديد، لاجديد.. هذا الصوت الذي صار يصرخ في داخلي.. انتابني شيء من الغضب... لاجديد لاجديد يا إله العدم... فقط شعرت أنني في آسيا... لماذا؟ لاأعلم. ربّما لأنني لم أشاهد سوى الآسيويين، سوى العيون المنغولية المشدودة الأطراف الضيقة تلك.. ثم من أين جاءني هذا الشعور الآسيوي... لعلّي أردت الاندماج في المكان لا أكثر... وكنت أراقب كلّ حركة يقوم بها نوبواكي أثناء قيادة السيارة... عاودتني صور الطفولة بشكل غير معقول: ولاسيما صورتي وأنا أقف على جانب الطريق العام الواصل بين اللاذقية ودمشق، أراقب السيارات المارة، وألوّح بيدي أحياناً، وأحياناً أتناول حجراً وأشلفه وراء شاحنة عابرة... لماذا صور الطفولة في هذا المكان القصي... لم أفهم.. شعرت أنني أصل إلى أقصاي.. فقط لأنني شرقي، ومن الشرق الأوسط. والأوروبي، ماذا يشعر؟ ثم الياباني؟ هل يشعر الياباني أنه في أوسطه أو في أدناه عندما يصل إلى الشرق الأوسط أو الشرق الأدنى؟ ورحتُ.. رحتُ أفكر بالفرق بين هذه الكلمات الثلاث: الأوسط، الأدنى، الأقصى... ثم.. ثمَّ لماذا ترتبط بلفظة الشرق فقط.. لماذا لايقال أيضاً عن الغرب: الغرب الأوسط، الغرب الأدنى، الغرب الأقصى.. ولماذا لايقال عن الجنوب والشّمال الشيء نفسه.. وصرتُ، صرت برميلاً من الأسئلة وأنا أراقب شكل وحركات صديقي وهو يقود سيارة الباجيرو في الطريق إلى طوكيو.

غير أن لي صديقة سوف ترفض هذا المنطق.. منطق الجهات.. وسوف تقول لي: الكرة الأرضية كلُّها جهة واحدة... واليابان ليست أقصى الشرق.. وليس لها حدٌّ سواها.. اليابان تحدُّ اليابان من جميع الجهات... هكذا تقول الجغرافيا الشعورية لدى كلّ ياباني... اليابان أكبر من أن يحدّها شيء سواها، أو أصغر من أن يمسك بها شيء سواها.. والياباني لايحدُّه شيء سواه.. ولا آخر بالنسبة إلى الياباني إلّا الياباني نفسه وهو ينظر في مرآة أو في مياه بئر.. يدخل في داخله ليبحث عن خارجه... يسبح في فنجان أكثر مما يسبح في محيط... يحييه الصمتُ ويقتله القول...

كانت أشجار الكرز في أيامها الأخيرة. «للأسف.. لم تستطع أن تراها وهي مزهرة، لكن لابأس سوف تراها في العام القادم». ثم أخذ نوبواكي، صديقي، يشرح أهمية شجر الكرز المزهر بالنسبة إلى الياباني... ثقافة الزهور.. ثقافة الشجر.. وكان الدرس الأول بالنسبة إلي. في الدّاخل، كنت أسخر من كلامه... رئيس قسم دراسات عربية في جامعة طوكيو ويتحدث بإسهاب عن شجر الكرز!! أية تفاهة!! أستاذ في الجامعة ويتحدث بإسهاب عن الشجر وأوراق الشجر!! أي جنون!! لماذا لايثير مسألة أدبية، أو مسألة سياسية، أو أخرى ثقافية؟! لماذا يتحدث عن أشياء لاقيمة لها ولامعنى.. أشياء تخصُّ الأطفال والأولاد.. كنّا في الطفولة نحتفل بعيد الربيع، عيد الزهور.. لكن كنا في الطفولة،وكان الشباب فقط يحتفلون.. لم يكن يأتي إلى تلك الاحتفالات أساتذة جامعات ولاحتى أساتذة مدارس... فهؤلاء للأشياء الجدية فقط... الزهور لاعلاقة لها بالأمور الجدية، والرّبيع لاعلاقة له بعالم الكبار الجدي... فما له رئيس القسم هذا مأخوذ بالحديث عن أشياء غير جدية.. والواقع، سوف أكتشف فيما بعد أنه يتحدث بجدية عن أمرٍ جدي... إنها ثقافة الطبيعة... تلك الثقافة التي يتقنها اليابانيون إلى درجة الملل. فالطبيعة عندهم جغرافيا شعورية أكثر مما هي جغرافيا جغرافية.. والأدب الياباني لامعنى له إذا جرّدناه من عناصر الطبيعة.. ولامعنى للشعر الياباني القديم، أي شعر الهايكو والتانكا، إذا جرّدناه من عنصر الرّبيع تحديداً، حيث تشغل صور أزهار الكرز جلَّ نسيجه، لحد أن شاعراً كبيراً مثل أوكا ــ ماكوتو يشير بسأمٍ إلى هذه الكثافة المزعجة. (راجع كتابه «محاضرات في التقاليد الشعرية اليابانية» ط١ . سوريا. دار المواقف).. في الرّبيع تبدأ الطبيعة بالعطاء.. وفي الرّبيع، إذاً، يبدأ الياباني بالعمل... في نيسان يبدأ العام الدراسي، وفي نيسان يبدأ الموظفون الجدد في شركاتهم الجديدة... العيش، إذاً، على إيقاع الطبيعة. الاحتفال بالربيع، بأزهار الكرز، يأخذ طابع الطقوس.. فلا بدَّ للياباني، كلّ ياباني، أن يتناول الشراب الروحي التقليدي (الساكي) المصنوع من الرز.. إنّه تقليد قديم جداً لم يتخل عنه الياباني لحد اليوم.. وسوف لن يتخلى أغلب الظن.. تناول الشراب الروحي

هذا، مشاركة للطبيعة في عرسها.. ولكن أنا، أمقت الرّبيع.. لا أحبُّ هذا الفصل إطلاقاً.. ولا أعرف لماذا ومن أين جاءني هذا الكره للربيع.. ولابدَّ أن هذا الموقف يحتاج إلى تحليل نفسي.. اللعنة على هذا الفصل من أوّله إلى آخره.. حتى الحديث عنه لا أحبه.. كلّما أطلَّ بقامته الحمقاء الأنيقة، أصير كتلة من التوترات.. وكثيراً ما سبب لي ذلك علاقات غير طبيعية مع اليابانيين دون أن أدري.. لهذا كنت أسخر من نوبواكي عندما بدأ الحديث عن الرّبيع وعن أزهار الكرز وأزهار الأشجار الأخرى... لعلَّ حبَّ الرّبيع حباً يقترب من القداسة لدى الياباني تحديداً، هو الذي عزّز في داخلي شعور النفور من هذا الفصل الذي أتمنى لو يختفي من بين الفصول.. أتمنى لو تستطيع السنّة أن تتجاوزه.. الربيع هذه الخدعة السنوية.. إنّ كلّ مايقترب من القداسة أنفر منه وأطير.. لم أكن أحتمل مشهد العائلات اليابانية وهي تحتفل بقدوم الرّبيع وأزهار الكرز... عائلات بالكامل تنام تحت أشجار الكرز المزهرة.. يأكلون، يشربون، يغنون، يقيمون صلاة للرّبيع... وكان لابدَّ أن أحتمل هذا الجلد السنوي.. الشركات، حتى الشركات تتساهل مع موظفيها في الرّبيع، إذا ذهبوا للشراب والعربدة تحت أشجار الكرز المزهرة.. أحبُّ الشراب والعربدة، لكن ليس تحت أية شجرة مزهرة.. لذلك أفضِّل البقاء في البيت عندما يأتي الرّبيع...

ومع ذلك، لم أكن أفلت من ملاحقة الرّبيع.. فقدومه قد يكون عنوان نشرة الأخبار الرئيسية على شاشة التلفزيون الياباني.. ها قد جاء الرّبيع في منطقة كذا ممثلاً بوردة تفتحت، أو بشجرة كرز تفتحت بعض أزهارها... وسباق حقيقي بين قنوات الشاشة اليابانية الصغيرة على زفّ هذا النبأ.. وكاميرات المصورين تصل إلى هناك لنقل وقائع تفتح الأزهار.. في البداية، قلت هذا أفضل من نقل نبأ كارثة وأسلم للمشاهد.. ثم اكتشفت أنه الرّبيع، عدوي الفصلي، يلاحقني حتى إلى داخل البيت.. هذه هي لعنتك يا محمد عضيمة... أي جنون هذا، أي عبث.. هذا الفراغ الذي يسدّه قدوم زهرة.. هذا الشعب اللامبالي، وهذا التلفزيون أيضاً.. ثم آخذ بشتم المذيع والمعدّ

والمخرج والمصور.. لم يبق خبر في العالم ينقل إلّا خبر تفتح أزهار الكرز وأخبار الرّبيع.. لكن سوف أكتشف فيما بعد أن أخبار قدوم الفصول تزفُّ بالطريقة نفسها وبالإحترام نفسه.. أليس الفراغ الذي يسدّه تفتح زهرة أفضل من فراغ لايسدّه غير قدوم سياسي منافق، وقد يكون مجرماً بالفعل..

بيت الأشباح

بعد ساعتين، وربما أكثر، وصلنا إلى حي كيشي ـ جوجي على أطراف طوكيو القريبة.. وهناك يوجد المنزل الذي يجب أن أسكن فيه.. وهو المنزل المخصص للأستاذ الأجنبي الذي يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة نوبواكي، صديقي.. لا أعرف أن أصف أثاث البيت على طريقة أصدقائي الروائيين. ولكنه بيت مكون من طابقين: الأرضي صالون كبير ومطبخ ومكتب يتسع لطاولة وكرسي، والأول مكوّن من ثلاث غرف مفروشة بشكل أقل من متواضع.. لا أفهم لماذا انتابني شعور عجيب وأنا أدخل ذلك البيت... تذكرت غرف العاهرات في باريس، حيث كنت أصعد مع الواحدة لقضاء الحاجة بسرعة... الرائحة نفسها تماماً... أثاث قديم، قديم.. وعلى كلّ كنبة بقعة زيت أو ماشابه.. ولا أعرف كم أستاذاً استخدم ذلك البيت وأثاثه قبلي.. البيت وكلُّ مافيه أثارا فيّ القلق والتوتر... في الصيف يمتلأ بالصراصير وكنت اقضي جلَّ النّهار بملاحقة تلك الصراصير... وفيما بعد فهمتُ أنه لتغيير كرسي فيه، يحتاج رئيس القسم، نوابواكي، صديقي، أو غيره، إلى معركة هائلة مع إدارة الجامعة، أو مع القسم المسؤول عن هكذا قضايا.. معركة تكلف تلّة من الأوراق الرسمية وغير الرسمية، وفي النهاية يأتي الجواب: لاتوجد ميزانية... الأوراق والروتين في الدوائر الرسمية اليابانية.. حدّث ولاحرج.. والشجاع من يتكلم أو من يفهم... فيما بعد فهمت أيضاً، أن نوبواكي، صديقي، يشتري من حسابه الخاص أشياء كثيرة للأستاذ الجديد.. فهو لايحبُّ ولايطيق مسلسل الطلبات والأوراق... فيما بعد فهمت أيضاً أن الأستاذ الجديد يشتري مايحتاجه من

أثاث جديد.. أما أنا فلم أشترِ شيئاً وأبقيت على القديم كما هو لأن لي صداقة قديمة مع روائح العاهرات.. وأنا على يقين أن ذلك البيت مسكون بالأرواح والأشباح.. ولو حدث وجاء أدونيس كما كان مرسوماً، لطقّ عقله وطفش في ليلة دامسة السّواد.. فيما بعد تساءلت: هل يُعقل أن اليابان، هذا البلد «المتقدم» هذا البلد الغني، هذا البلد المشهود له بالنظافة والأناقة الرفيعتين، يُقدِّم بيتاً هكذا لأستاذ زائر.. أو هل يُعقل أن يترك بيت هكذا فريسة للغبار والصراصير ومن دون أي ديكور...؟!

في الطريق إلى بيت الأشباح هذا، لم يثرني أي شيء سوى مشهد تابوت كبير وأنيق تحمله سيارة سوداء أنيقة جداً... «هذا تابوت ياباني تقليدي» قال نوبواكي... كما اثارني صمت صديقي المطبق.. أذكر أنه كان صامتاً ويجيب على أسئلة باقتضاب شديد... فيما بعد فهمت أنه من النّوع الصامت، ولايتكلم إلّا بعد الشّراب، كما كان يحدث في باريس.. فيما بعد فهمت أنه مثل جميع اليابانيين، يصمتون، إذا صمتوا، كالتماثيل، ويتكلمون، إذا تكلموا، كمن ابتلع مذياعاً..

دخلنا بيت الأرواح ذاك وكأني أعرفه منذ عهد قديم. درت فيه قليلاً، ألقيت نظرة على ذاك الأثاث المثير للغثيان. وطاف بي، نوبواكي، صديقي، غرف البيت في الطابق الأول.. وخرجنا للعشاء. أذكر يومها أنني لم أعرف استخدام العصوين (سوف أقترح فيما بعد كلمة مِهَشَّة) في تناول الطعام.. ارتبكت فضحك، نوبواكي، صديقي.. كان يتمتع بمراقبة هذا الجاهل كيف يتصرف... كانت أوّل مفاجأة لي هي خلو ذاك المطعم الياباني التقليدي من الملاعق والشوك على الطاولات، وخلو الخبز أيضاً... ثم لاأعرف لماذا أخذنا ذلك اليوم إلى مطعم مماثل.. فيما بعد فهمت أن صديقي يحب التمتع بارتباكات القادمين الجدد.. عدنا إلى البيت ولم نشرب... قلت بعد قليل يركب، نوبواكي، صديقي سيارته ويعود إلى بيته، بعدها أتابع أنا ما أريد... كان ذئب الخمور قد عوى في داخلي وكنت أحتاج إلى الشّراب.. ولم يكن بودي إعلان ذلك أمام رئيس القسم.. لأنني أدرك أن الصداقة شيء والعمل

شيء آخر.. صحيح أننا شربنا في باريس معاً، لكن ربّما كان يجاملني، وربّما لايشرب حقاً كما كنت أتوقع وأظن.... أما الآن فهو رئيسي الإداري ولابدَّ من احترام إرادته... «لابدَّ أن ننام باكراً، لأننا سوف نذهب غداً إلى الجامعة باكراً»، قال دون أن يعطيني، لحد ذلك الحين، أية فكرة عما يجب أن أقوم به وبتدريسه. وسوف لن يعطيني أية فكرة فيما بعد... لم أستطع النّوم تلك الليلة.. فأنا وهو في الطابق الأول، كلٌّ في غرفة منفردة.. إذاً لم يعد إلى بيته، وبقي معي يحرسني.. أستيقظُ وأنام.. أنزل إلى الطابق الأرضي وأشعل الضوء وآخذ بالدوران داخل الصالون.. أدخل إلى المطبخ، أراقب الصحون والكؤوس والملاعق... لا أفهم شيئاً.. ونومُ نوبواكي، صديقي، يثير فيَّ الرعب والقلق أكثر.. جلست على المكتب وقلت لعلَّ كتابة أي شيء تزيح عني الأرق أو القلق...

طوكيو في ١٦/٤/١٩٩٠ فجراً.

مثلَ قطيع من البغال تحرن الكلمات في الحنجرة وتخاف العبور.. حنين لايريد الخروج.. ثم طوكيو، هذا النداء البعيد.. نداء الأوراق والأصدقاء... ثم قطار.. ثم امرأة تشوي لزوجها القريدس.. ثم طائرة نفاثة تحمل ديوان شعر لم يكتب... ثم ماذا أقول عن هذا الاسم وقد صار يمشي إلى جانبي كأنه سروال. اسم ويفتش في صفحاتي.. ثم في ظلمة كتاب النهاية.. ثم يقود الأسماء إلى حضن صبية يابانية... ثم يذوب مثل حرف في عبارة... ثم يفتح العربة... ثم يغيب في أحشاء المدينة... ثم نوبة أخرى.. ما أكثف نور هذا الاسم.. ما الذي يسبح في مناطق جسدي؟ الخوف؟ الحب؟ الغربة؟ ثم أين أقيم صلاتي وأنا المارق من جميع الأديان.. ثم لن أعود.. ثم هنا.. ثم هناك.. ثم أي مكان يختار نعلًا لقدميّ...؟ ثم برد يأخذني من عنقي.. ثم أتخيل نوبواكي، صديقي، يصرخ: «طوكيو لن تقدِّم القرابين للأولياء القادمين.. لاتشعل الضوء.. هيا نَمْ.. لن تصل إلى معناها إلّا إذا فتحت الباب...».

ثم ذهبت للنوم.

اليوم الأول

في صباح اليوم التالي، وجب علينا أن نركب القطار في اتجاه الجامعة.... ساعة ونصف وأكثر قليلاً استغرق الطريق... تلكم هي المسافة التي كان يجب أن أقطعها يومياًتقريباً للوصول إلى الجامعة وخلال عدة من سنين... أوّل دوخة أصابتني هي أن كلّ شيئ مكتوب باللّغة اليابانية... أسماء المحلات، أسماء المحطات، اللوحات، اللافتات، الإشارات.. كيف سأتحرك إذاً، كيف سأمشي.. لايهم، الوقت كفيل بكلّ شيء... والقطارات لها ألوان، لكلّ خط لون.. والازدحام غير معقول... لأوّل مرّة أرى كثافة بشرية بهذا الشكل.. في الجامعة دخل معي إلى القاعة نوبواكي، صديقي، وقدّمني إلى طلاب السنة الأولى ثم خرج وتركني أواجه مصيري مع طلاب لايعرفون كلمة عربية واحدة.. عندها أدركتُ ماهو العمل الموكل إليّ: تدريس اللّغة العربية للأجانب.. وأنا أعرف جيداً ما معنى ذلك: انتفاخ الأوداج وانتفاخ البطن ومن ثم آلام في الرأس... والواقع، كنت قد مارست هذا العمل في باريس وطقّ قلبي منه تماماً.. علماً بأنني مارسته مع طلاب مندفعين لتعلم اللغة العربية ويحتاجونها بشكل أكيد.. فكيف سيكون الحال مع طلاب جامعيين غايتهم الأخيرة الخلاص بأي شكل من الجامعة... فهمت فيما بعد أن الطالب سوف ينجح في مادتي طوعاً أو كرهاً ولا أستطيع فعل أي شيء... تأتي الأوامر بوضع درجة النجاح ولايحق لي ترسيب أي طالب أو محاسبته.. وفي أحسن الأحوال، يجب أن أضع أسئلة من السهولة بحيث لايرسب أحد.. وهذا أمر لاينطبق على الزميل الياباني... فهمت فيما بعد أن الجامعة هي محطة استراحة بين مرحلة التكوين الأساسية، الإعدادي والثانوي، حيث يُعصر الطالب عصراً بلا رحمة، وبين مرحلة الانتقال إلى الحياة العملية حيث دواليب الشركة تسير بسرعة لاترحم، وحيث يعمل الياباني بوتيرة عالية تهدُّ الأنفاس. هذا ما أكده زملاء القسم، وزملاء الأقسام النظرية الأخرى... لكن أشك أن يكون الأمر هو نفسه في الكليات العلمية، وإلّا لكانت الكارثة الحقيقية... الكليات النظرية هي نوادٍ للتدخين والشراب والغزل والنّوم، والأساتذة فيها ـ إلّا ما ندر ـ مُدَرِّبون ومشارِكون. فلدى كلّ

أستاذ، في داخل المكتب الخاص به، ثلّاجة مليئة بالخمور والكحول وركن لصنع الشاي والقهوة.. وهذا مادوخني ولم أفهمه... في كثير من الأحيان يستخدم مكتب الأستاذ كمشرب.. وبدءاً من السّاعة السادسة مساء تبدأ روائح الخمور بالتجول في أروقة الجامعة ومكاتب الأساتذة.. وكثيراً ماتعرّفت على أساتذة من أقسام أخرى في حالة سكر.. وفي اليوم الثاني لايعرف واحدنا الآخر.. ولاتزال تحضرني صورة أستاذ في قسم مجاور كان يبدأ الشراب من الثانية عشرة ظهراً.. وحدث أن رأيته مراراً يداعب واحدة من الطالبات.. كنتُ أحسده على هذه الشجاعة.. هكذا وجد الذئب الذي في داخلي مرتعاً ومراحاً له... ذلك الذئب الذي أخفيته طيلة عقد ونيف من الزمن حتى لظننت أنني قتلته.. لكنها سلالة الذئاب لاتموت... اختفى بباريس وظهر في طوكيو.

أن أعود لتدريس اللغة العربية للأجانب ـ وأنا المستعد نظرياً والمعدّ أكاديمياً لتدريس الشعر العربي ـ بالطريقة اليدوية ذاتها التي كنت أمارسها بباريس مع طلاب ساعات خاصة، ذلك ما آلمني، في حين توجد لدى أقسام اللغات الأوروبية، ولدى الزميل الأستاذ الزائر في تلك الأقسام، جميع التجهيزات الحديثة والأفلام المصورة لتدريس اللغة الأجنبية المنشودة... لم أفهم هذا، واعتبرته يومها ـ ولاأزال ـ نوعاً من العنصرية اليابانية تمارس على الثقافة واللغة العربيتين بما في ذلك الإسلام.. وعندما أشرت مراراً إلى هذا الأمر، كان الجواب: لاتوجد ميزانية لدى وزارة الثقافة.. أية سخرية، وأية عناية... لكن لماذا يُطلب إلى الأستاذ الزائر ماذا يريد من تجهيزات وكتب في بداية العام الدراسي.. سخرية الذئاب... آنذاك بدأت أفهم كيف يلفُّ الياباني ويدور مثل أي كائن بشري وأكثر.

بقي نوبواكي، صديقي، في البيت أسبوعاً كاملاً يرافقني ذهاباً وإياباً إلى الجامعة.. يدلني على الطريق، وعلى المخازن، وعلى المقاهي، في الحي الذي أقطنه. كنت أظنّ أنه سوف يسكن معي... لكن فهمت فيما بعد أنني لولا هذه المرافقة لعانيت من أشياء كثيرة، ولضعتُ في الطريق مراراً، مع أنني سكنت في باريس عقداً من الزمن وجئت إلى طوكيو قادماً من هناك، غير أن طبع أولاد القرى بقي غالباً.. ولا أزال أضيع في شوارع دمشق، أو في شوارع

أية مدينة سورية.. أهو طبع الذئاب التي لاتعرف العيش إلّا في الغابات، أم هي المدن التي لاتعرف احتضان الذئاب.. والحق، كنت أتمنى أن يتركني نوبواكي، بأسرع مايمكن. لقد كان مثل اللّجام بالنسبة إلي.. فهمت فيما بعد أنه كان يريد أن يمسكني طرف الخيطِ، خيطِ نظام الحياة ثم يمشي في حال سبيله.. كان حريصاً أن يشرح لي كلَّ شيء يريده، دون أي سؤال من جهتي.. «أنتبه، لاتفعل أشياء وتظن أنك فاعلها سرّاً عني وعن الجامعة، سوف نعرف ذلك عاجلاً أم آجلاً» قال ذلك، وهو يبتسم... ماذا يجب أن أفهم من هذا الكلام.. هل يضعون لي مفرزة مخابرات خاصة.. ثم ماذا يمكن أن يفعل أستاذ زائر مثلي، وشاعر فلتان.. استغربتُ هذا الكلام، وتساءلت كثيراً عما يريد من وراء تنبيه مماثل. هل يقصد المرأة؟ لكن وعدتُه في باريس، وعندما اتفقنا، أنني لا أقترب قطعاً من الطالبات، ولا من نساء الجامعة... يومها سألني بعد أن عرف أنني عازب: والمرأة كيف ستفعل..؟ أجبته بوضوح: أجد صاحبة من خارج الجو الذي أعمل فيه، أو استدعي صديقتي الفرنسية، إذا انقطع جنس النساء من اليابان، أو استدعي أية سورية وأتزوجها... أغلقت عليه هذا الباب تماماً... والحق أن نوبواكي، صديقي، قد شمَّ رائحة الذئاب بين طيات ثيابي، ومع ذلك أصرَّ على دعوتي إلى اليابان.. فهمت فيما بعد شجاعته هذه!! إنّها شجاعة بحق دعوة عازب إلى الجو الذي عملت فيه عدّة سنوات متتاليات!! صحيح أنني زير شوارع وخمور، لكنني لست زير نساء.. أجد صاحبة وأركن إليها حيناً من الدّهر، إلى أن تتكشف السماء عن صاحبات أخر... فهمت فيما بعد أن الجامعات اليابانية مليئة بالأساتذة العازبين، وأن مسألة الجنس محلولة تماماً... لابل بمقدور الأستاذ الخروج مع الطالبات، لكن ليس الأستاذ الأجنبي قطعاً، فعلى هذا الأخير أن يعيش كالأرض البعل، ولاسيما إذا كان عربياً أو مسلماً من بلدان العالمين الثالث والرابع. أما إذا كان من أوروبا أو أمريكا فلا بأس ببركاته... فهمت فيما بعد أن تنبيه نوبواكي، صديقي، في محله تماماً: فهو يريد حماية نفسه أولاً أمام زملائه في القسم وفي الجامعة، ويريد حمايتي ثانياً، لكوني أجنبيا...

مقدمة الغاز

... فالأجنبي، أي أجنبي، في اليابان مراقب مراقبة أشد بكثير من ا
البوليسية.. كلُّ ياباني يعتبر نفسه مسؤولاً عن حركات وسكنات
الأجنبي.. في الشارع.. في الباص.. في القطار.. في المطعم... في الحي
المبغى.. في المعبد.. في في إلخ. الحي بالكامل يعرف أين وماذا تعمل، و
الخبر على مبدأ انتشار الغاز... الحي بالكامل يعرف أن فتاة دخلت إلى بيت
خرجت.. الحي بالكامل يعرف أنك كنت أمس في مكان كذا ورجعت
بيتك في ساعة كذا.. وكلُّ هذا، وغيره، يصل في اليوم الثاني إلى
عملك.. كيف؟ الله أعلم. يصل، لكن ليس بسوء نية.. لكنه يصل.
أجنبي في اليابان مشبوه، لابسوء نية، يقول لك الياباني، لكنه مشبوه..
لافرق بين عربي وأوروبي أو أمريكي.. عندما توصلت إلى هذه الم
والعلوم..، تذكرت صديقاً فرنسياً شاعراً زار اليابان مراتٍ عديدة.. قال
سوف تجن هناك، فالمجتمع الياباني ـ وليس البوليس الياباني أو السلطة اليا
ديكتاتور بامتياز، يراقب بعضه بعضاً إلى درجة مريعة وسوف لن تفهم
إطلاقاً إلّا بعد فترة طويلة، وقد لاتفّهم.

ما أثار انتباهي في الأشهر الأولى هو أن كثيراً من الأجانب
الأجانب من العرق الأبيض، لأنه لم يكن بمقدوري تمييز الآسيويين الآخري
اليابانيين) يلقي علي التحية ولايعرفني. في البداية عزوت ذلك لوجهي المأ
فأنا لي وجه شبيه بوجوه كثيرة جداً. وجه عاميّ يتشابه مع وجوه غالبية ا
وكثيراً ما سبّب لي المشكلات من سوريا إلى فرنسا إلى الجزائر. و
يلاحقني في اليابان مع هؤلاء الأجانب البيض.. لكن الأمر لم يكن
وسألت صديقة فرنسية تُدرِّس اللغة الفرنسية في طوكيو عن الموضوع، فا
إنهم في الغالب أمريكيون يعتقدون أنك أمريكي، أو يفعلونها قصد
اليابانيين كي يقولوا: ونحن أيضاً عنصريون مثلكم.. اقتنعت بالتفسير
وصرت أمارس هذه التحية العنصرية كلّما صادفت أبيضاً أو أسوداً.. لأو

يتعادل البيض والسود.. في اليابان لافرق بين أبيض وأسود، فهما أجنبيان بوضوح، إذ لايمكن خلطهما مع اليابانيين. في حين يمكن خلط الكوري، أو الصيني، أو المنغولي أو ماشابه.. أي يضيع هؤلاء داخل النسيج الياباني. أما البيض والسود فيستحيل ضياعهما. ولكم عانيت من هذا عندما أدركت أنَّ الأجنبي، لاسيما الواضح كالأبيض والأسود، مشتبه به لأمر أو لآخر.. تنصب عليه النظرات كأنها السهام وفي كلِّ نظرة اتهام. والأجانب يدركون هذا جيداً.. لأول مرّة أشاهد الأوروبي يمشي محني الرأس، لأنه يعرف ماذا يدور حوله، ويعرف أكثر أن العنصرية تمارس عليه من حيث لايدري، وأنه يدفع ثمن لونه.. هو في اليابان مثل افريقي، عربي أو غير عربي، في أوروبا: مثل جزائري أو مغربي أو تونسي في فرنسا، مثل باكستاني أو هندي في انكلترا، مثل تركي في ألمانيا، مثل زنجي في أمريكا، مثل يهودي شرقي في إسرائيل.. عشر سنوات في باريس لم أُسأل إلّا نادراً من أين أنا.. في اليابان لايمرّ يوم واحد منذ تاريخ ١٦/٤/١٩٩٠ ، وهو تاريخ وصولي، إلّا وأُسأل فيه مرتين أو ثلاث من أين أنا، في القطار، في البار، في الطريق، في الشارع، في كلِّ مكان أنت معرَّض لهذا السؤال... «دوريات أمن» فردية أو جماعية.. وإذا حدث لك وسألتَ يابانياً عن مكان تقصده ولم تعرف الوصول إليه، يمشي معك بالتأكيد، ويدلك بالتأكيد، لكن سوف يرميك بوابل من الأسئلة الشخصية، والشخصية جداً، ليس عن سوء نية، وليس بقصد التحقيق معك، بل هكذا طبيعته مع كلِّ أجنبي.

لكلمة أجنبي دلالة سلبية باليابانية، وذلك حسب استخدامها. ولي مع هذه اللفظة أكثر من حكاية في الشارع الياباني، وجميعها حكايات تقع في إطار بين الشتيمة والسخرية. ولم أكن أفهم إيحاءها إلّا بعد أن جرّبته مرّاتٍ عديدة.. لم أكن أفهم حتى الكلمة... وفي الطريق أسمع طفلاً يقول لأمه: «ماما، ماما، أجنبي، أجنبي، انظري يا أمي...» ثم ترد الأم دون أن تلتفت إليَّ: «رأيت، رأيتُ، يا ولد، معليش ما فيه مشكلة» (الطفل: أوكا ــ سان، أوكا ــ سان، كايجين، كايجين، يو.. ميتى، ميتى، أوكا ــ سان.. الأم: ميتا، ميتا، يو، دايجوبو، دايجوبو...). حدث لي هذا مراراً وحدث لأجانب آخرين غيري،

ولا أعرف كيف أفسّره... ماهي الحمولة الدلالية التي تلقاها هذا الطفل عندما تعلم كلمة أجنبي.. لماذا يلفت انتباهه وجود أجنبي في الشارع.. ثم كيف ميّز أنني أجنبي.. ثم أجنبي مقارنة بأي شيء بالنسبة إلى هذا الطفل... ثم لماذا أجابت الأم: معليش مافيه مشكلة.. ثم لماذا يركض الطفل ويلتصق بأمه وهو ينظر إليّ خائفاً.. جميع هذه الأسئلة تحتاج إلى أجوبة، وحقاً لا أعرف كيف أجيب... لكنني صرت أعتبر الأمر شتيمة كلّما أعيدت الحكاية نفسها في شارعٍ، أو في مقهى، أو في أي مكان.. والأغلب أن الأمر لايحدث مع طفل فرنسي أو عربي إذا شاهد يابانياً أو صينياً... حدثت مرّة هذه الحكاية الطريفة: كنت في مسبحٍ قريب من البيت، أمارس هوايتي المفضلة، السباحة... وكان هناك أطفال كثيرون.. تعودت على النظرات وغيرها، ولاسيما داخل المسبح... هنا أنا أجنبي على المكشوف.. غابة من الشَّعر تغطي جسدي فبدوتُ لأحد الأطفال دباً..: «ماما، ماما، دبٌّ، دبٌّ، انظري...» هل يُعقل أن في المسبح دباً.. التفتُّ لأرى أين الدّب، فإذا بالطفل يشير إليَّ.. خجلت الأم وطأطأت رأسها ثم أجابت: «كلّا يا عزيزي، هذا ليس دبّاً، هذا أجنبي».. ابتسمتُ وقتها ابتسامةً معلوكة كالصوت ونزلتُ إلى الماء أغسل هذه الشتيمة الجديدة.. هل قصدت أن تشتم، أم قصدت تعليم ابنها أنني أجنبي.. الحالان واحد.

لكن قد تتعرض لحالات عجيبة بصفتك أجنبياً.. قد يدعوك أي ياباني إلى الشراب والسكر فقط لأنك أجنبي ويريد هو أن يغير جوّه الياباني قليلاً... في البدايات لم أفهم، وكنت أرفض الدعوات خوفاً من أية ورطة وتحسباً لأي إشكال قد تقع فيه من حيث لاتدري.. أنا حذر جداً بطبيعتي.. أفهم جيداً أن يدعوك سكران، أيٌّ سكران، ياباني أو غير ياباني، في اليابان أو خارج اليابان، أما أن يدعوك صحيان دون سابق معرفة، فذلك مدعاة لاتخاذ أشد الاحتياطات، أو للرّفض الفوري. لأن ورطة الأجنبي في بلد اغترابه ورطة حقيقية، ولاسيما في اليابان حيث تطبق الأشياء بحذافيرها وفق صرامة متوحشة... لذلك كنت أرفض جلَّ دعوات السكارى وغير السكارى في عرض الشارع.. لكن حدث وقبلت لأن ذئب الخمور استيقظ في داخلي

ليعوي ويعوي، فيرنُّ صدى العواء في خمارات تمتد بقناديلها الحمراء على طول أزقة وأزقة.. خمارات لامثيل لها غير أوكار الذئاب.. بأنوارها الحمراء الخافتة كانت، ولاتزال، توقظ في داخلي سلالة الذئاب.. لابأس أن تقبل الدعوة، لكن شريطة أن تزن الداعي جيداً وتفهمه كما يفهم الذئب فريسته.. وإلّا قد تكون فريسة جاهزة... لأنك أجنبي، يُظن أنك لست ذئب خمور وحسب، بل ذئب نساءٍ وجنس.. لأنك أجنبي يحسبونك فحلاً من فحول الجنس والنكاح.. وإذا اكتشفوا أنك عربي، حسبوك ملك الفحول ورأوا فيك شهوة تغمر وقضيباً يفلح الصخور.

مقدمة الثكنة

وبعد أن تأكد نوبواكي، صديقي، من معرفتي بالطريق إلى الجامعة ذهاباً وإياباً، تركني وشأني... ثم رحتُ أكتشف كلَّ شيء وحدي.. رحت أرى بالأحرى.. لم أكتشف، لم أُدهش.. فقط دولاب الحركة في طوكيو أسرع منه في باريس.. وبقيت باريس في الذاكرة.. ألّا يدهشَك شيءٌ، ذلك هو الموت.. في البداية تعتقد أنَّ كلَّ شيء مختلف عما عرفته ورأيته في باريس أو في سوريا.. قد يكون مختلفاً حقاً، ولابدَّ أنه كذلك... لكن أن تراه في العمق شيئاً واحداً، ذلك هو الألم الأبدي الذي سوف يرافقك إلى الآخرة.. وصرت أنام وأفيق على إيقاع أن لاشيء يختلف حقاً، وأنَّ جديداً واحداً لن تراه عيناي أينما ذهبت في أنحاء المعمورة.. ولحسن الحظ أنني وصلت اليابان وأنا لا أعرف عنها أي شيء، وإلّا لكنت قد طفشت منذ الأشهر الأولى.. كان لابدَّ لي من الصمود.. ولولا الذئب الذي أيقظته في داخلي لما قدرت على المتابعة.. فشكراً لذئب الخمور الذي عوى ولايزال يعوي في أنحائي، لأنه وقودي الذي أنقذني من الفرار.

كانت الجامعة كابوساً لاأعرف متى أنتهي منه.. فالجو مسموم على الدّوام بين الزملاء اليابانيين.. وما أقوم به من تدريس مدعاة للقرف: مصوِّت، أعلِّم الطلاب كيف يلفظون الحروف العربية، كيف يؤلفون جملة عربية..

انتفاخ البطن، انتفاخ الأوداج... أما الرأس فلا يعمل.. ولاحتى حوار مع زملائي المستعربين في القسم، أو في أقسام الدراسات العربية والإسلامية بجامعات ومعاهد أخرى.. هم في عالم، وكلّ مايسمى دراسات جامعية في عالم آخر... يتناول بعضهم بعضاً بشكل يؤلم الرأس.. والقيمة إذا وجدت فهي لعلاقات غير واضحة المعالم.. على أية حال، لم أشعر أنني داخل جامعة، بل داخل «جامع». فلا يكاد يمضي يوم وإلّا هناك مشروع للصلاة والشراب. وشيئاً فشيئاً، تعود ذئب الخمور الذي في داخلي أن يشرب كلّ يوم ولو كمية صغيرة. وعادت مدينة حلب وأيام الخدمة العسكرية إلى الحضور.. في حلب ولد ذئب الخمور ذاك، وفي حلب تركته عندما أنهيت الخدمة... ثم عاودني شعور أنني في الخدمة الإلزامية وأنا أقطن سكن الأساتذة الأجانب بأطراف طوكيو.. فإلى جوار بيت الأشباح ذاك، كانت بيوت الأساتذة الآخرين: صفان وفي كل صف أربعة. ثمانية بيوت مسيجة على طريقة الثكنات العسكرية.. وكنت عندما أعود إلى هناك من العمل أو من الخارج، أقول لنفسي، والآن نعود إلى الثكنة يا ملازم محمد، فأنا خدمت الإجبارية برتبة ملازم مجنّد... والحقيقة كان يلازمني شعور أنني داخل ثكنة عسكرية كبيرة هي اليابان... فاللّباس الموحّد للجميع يوحي بهذا الشعور... طلاب المدارس بلباس موحد: كلّ مرحلة لها لباسها، وهم في الشوارع والقطارات مثل الجنود الأغرار في شوارع دمشق أو القاهرة.. برؤوسهم الحليقة واندفاعهم جماعات جماعات فوق الطرقات.. موظفو الشركات الآخرون بلباس شبه موحد، فالياقات البيضاء وربطات العنق السوداء تكاد تكون اللباس الوحيد لجميع الموظفين.. مع حذاء أسود.. وقصة شعر واحدة.. ومحفظة يد جلدية. صحيح أن ذلك أنيق وجميل ونظيف، لكنه موحّد بطريقة عسكرية أو دينية ولايمكن أن يوحي إلّا بثكنة عسكرية واسعة أو بمعبد يغص بالرهبان. فضاء وليس بفضاء، فضاء مضغوط ويجبرك على الشعور بالضغط... بضغط قادم من جهة ما. فضاء لايمنحك الشعور بالحرية أو بأنه فضاء... وصار الكأس هو الملاذ الوحيد وحواء هي الدريئة المنشودة والغاية المطلوبة.

مقدمة الاستعراب الياباني

١ ـ مقدمة ذاتية

٢ ـ حوارات مع:

أ ـ نوبواكي ـ نوتاهارا

ب ـ أكيهيرو ـ تاكانو

جـ ـ كوجيرو ـ ناكامورا

د ـ ياسوشي ـ توناكا



مقدمة ذاتية ...

في الأشهر الأولى تمتعت بالتعرف على مستعربين ومستعربات من أعمار مختلفة... وتمتعت بكوني أستاذاً جديداً لابدَّ أن يتعرفوا عليه، سيما أنه عازب... وهي المرّة الأولى التي تستقبل فيها الجامعة أستاذاً زائراً عازباً... وفي ذلك شجاعة حقيقية تحلى بها نوبواكي، صديقي... كنت مندفعاً للتعرف على جو الاستعراب، وأحوال الدراسات العربية في الجامعات اليابانية ثم لعلي أجد محيطاً ثقافياً أتنفس منه وفيه. لأنني اكتشفت بعد الشهر الأوّل حاجة ماسة إلى جو ثقافي، إلى أصدقاء يعملون بالثقافة، يكونون بالنسبة إلي كالماء بالنسبة إلى السمك... نتحاور، نتبادل الآراء حول موضوعات تهم الطرفين. وكنت أعتقد أن التدريس سوف يؤمّن لي هذه الحاجة، غير أنني فهمت فيما بعد أن الأمر لن يتعدى تدريس اللغة للأجانب.. ومع ذلك حاولت إلقاء محاضرات بسيطة أشرح فيها آرائي حول الشعر القديم وحول الشعر الحديث... قوبلت تلك المحاضرات يومها بالقول: إنها صعبة، إن الأستاذ عضيمة يعطي أشياء صعبة، وجاءت الإشارات والإيحاءات بضرورة إلقاء «محاضرات» سهلة ومراعاة مستوى الطلاب. الأمر الذي دفعني باتجاه مستعربين ناضجين يدرسون بالمعاهد والجامعات. لكن سرعان ما أصل إلى نتائج متشابهة... كنت وقتها أراسل جريدة الحياة في لندن. ثم أخذت أجري لقاءات وحوارات مع كلِّ مستعرب أجد عنده شيئاً يمكن أن يقوله في مجال اختصاصه... ومن أجيال مختلفة. يومها كنت أرغب أن أقول للقارئ العربي: وهنا أيضاً ـ كما في أوروبا ـ حركة استعراب نشيطة، تهتم بنا وبأدبنا وبثقافتنا، وعلينا نحن بالمقابل أن نحيي هذه الحركة وأن نهتم بها وبما تقدمه من خدمات للثقافة العربية... ورحت

أبحث عن المستعرب الباحث في كلِّ زاوية وتحت ضوء الشمعة... يومها كان في طوكيو الدكتور رؤوف عبّاس، الأستاذ بجامعة القاهرة، وقد حدثته بالأمر قليلاً، فأجاب بأنه يعرف هذا الموضوع جيداً وقد نشر كتيباً صغيراً حوله ووصل إلى نتيجة مفادها أن الاستعراب الياباني بعد مرور حوالي قرن على نشوئه لايزال متواضعاً ويحتاج إلى الكثير، لكن الأخوة اليابانيين مكتفون بهذا القدر، ولايريدون أكثر... لم أفهم جيداً، وكنت أرى العكس، فهناك أجيال جديدة لابدَّ أن يتاح لها المجال، ولابدَّ أن تقدّم مالديها.. لابدَّ أن يستفيدوا من سقطات الإستشراق الأوروبي ويتحاشوا ربط الدراسات الاستعرابية بعجلة السياسة. لكن سوف أكتشف فيما بعد أن كلّ شيء مرتبط بالبحث عن سوق لتصريف المنتوجات اليابانية، ولايهم المستعرب الياباني أن يقيم علاقة تبادل ثقافي، أو أن يؤسس لفهم ثقافي متبادل بينه وبين العرب، بل يهمه بالدرجة الأولى، وبإيحاء من الجهات الكبرى فهم من أين يؤتى الزبون العربي تجارياً... لذلك من المهم جداً فهم طبيعة السكان، وطبيعة العلاقة فيما بينهم، وفهم طبيعة المعتقدات السائدة عند العرب. كلُّ شيء من أجل السياسية الاقتصادية. وأي مستعرب لايربط بحثه بهذه الناحية أو بما شابهها، سوف لن يجد الدّعم المادي، ولن يحصل على أية منحة دراسية.. قد لا أصل إلى حد القول: البحث عن طرق للاستعمار الاقتصادي. فالمنطقة عندنا بعيدة عن اليابان جغرافياً، ولليابان منافسون كثيرون في المنطقة... لكن ظاهرة توجيه الدراسات الاستعرابية هذه الوجهة هي ما تدعو للتساؤل حول مستقبل هذه الدراسات. وهذا يذكّر بالإستشراق الفرنسي والانكليزي تحديداً أيام بحثهما عن مناطق استعمارية جديدة في منطقتنا وفي خارجها. وبالمناسبة يعرف المستعرب الياباني أسماء مستشرقين أوروبيين أكثر مما يعرف أسماء مفكرين عرب... واسم ادوار سعيد مكروه بين المستعربين اليابانيين بطريقة غير مفهومة. لأنه في الواقع ركّز نقده على الإستشراق الذي نهل منه، ولايزال، المستعرب الياباني. فهذا الأخير يقلّد المستشرق الأوروبي في كلِّ شيء، كما قلّدت اليابان أوروبا في كلِّ شيء. ومع أن الاستشراق الأوروبي عرف تغيرات نوعية مهمة، على صعيد الدراسات

العربية والإسلامية، وعلى صعيد النظر إلى العرب والثقافة العربية كجزء لايتجزأ من الحضارة الإنسانية، وعلى صعيد فصل العمل الثقافي عن السياسة الموجهة، وعلى صعد أخرى كثيرة... فإن المستعرب الياباني ظلّ مربوطاً بحبل سُرّة جدّه المستشرق الأوروبي التقليدي. فهو لايرى في العربي أكثر من مستهلكٍ، طفيلي، ولاينظر إلى الثقافة العربية إلّا بصفتها ثقافة مغلقة، أصولية، متعصبة، وقد خلقت ووجدت للمتخلفين، ولايمكن لها أن تكون إلّا للعرب!! إنّها خصوصيتهم!!

يتشبع المستعرب الياباني بهذه الآراء، ومن ثم يذهب إلى بلد عربي يبحث فيه، في أزقته، في زواياه عما يطابق هذه الرؤى، وعما يدعمها... فلا يعود يرى شيئاً آخر إلّا هذا. والمشكلة أن الياباني إذا ركّز على شيء، ينسى ما عداه تماماً... ثم يرجع إلى بلده ليعمم صورة عاشها ونموذجاً محدداً بحث عنه وعاش معه، وليقول: بالفعل وحقاً هو ذا العربي، هو ذا العربي المسلم، خلق متخلفاً، مغلقاً، أصولياً خلق مستهلِكاً. ولشدّ ما عانيت من هذه الصورة مع المستعربين، وقلت لهم مراراً: يا إخوان، العرب أولاد ثقافة ذات ألوان وألوان، ثقافة مشهود لها بالأخذ والعطاء، ولها تاريخ طويل في هذا المضمار، وإذا كانت تعيش اليوم أزمة مع الذات، فهذا لايعني أنها في الصورة التي تنقلون وتعممون في قنواتكم الإعلامية السرّية وغير السرية... يا إخوان، عندنا اليوم مفكرون عرب كبار، ومثقفون كبار، وشعراء كبار، وروائيون كبار، فلماذا لاتقدمون صورة هؤلاء، وتحاورون هؤلاء.. يا إخوان حتى الإستشراق الأوروبي ثار على نفسه في هذا المضمار وصحّح الكثير من أخطائه السابقة.. يا إخوان توقفوا عن تقديم صورة أن العربي خلق للبداوة والجمال، خلق للعلاقات العشائرية والمذهبية، خلق للإقتتال الطائفي، ولم يخلق للحضارة وللمدنية، خلق للإستهلاك فقط، وليس للإنتاج... فهذه صورة قدّمها الغرب حتى ملَّ من تقديمها، وهذا موّال غناه لحد الضّجر، كونوا أذكياء مثل بقية اليابانيين الذين أخذوا عن الغرب ما أخذوا، ولكن تجاوزوا الغرب فيما أخذوه.. أم لعل هؤلاء يابانيون من دم وأنتم من دمٍ آخر.. يا إخوان لاتزال آثار تخلفكم الكبير عالقة

على ثيابكم ومشهودة في تصرفاتكم وعاداتكم... لكن طالما أنتَ عربي، يجب أن تتطابق مع الصورة التي رسمها عنك في ذهنه، والتي يعممها في مقالاته وبحوثه. وإذا خالفت تلك الصورة التي لاتعرفها أنت أصلاً، يستغرب ويقول لك: هل أنت عربي؟ لكن العربي لايفعل كذا أو كذا.. هل أنت مسلم؟ نعم. لكن المسلم لايفعل كذا أو كذا.. لقد عانيت من التفكير الأُحادي مع جلّ المستعربين اليابانيين. والحقيقة إن اليابان بحداثتها وتقدمها في عالم، والمستعربون اليابانييون في عالم آخر تماماً. وذلك على خلاف اليابانيين العاملين في حقول الثقافات واللغات الأوروبية... إن أسوأ صورة للعربي وللمسلم يأخذها الياباني العادي من خلال المستعرب الياباني. فعندما يزور هذا الأخير بلداً عربياً، لاتقع عيناه إلّا على الشّاذ والشّاذ جداً والعارض، يصوّره ويكتب عنه بصفته العام والغالب في ذلك البلد... لايستطيع أن يرى في الثقافة العربية والإسلامية إلّا ما يتعارض مع قيم الحضارة الإنسانية والحداثة، وبالتالي ما ينفِّر الياباني العادي من كلِّ شيء اسمه عرب وإسلام. لقد تجاوز المستعرب الياباني جدّه المستشرق الأوروبي التقليدي في تشويه صورة العربي والمسلم اليوم: من أصولي إلى إرهابي، إلى متخلف، إلى بدوي، إلى كوفية وعقال، إلى شيء غريب وعجيب، إلى «تحفة» أثرية تصلح للفرجة لاغير، للإستخدام لاغير... وإذا واجهته بهذا التشويه، يجيب: هذا ما قال المستشرق الفلاني وأنا أنقله فقط.. لابأس أن تنقل ماقيل، لكن حاول زحزحة الصورة قليلاً، فأنت سافرت وشاهدت ولمستَ. لكن يبدو أن هذه الصورة هي المطلوبة منه في هذه المرحلة على الأقل.

لاتزال النصوص الإسلامية القديمة هي التي يدرسها المستعرب الياباني في الجامعة. ولاتزال المشكلات القديمة هي التي يكتب حولها بحوث تخرجه... دراسة للنصوص القديمة بطريقة وصفية حيادية تعيد إلى الأذهان الاستشراق الأوروبي في بدايات بدايته. يتخرج المستعرب من الجامعة وليس في ذهنه إلّا هذه النصوص القديمة. ولذا عندما يسافر إلى البلدان العربية، تكون في ذهنه صورة عن العربي والمسلم عمرها عشرة قرون... ولايريد أن يغيرها عندما

يشاهد العكس أو شيئاً مخالفاً... بل يروح يبحث عن تلك الصورة في بعض أنحاء العالم العربي، فيجدها أحياناً في قرية نائية، أو يجدها في أعماق الصحراء، أو يجدها في بعض التكايا الصوفية المنتشرة في المغرب العربي... والأكثر أنه إذا شاهد مسلماً يصلي يقول لنفسه: وجدتها... أما المدن العربية وما تشهده من حركات ثقافية وغليان فكري، فلا يقترب منها ويعتبرها تقليداً أوروبياً لاعلاقة للعرب والإسلام بها، وهي طارئة لاتشكل أكثر من فقاعة في فنجان.

حوارات مع:

تلكم هي الصورة التي حاول بعض المستعربين تغييرها بكل ما يستطيعون من جهود فردية. لكن التيار أقوى منهم ومن العرب الذين حاولوا معهم دفع الاستعراب الياباني إلى الأمام أكثر.... حاولوا وبجهود فردية نقل ما يمكن نقله من الأدب العربي إلى اللغة اليابانية... ومع ذلك لم يتجاوز الرقم عشرين كتاباً أو أكثر بقليل، من القديم والحديث، وخلال قرن من نشوء الاستعراب الياباني. ولأحد يعرف السبب!! ولكي لايكون الكلام على الاستعراب الياباني من وجهة نظري فقط، كما رأيت ولمست وسمعت وعايشت لمدة خمس سنوات وأكثر والتي قد لاتروق للبعض، أعيد هنا نشر حوارات أجريتها في فترات متقطعة مع مستعربين متعددين، وقد نشرت جميعها في جريدة «الحياة»... نشرت باحترام على صدر الصفحة الثقافية المقروءة جيداً من قبل النخبة الثقافية العربية... وقد آخذني بعض الأصدقاء من المثقفين العرب لاهتمامي، وأنا في اليابان، بهذه الدائرة الضيقة التي لاتشكل شيئاً في الحياة الثقافية اليابانية الصاخبة. وكانت حجتي يومها، ولاتزال لحد الآن، أن الاستعراب الياباني يحتاج إلى التعريف به، ويحتاج إلى دعم معنوي من الجهة العربية، ولاسيما من المثقف العربي.. أضف إلى أنه صار جزءاً من سيرتي الذاتية في اليابان. لذلك لا أستطيع تجاهله في أي حديث لي عن تجربتي اليابانية.. أعيد هنا نشر تلك

الحوارات مع بعض تعليقات متفرقة هنا وهنا أضعها بين أقواس وتعبر عن وجهة نظري بعد أن عايشت الجو.

أ ـ نوبواكي ـ نوتاهارا

أجريت معه حوارين، الأول يعود إلى بداية لقائنا في باريس صيف سنة ١٩٨٩ حيث لم أكن أعرف شيئاً لا عن اليابان ولا عن الإستعراب الياباني، والثاني بعد سفري إلى هناك والتعرف على جوّ الاستعراب عن قرب.

هو ذا الحوار الأول كما نشر:

«يشعر بانتماء حقيقي إلى الصحراء والبدو. هذا هو الانطباع المفاجئ الذي يتركه المستعرب الياباني نوبواكي ـ نوتاهارا، المتخصص بالأدب العربي الحديث، وبالرواية على وجه التحديد. يعشق في الصحراء عريها وفي البدو رحيلهم المستمر. وكلّما ضاقت به طوكيو (الآن أفهم جيداً لماذا طوكيو ضيقة وسوف تضيق أكثر) «يشدُّ المطايا» إلى صحراء. لكنه على غير عادته اختار الإقامة في باريس هذا الصيف (١٩٨٩).

لماذا باريس؟ ابتسم نوتاهارا وقال: «فيها شيء من الصحراء. ثم لأنني أريد أن أنهي ترجمة رواية هاني الرّاهب «الوباء» (أعتقد أنه انتهى منها ونشرها). لايتحدث كثيراً كعادة اليابانيين. (لم أخطئ في هذا الانطباع، فهو فعلاً من النوّع الصامت). يبتسم دائماً كأي ياباني، ولاتعرف ماوراء هذه الابتسامة: «ابتسامتنا غامضة، صعبة الإدراك، فنحن ربما لانتحكم بعضلات وجهنا» (في الواقع، هذه الابتسامة هي جزء من الهوية الفيزيولوجية اليابانية. حتى في المآتم لاتختفي).

س: اهتمام اليابان بالأدب العربي وبلغته حديث العهد (في الواقع لم يكن حديث العهد كما أفهمني نوبواكي، صديقي، بل كان قد بدأ مع بداية انفتاح اليابان) وكان الياباني يمرُّ عبر الانكليزية أو الفرنسية لمعرفة الحضارة العربية القديمة والحديثة، ماهو سر انفتاحكم فجأة على عوالم لغة الضاد؟

ج: نحن في اليابان عمليون. فمنذ بوادر أزمة النفط أحست الحكومة اليابانية بضرورة فتح أقسام مستقلة للغة العربية في (بعض) الجامعات. لأننا أدركنا أن الحوار مع العربي بلغته يقربنا منه ويسهِّل التعامل معه. آنذاك خصصت الدولة موازنة لإنشاء هذه الأقسام. وآنذاك أيضاً وضع أول قاموس عربي ياباني، لكنه صغير ويحتاج إلى تطوير أكثر نرجو إتمامه. بعد انتهاء أزمة النفط عادت الأمور إلى حالة من الهدوء، وقلَّ حماس الحكومة ليحل محلّه الحماس الفردي. فنحن نقوم بجهود جبَّارة لنقل ما أمكن من الأدب العربي الحديث إلى اللغة اليابانية. (من الواضح أن الحاجة الاقتصادية، لا الحاجة المعرفية هي التي دفعت اليابان إلى فتح أقسام للغة العربية في بعض جامعاتها، يُمارس هذا السلوك التجاري مع بلدان العالم الثالث فقط... لكن سوف أكتشف فيما بعد أن السلوك التجاري جزء هام من تفكير الفرد الياباني على جميع الأصعدة... وهو السلوك الذي يهدد اليوم، لتجاوزه حدّه الطبيعي، المجتمع الياباني بانهيار من نوع آخر).

س: هل هناك من يهتم بالأدب القديم، بالفلسفة العربية الإسلامية على غرار ماهو سائد في أوروبا وأمريكا حيث توجد أقسام مستقلة للدراسات الإسلامية؟

ج: منذ خمسة أعوام فتح قسم مستقل للدراسات الإسلامية، ويهتم بتدريس أعلام الفكر الإسلامي كالغزالي وابن خلدون والفارابي وغيرهم. ويبدو لي أنه في العامين الأخيرين بدأ اهتمام متميز بالتصوف الإسلامي على وجه التحديد. ويتجلى هذا الاهتمام عند جيل الشباب المستعرب. لكنني متخصص في الرواية ولا أستطيع القول إنني أعرف الفكر العربي الإسلامي القديم جيّداً. (راجع بهذه الخصوص حواري مع المستعرب كوجيرو ـ ناكامورا ص ٥٩ من هذا الكتاب).

س: متى بدأت علاقتك باللغة العربية؟

ج: منذ زمن طويل وأنا أشعر بشيء يدفعني إلى الصحراء، وبالمصادفة اكتشفت

أن العرب يرتبطون بالصحراء. فبدأت دراسة اللغة العربية في جامعة طوكيو قبل عشرين عاماً.

س: أي مع أزمة النفط أيضاً؟

ج: نعم. لكن تزامن ذلك بالمصادفة. وأقول بصدق أنني اكتشفت بعد تجربة عشر سنوات من تدريس الرواية العربية في جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، أن الصحراء العربية مليئة بالمعاني، غنية، شاملة وبسيطة. وأعتقد أن الحضارة عمقياً، تقوم في قسم كبير منها على مفهوم العُري بمعناه الفلسفي. الصحراء حقيقة عارية أو هي جملة الحقائق الواضحة والغامضة.

صمتَ قليلاً، ثم أضاف مبتسماً: «الصحراء كالابتسامة اليابانية: صعبة الإدراك وبسيطة في آن».

س: مادام الأمر كذلك، لماذا اخترت تدريس الرواية العربية ولم تختر الشعر، فشعرنا العربي أكثر ارتباطاً بالصحراء؟

ج: في اليابان نخاف عموماً من تدريس الشعر، والمتخصصون عندنا في الشعر العربي قلّة. أنا أحبُّ الشعر، وأعشقه، وأعيشه واوا...» ثم أخذ نوتاهارا يؤشر بيديه باحثاً عن الكلمات. فأدركت أن عربيته بدأت تخونه مع الحديث عن الشعر. لكنه أضاف:

«نحترم الشاعر جداً في اليابان. له حالة خاصة لا أحد يفهمها غيره. أقواله تراتيل، كلماته لاتخضع لتحليل. طبعاً هذه رؤية عامة لحالة الياباني مع الشعر. لكن هناك نقاداً وأساتذة يحاولون دراسة النصوص الشعرية وتقديمها للقارئ. وحتى الآن لم نتجرأ إلّا على ترجمة بعض الشعر العربي بسبب هذه الهالة التي نضفيها على الشّاعر. (قيل لي أثناء عودتي إلى اليابان سنة ١٩٩٤ وعندما وجدت عملاً في إحدى الجامعات الخاصة: انتبه لاتكتب في سيرتك الذاتية أنك شاعر، ولاتقدم نفسك بهذه الصفة إطلاقاً). ولقد اخترت الرواية العربية لأنني أردت معرفة المجتمع العربي أكثر، معرفة

المشكلات والقضايا العربية، ولاسيما القضية الفلسطينية. أدرك أن الروايات تتحدث في غالب الأحيان عن واقع ومشكلات مجتمع الكاتب، عن قضية ما لفرد، لجماعة، لأقلية داخل المجتمع الذي ينتمي إليه الروائي. لقد فهم القارئ الياباني واستوعب القضية الفلسطينية من خلال ترجماتنا لروايات غسان كنفاني وحليم بركات، أكثر من أن يفهمها عبر وسائل الإعلام. (القارئ الياباني هنا هو مجموعة طلاب قسم اللغة العربيّة الذين لايهمهم في نهاية الأمر سوى التخرج من الجامعة والبحث عن وظيفة. ولانكاد نقع في المكتبات العامة على أية نسخة من هذه الروايات التي ترجمت فعلاً ونشرت، لكن يبدو أن ذلك تمّ ضمن دائرة الإستعراب المتواضعة) كما فهم واستوعب المجتمع العربي من خلال ترجمة الروايات العربية إلى اليابانية. بفضل الرواية العربية استطعت الدخول إلى أعماق المجتمع العربي.

س: ماهي معايير اختيار رواية دون أخرى لترجمتها إلى اليابانية؟

ج: في اليابان تيار قوي للإنفتاح على الآخر، المختلف، الغريب، والملتزم بقضية شمولية. وبمقدار ما تقدم الرواية هذا الاختلاف والالتزام بمقدار ماتشجع على الترجمة. لذلك ترجمت أنا شخصياً قسماً من أعمال غسان كنفاني. (...سوف أكتشف أن التيار القوي للإنفتاح على الآخر محصور بالإنفتاح على أوروبا وآدابها وعلى أمريكا وآدابها).

س: وماهي؟

ج: «عائد إلى حيفا»، وخمس قصص قصيرة تدور بكاملها حول القضية الفلسطينية. كما ترجم زميلي كورودا رواية «رجال تحت الشمس» ونحن بصدد ترجمة غسّان كنفاني كاملاً.

س: كيف تلقى القارئ الياباني هذه الروايات؟

ج: النجاح الذي لقيته الرواية الفلسطينية في اليابان مدهش، وأُعيد نشر روايات غسان كنفاني مرات. عرفنا جميعاً القضية الفلسطينية بفضل هذه الروايات. هكذا استطعنا بلوغ الهدف الذي ترجمنا لأجله رواية الشعب الفلسطيني.

(يجب ألا ننسى أن الدافع الاقتصادي وراء محاولة فهم القضية الفلسطينية وارتباطها باليهود تحديداً).

س: وماذا عن دوافع اختيارك ليوسف إدريس أو للشرقاوي؟

ج: في مصر، حيث تابعت دراستي للعربية، اكتشفت ذلك المختلف الذي ذكرناه منذ قليل. رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي من أعظم الروايات التي تصف الريف وتلتزم به وتدافع عنه. إنّها بمحليتها وبكثرة التصاقها بالواقع الريفي المصري تجسّد بالنسبة إلى الياباني عالماً جديداً تماماً. عندما واجهتني اللهجة المصرية، اضطررت إلى العيش مع الفلاحين وترجمت الرواية بمساعدتهم. وللأسباب نفسها ترجمت بعض أعمال يوسف إدريس: «بيت من لحم»، «العسكري الأسود» وسوف تنشر هاتان الروايتان ضمن موسوعة الأدب العالمي التي نعدها في اليابان. وهي الأولى من نوعها باللغة اليابانية. (راجع الحوار الثاني حيث يكون نوتاهارا قد أنجز هذا الأمر فعلاً، وبناءً عليه أجريت ذاك الحوار معه).

س: هل هناك أسباب أخرى، تفسر بها نجاح يوسف إدريس أو غسان كنفاني أكثر من غيرهما لدى القارئ الياباني؟

ج: نعم. إن انتاجهما يعلمنا مصدر القضية في المجتمع ويدلّنا على الطريق المؤدية إلى المابعد. والقارئ الياباني يهتم بالإنتاج الأدبي الذي يقود إلى أعمق الأشياء والأمكنة حيث المشكلات أكثر صدقاً. الياباني مرتبط بمعنى الحياة وبعمق هذا المعنى، فإذا حقق الأديب ذلك يمكنه التواصل مع أكبر جمهور من القراء في اليابان. وكلّما ازدادت محلية الموضوع، ازداد عمقه أيضاً وبالتالي استجابة القارئ الياباني. وهذا بالتحديد ما يحققه يوسف إدريس بشكل رائع. إن قسماً كبيراً من القراء اليابانيين يعتمد في حلّ مشكلاته على الرواية والآداب. وإذا كان القارئ العربي عموماً يتوجه إلى الدّين لحل مشكلاته الفردية، فإن القارئ الياباني يتوجه إلى الرواية أو الشعر أو الفن.... إلخ نحاول في اليابان أن نجد الأجوبة على أسئلتنا الذاتية في هذه الإبداعات المذكورة. لذا هناك ارتباط قوي جداً بين القارئ والأديب عندنا.

س: يبدو أنك نسيت نجيب محفوظ الذي حاز على جائزة نوبل للآداب. والذي صوّر في رواياته دقائق المجتمع المصري، ما رأيك فيه، كيف تنظر إلى منحه جائزة نوبل؟

ج: كلا، لم أنس نجيب محفوظ، وأعرفه جيداً. قرأته بالكامل وأريد أن أعبّر عن ارتياحي الشديد لأن واحداً من الأدباء العرب حصل أخيراً على جائزة نوبل. وهذا مايبرر اهتمامنا بالأدب العربي أكثر ويدفعنا إلى اكتشاف مناطق أخرى منه. لكنني أعتقد بوجود عدد من الأدباء العرب الآخرين، شعراء وروائيين، يستحقون هذه الجائزة وربما أكثر من نجيب محفوظ كيوسف إدريس وأدونيس. غير أن نجيب محفوظ، وهو روائي عظيم، مثّلهم تمثيلاً من دون أن يعني ذلك الأفضلية.

س: هل نُقِلَتْ إحدى رواياته إلى اليابانية؟

ج: نعم، رواية «بين القصرين». ثم أعيد نشرها بعد منحه الجائزة.

س: ما الأعمال العربية التي ترجمت إلى اليابانية حتى الآن؟

ج: كثيرة. لا أتذكر جميع العناوين. أذكر مثلاً: «عرس الزين» للطيب صالح، «شجرة البؤس» لطه حسين، «يوميات نائب في الأرياف» لتوفيق الحكيم..، والقائمة طويلة وهذه هي البدايات. (لن يتجاوز الرّقم كما قلت العشرين كتاباً، وستظل الأمور في حالة: إنها البدايات).

س: وماذا عن مشاريعك للمستقبل؟

ج: المشاريع كثيرة، لكن أرجو إنجازها جميعاً. أفكر بترجمة «وقائع غريبة» لاميل حبيبي. ثم ينبغي أن أستعد لترجمة أقوى إنتاج روائي عربي صدر حديثاً «مدن الملح» لعبد الرحمن منيف. لكن بالمقابل أتمنى أن يولد لديكم اهتمام بالأدب الياباني.

أذكر أننا بعد هذا الحوار مشينا طويلاً في شوارع العاصمة الفرنسية، وأخذ نوبواكي، صديقي، يلتقط لي الصّور في وضعيات مختلفة... وفي طوكيو بعد إقامة قرابة السنتين حيث كنت قد تعرّفت على الجوّ وعلى مستعربين

آخرين وأجريت حوارات مع بعضهم، وبمناسبة صدور الجزء الأخير من «الموسوعة اليابانية للآداب العالمية» أجريت معه الحوار الثاني الذي مهدت له، كالعادة، بهذه المقدمة الموجزة ونشر في «الحياة» بتاريخ ٢٣ ــ ١ ــ ١٩٩٢ .

«لعلَّ مسيرة الاستعراب الياباني تشبه إلى حد كبير مسيرة الإستعراب الأوروبي والأمريكي. وصارت الأجيال الجديدة تميز في الواقع والنظر، بين كلمتي: مستشرق ومستعرب. فالأولى قد تشمل الثانية وقد لاتشملها، والمستشرق قد يعرف العربية وقد لايعرفها. أما المستعرب فهو الأجنبي الذي يهتم حصراً بناحية من نواحي العالم العربي أو بمجال من مجالات الثقافة العربية. وكما أن الإستشراق الأوروبي ظلَّ وإلى عهدٍ قريب لايُعنى، على المستوى الأكاديمي، إلّا بالقديم من الثقافة العربية والإسلامية، مديراً ظهره لأي نتاج أدبي ــ ثقافي معاصر، كذلك فعل المستشرقون اليابانيون. لقد بقي الإستشراق الياباني حتى بداية السبعينات بعيداً عن كلِّ ماهو معاصر في الثقافة العربية: رواية، شعر، بحوث، دراسات... إلخ. ولهذا بقي في قسمه الأكبر تابعاً لرؤى ومناهج الاستشراق الأوروبي والأمريكي، عدا أنه لم يقدم إلى اللغة اليابانية ترجمات تذكر باستثناء ترجمة معاني القرآن الكريم وبعض الشعر الجاهلي. والأهم من ذلك أنه لم يستطع أن يُدخل في «الموسوعة اليابانية للآداب العالمية» التي يتوالى صدور أجزائها منذ عشرات السنين، أي نص من نصوص تراثنا الأدبي القديم. ومع بداية السبعينات ظهر جيل جديد لايهتم إلّا بالنتاج الثقافي العربي المعاصر. وإلى هذا الجيل ينتمي المستعرب نوبواكي نوتاهارا الذي يُعتبر القناة الأولى للأدب العربي الحديث إلى اللغة اليابانية. وآخر ما نقله، مجموعة من قصص يوسف إدريس وأخرى لنجيب محفوظ ظهرت في الجزء العشرين والأخير من «الموسوعة اليابانية للآداب العالمية» الذي صدر منذ أسابيع عن دار «شوإشا»:

«لم ندرس الرواية العربية في الجامعة، وأُفهمنا وقتها أنه ليس لدى العرب إلّا التراث القديم. ولم يكن هناك أصلاً أي اعتراف بوجود أدب عربي معاصر.

كنت أشك دوماً في هذا الكلام، إذ من غير المعقول أن يكون لدى العرب تراث كتابي قوي وألا يكون له أي امتداد في الوقت الحاضر. هذا هو التناقض الذي وقع فيه الاستشراق الياباني، وهو أساساً تناقض أخذناه من أوروبا. كان اهتمامي بالرواية اليابانية المعاصرة وراء اكتشافي للرواية العربية. وكان لدي شعور بأنني سوف أجد مئات الروائيين والروايات، لأنَّ القرن العشرين هو قرن الرواية بامتياز».

س: يعني قبل دخولك إلى الجامعة كأستاذ لم تكن الرواية العربية تدخل في مناهج التدريس؟

ج: إطلاقاً، ولم يكن ذلك وارداً. أنا الذي بدأت تدريس الرواية العربية في الجامعة اليابانية. فبعد إقامة سنتين بمصر في أوائل السبعينات وإطلاعي على رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي وغيرها من الروايات العربية، أخذت على نفسي نقل ما أمكنني من هذه الرواية إلى اللغة اليابانية...

س: كيف تفسر هذا التأخر في نقل الرواية العربية إلى اليابانية؟

ج: ليس هناك تفسير محدد. بكل بساطة كان الأمر يحتاج إلى مجهود فردي واعتراف أكاديمي كي نستطيع تقديم هذه الرواية إلى القارئ الياباني. أو ربّما كنّا ننتظر اعتراف الجامعات الأوروبية بالأدب العربي المعاصر لكي نعترف به نحن من جهتنا. وما إن دخلت الجامعة حتى باشرت بوضع برنامج للتدريس والترجمة استناداً إلى النص الروائي العربي. والحقيقة أنني كنت أعمل من أجل فهم المجتمع العربي وتقديم صورة عنه بلسانه لابلسان ياباني أو أوروبي. ورأيت أن الرواية أفضل وأقصر الطرق، فمن خلالها استطعنا فهم الكثير من مشكلات الإنسان العربي والذهنية العربية السائدة...

س: لكن مشكلات النشر معروفة في اليابان، كيف قابلت هذه المشكلات وأقنعت النّاشرين بأهمية الرواية العربية؟

ج: نعم. هذه مشكلة حقيقية. فالناشر يحسب الأمور تجارياً في الدرجة الأولى. وقلما تقع على دار نشر تغامر بعمل أدبي غير مضمون رواجه. لكن علاقتي

ببعض الروائيين اليابانيين الذين يهتمون بآداب آسيا، ساعدتني كثيراً في فتح الطريق. فرواية غسان كنفاني «عائد إلى حيفا» نشرت سنة ١٩٧٣ بفضل الكاتب الروائي المعروف ياسوهيرو ـ تاكيوتشي المهتم بآداب العالم الثالث، والذي أعجب كثيراً بهذه الرواية... وعندما قرأها هيروشي ـ نوما (روائي معروف نال جائزة لوتس الآسيوية) اتصل بي على الفور واقترح برنامجاً لتقديم مختارات من الرواية العربية... وشمل البرنامج تقديم: الطيب صالح، الشرقاوي، غسان كنفاني، توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، طه حسين، حليم بركات، محمد ديب، واستطعنا إنجاز هذا البرنامج، فنشرنا في عام ١٩٧٨ «مختارات من الرواية العربية» شارك في تقديمها عدد من الكتاب اليابانيين أذكر منهم «آوى ـ كينزابرو».

س: وماذا عن «الموسوعة اليابانية للآداب العالمية»؟

ج: هذا آخر إنجاز استطعت أن أحققه. فالوصول إلى هذه الموسوعة ليس بسيطاً، لأنها في غاية الجدية وهي الأعلى مستوى لدينا. وقبل أن تنال الرواية العربية جائزة نوبل، كان يوسف إدريس مبرمجاً داخل الموسوعة. ونجحت في إدخال قصصه التالية: «العسكري الأسود»، «بيت من لحم»، «أرخص الليالي». والحقيقة أنني فوجئت عندما اتصل المسؤولون عن الموسوعة بي ليطلبوا تقديم كاتب أو كاتبين عربيين. وبحكم اهتمامي آنذاك وجدت أن أقدّم يوسف إدريس الذي أقدّر أعماله جداً. وكان يعرف قبل وفاته أنه صار في الموسوعة، وأشعر بالأسى، إذ توفى قبل أن تصدر قصصه في الجزء الأخير. وبعد أن حاز نجيب محفوظ على الجائزة اتصلوا بي من جديد وأكدوا على ضرورة تقديم قصة أو قصتين له. عندها ولأنني لا أهتم بأدب نجيب محفوظ، طلبت من «أكيهيرو ـ تاكانو» (راجع حواري معه بعد هذا الحوار مباشرة) المتخصص بمحفوظ أن يقوم بذلك....

س: هناك انحسار في شعبية الرواية المترجمة إلى اليابانية سواء كانت عربية أو غير عربية، ما الأسباب برأيك؟

ج: إنّها ظاهرة مخيفة بالنسبة إلينا في اليابان. للأسف جميع دور النشر تؤكد

وجود هذه الظاهرة. لعلّ التغيرات السريعة التي تطرأ على المجتمع الياباني، ولاسيما الاقتصادية منها، هي السبب الأساسي. عندما كنا نحتاج سابقاً إلى معرفة أوروبا وأمريكا والعالم الخارجي، كنا نقرأ روايات تلك البلدان. أما اليوم، فالياباني يمكنه أن يسافر ويشاهد بنفسه. إنَّ القدرة على السَّفر والمعاينة الشخصية قللت كثيراً من الاهتمام بالرواية العالمية المترجمة إلى اليابانية... أشعر بالانقباض الشديد عندما أرى الروايات العربية مترجمة بكثرة اليوم إلى الفرنسية والانكليزية وليس الأمر كذلك عندنا...».

ب ـ أكيهيرو ـ تاكانو

كان يعمل في القسم العربي من الإذاعة اليابانية الموجهة إلى الشرق الأوسط... ترك العمل الصحافي ليتفرغ تماماً لترجمة الروايات العربية، والمصرية تحديداً... وهو من جيل تتلمذ على يد نوبواكي ـ نوتاهارا.. كان أول لقاء به في حفلة طلاب السنة الأولى سنة ١٩٩٠ . وعندما قدّم نفسه إليَّ قال: «ضُرِبتُ كفاً في مطار دمشق الدولي عندما زرت سوريا لأول مرّة...» اعتذرت إليه آسفاً لما حصل، ولم يقل لي السبب، ولم يحكِ الحادثة رغم أنني ألححت عليه من أجل ذلك، وحاولت معرفة الموضوع من مصادر أخرى قريبة إليه، غير أنني لم أصل إلى نتيجة... لذلك مازحته عندما أجريت الحوار معه قائلاً: إذا أردت «أخذ الكفّ»، خذه يا أخي وأنا على حسابك. نشر هذا الحوار في جريدة الحياة بتاريخ ٧ ـ ٧ ـ ١٩٩٠ .

س: لنبدأ بسؤال تقليدي تعشقونه في اليابان. لماذا اخترت اللغة العربية، ومتى بدأت ذلك؟

ج: بدأت دراسة اللغة العربية سنة ١٩٧٢ وتخرجت في ١٩٧٧ . وخلال ذلك زرت مصر وأقمت هناك لمدة سنة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦). أما اختياري للغة العربية، فيعود إلى أنني أردت دراسة لغة لا أعرفها. اللغات الأوروبية، أعرف غالبها،أو الأصح، أعرف قراءة حروفها على الأقل، لكنني أردت لغة

جديدة بالنسبة لي. لذلك كان يمكن أن أختار الهندية أو الأندونيسية أو الفارسية، أية لغة من هذا القبيل، ولا أعرف لأي سبب اخترت العربية بالتحديد ودخلت قسم اللغة العربية.

س: تعني المصادفة هي سبب اختيارك للغة العربية؟

ج: نعم، نعم. في اليابان لابدَّ من الإجازة الجامعية لدخول أية شركة كبيرة للعمل. ولهذا السبب كان لابدَّ أن أحوز على الإجازة بأي ثمن، فاخترت جامعة اللغات الأجنبية، وكانت المصادفة عربية هذه المرة.

س: وهل كانت المصادفة أيضاً وراء اختيارك للاهتمام بالرواية العربية أيضاً؟

ج: ربّما. لكن عندما ذهبت إلى مصر سألني أستاذ: لماذا جئت إلى هنا، ماذا تريد أن تفعل؟ والواقع أنني كنت حائراً. درست العربية وقرأت كثيراً، وأعتقد أنني كنت طالباً مجتهداً. لكن أي تخصص أختار، لم أكن أعرف. ولدى هذا السؤال: ماذا تفعل هنا؟ بدأ القلق فعلاً. ولحسن حظي، كان نوبواكي نوتاهارا، وهو أستاذي، هناك في مصر يكتشف الرواية المصرية ويقرأ الروايات ليلاً ونهاراً. فقلت سأفعل مثل أستاذي. هكذا بدأت بقراءة القصص والروايات المصرية والعربية الأخرى.

س: منذ متى فكرت بترجمة رواية «السراب» لنجيب محفوظ؟

ج: قبل أن أترجم نجيب محفوظ ترجمت ثلاث روايات قصيرة: «طوق وأسوارة» ليحيى طاهر عبد الله؛ «صهر أسود» لشفيق بكار، «من التاريخ السرّي لنعمان عبد الحافظ» لمحمد مستجاب. والحقيقة أنني كنت عرفت نجيب محفوظ من خلال رواياته التي تصف المجتمع المصري على وجه الدقة، وأنا أميل إلى هذا النّوع من الروايات، بيد أنني لم أترجم أية منها إلى اليابانية. لماذا؟ لا أعلم. لكن بعد نيله جائزة نوبل، اعتزلت تماماً وأخذت بالترجمة. فاللعبة الدعائية مهمة جداً في اليابان كما تعلم...

س: ما الذي شدّك في رواية «السراب» حتى اخترتها من دون غيرها من روايات نجيب محفوظ الكثيرة؟

ج: شخصية البطل، كامل رؤبة لاظ، تشبهني: خجول جداً، لايقدر أن يُعبِّر عما في داخله من عواطف، لايستطيع أن يقول لا. وإذا أحبَّ لايعرف كيف يرى حبيبته أو كيف يكلِّمها، يرتجف أمامها. وإلى ذلك كله، له أم تشبه أمي: تحبه بلا حدود، متعلقة به، تدلله. إنّها كما نقول باللهجة المصرية «تبوظ ابنها». ثم هو، كما أنا، يكبر ويعيش في حمايتها. باختصار، إنَّ الشَّبه بيني وبين بطل الرواية هو السبب الأساسي الذي دفعني إلى اختيارها دون غيرها.

س: أليس هناك تقارب بين عالم الرواية والواقع الياباني؟

ج: بصراحة لا. إذ لاتوجد ظاهرة يمكن أن نسميها ظاهرة كامل رؤبة لاظ. وربما غير موجودة في مصر أيضاً. هذه حالة استثنائية وليست ظاهرة. إن حالة البطل حالة مرضية، شاذة غير طبيعية. (في هذا الكلام الذي يقوله تاكانو جواباً على هذين السؤالين المتتالين، الكثير مما لمسته لدى الفرد الياباني، ولاسيما فيما يخص العلاقة بينه وبين أمّه).

س: ماهي روايات نجيب محفوظ التي ترجمت إلى اليابانية؟

ج: منذ عشر سنوات ترجم الأستاذ هانوا رواية «بين القصرين» وأعيد طبعها بعد حصول محفوظ على جائزة نوبل. وهناك بعض الترجمات التي بقيت، وللأسف، في إطار محدود جداً. مثلاً روايتا «السمان والخريف»، «الكرنك» ترجمتا إلى اليابانية منذ ١٩٧٥ ، ولم تنشرا بل طبعتا في المعهد الآسيوي للاقتصاد ووزعتا مجاناً على بعض المهتمين بالأدب العربي.

س: تعني أن شركات النّشر لم تهتم بالأمر، أم أن المترجمين لم يتحمسوا؟

ج: لا.لا. إن شركات النشر تهتم، تهتم جداً... لكن (طبعاً لم يكمل لأن الترجمات تكون فقط لجهات محددة تريد فهم قضية معينة).

س: هل تعتقد أن حركة الترجمة من العربية إلى اليابانية ستكون أنشط في المستقبل؟

ج: كلا. لأن اهتمام الياباني ينصب بالدرجة الأولى على أدب الولايات

المتحدة الأمريكية، ثم يأتي في الدرجة الثانية الأدب الفرنسي والانكليزي. وبعد ذلك «مفيش». لكن ربمّا منذ خمس سنوات بدأ الاهتمام بالتحول بعض الشيء إلى أدب الدول النامية: أمريكا اللاتينية، جنوب شرق آسيا، مثل أندونيسيا، الفيليبين، كوريا، وهذا الاتجاه لايزال ضعيفاً. أما بالنسبة إلى الآداب العربية، فالاهتمام بها قليل جداً، لكنه مستمر لايزيد ولاينقص وربما تبقى الحالة هكذا إلى إشعار آخر (هذا هو التشخيص الأدق والأسلم للإستعراب في اليابان).

س: ما هي معلوماتك حول الاستشراق الأوروبي، الفرنسي.. الانكليزي.... الخ؟

ج: أعرف أشياء متواضعة عنه بفضل التساؤلات التي أثارها أدوار سعيد في كتابه «الاستشراق». وقد أثار هذا الكتاب هزة محترمة أثناء ترجمته إلى اليابانية: أدركنا أن بعض هذا الاستشراق لم يشأ أن يفهم الثقافة العربية كما هي، ولم يقدمها بالتالي بموضوعية إلى القارئ الأوروبي.

س: هل تعتقد أن الاستعراب الياباني بعيد عن الاستشراق الأوروبي، إذ مرَّ من خلاله، وربما لايزال، لفهم الثقافة العربية والإسلامية؟

ج: أعتقد أنه بعيد. صحيح أنه أخذ في البداية عن الاستشراق الأوروبي، ولكنه أخذ المتون العربية، ولم يأخذ الفهم والتعليق والشرح. أن نتعرف إلى العرب عن طريق أوروبا، فذلك نقص لابدَّ من الاعتراف به. ولابدَّ أن التفكير الأوروبي أثَّر علينا في فهم الثقافة الإسلامية والعربية. ولكن عندما اكتشفنا لاعلمية ولاموضوعية بعض المستشرقين، اتجهنا إلى الاحتكاك المباشر باللغة العربية وبالتراث الإسلامي وبالواقع العربي ميدانياً».

ج ـ كوجيرو ـ ناكامورا

في الجامعات الحكومية اليابانية نظام لم أفهمه إطلاقاً: وهو أن الأستاذ إذا بلغ الستين من عمره يُحال إلى التقاعد، ولايحق له إعطاء المحاضرات في

الجامعة نفسها أبداً. ثم ينتقل إلى التعاقد مع جامعة أخرى، لكن خاصة... في الستين يكون الأستاذ في أوج نضجه العلمي والأكاديمي، ويكون أقدر على إدارة رسائل التخرج وإدارة القسم الذي يرأسه إذا كان رئيساً للقسم... فكيف يحال إلى التقاعد!! هذا مالم أستوعبه... وهذه حالة أستاذ ناضج مثل المستشرق كوجيرو ـ ناكامورا (هو يفضل كلمة مستشرق) الذي أحيل إلى التقاعد في ربيع ١٩٩٧ ، بعد أن كان رئيساً ومؤسساً لقسم الدراسات الإسلامية في جامعة طوكيو، وهي الجامعة الإمبراطورية سابقاً. التقينا مراراً، وكثيراً ماتبادلنا أطراف الحديث حول هموم ومشكلات الاستعراب والدراسات الإسلامية... أجريت معه هذا الحوار صيف ١٩٩١ ونشر في جريدة «الحياة» بتاريخ ١٠ ـ ٨ ـ ١٩٩١ .

س: لكل مستعرب ياباني قصة صغيرة مع اللغة العربية، ثم تتحول إلى قضية. ما الذي دفعك إلى العربية؟

ج: كنت أدرس أساساً علم مقارنة الأديان. ثم نصحني أحد أساتذتي آنذاك بدراسة الدين الإسلامي، إذ لم يكن، وقتها، في اليابان من هو متخصص بالفكر الإسلامي. عندها وجدت نفسي مضطراً إلى دراسة اللغة العربية. بدأت ذلك بمفردي، لأنه لم يكن عندنا قسم خاص باللغة العربية، وبعد سنة واحدة افتتح هذا القسم في جامعة الدراسات الأجنبية، حيث كنت أحضر مستمعاً كان يجب أن أكتب رسالة تخرجي حول الإسلام في تركيا. كان ذلك في بداية الستينات.

س: لكن لماذا أمريكا، فيما بعد، لماذا أكملت دراستك العليا هناك وليس في أوروبا، فالاستشراق في أوروبا كان وربّما لايزال أقوى....؟

ج: في تلك الفترة، أي في بداية الستينات، كان يصعب على اليابانيين عموماً، وعلى الطلاب بخاصة، أن يسافروا إلى البلدان الأجنبية سواء للدراسة أو للسياحة. ليس هناك سبب خاص لهذا الاختيار، أو بالأحرى ليس اختياراً، لأن الجامعات الأمريكية آنذاك قدّمت مجموعة من المنح إلى الطلاب

اليابانيين. وهكذا أتيحت لي فرصة الدراسة خارج اليابان، فاخترت جامعة هارفرد. ولو استطعت إكمال دراستي العليا في العالم العربي أو في أوروبا لذهبت. أعرف أن الإستشراق الأوروبي أعرق وأقوى، لكن كان يوجد في أمريكا آنذاك مستشرقون كبار أفاد منهم الأوروبيون كثيراً مثل: هملتون الذي أردت الدراسة على يديه، لكن وقتها كان مريضاً وكبيراً في السن. ولذلك أعددت رسالتي بإشراف جورج مقدسي.

س: تركزت أحاديثنا الجانبية على موضوعة الأجيال في الاستعراب الياباني وتقول إنك من الجيل الثالث فكيف تميز بين هذه الأجيال؟

ج: بدأ الاهتمام بالعالم الإسلامي قبل الحرب العالمية الثانية. وفي ذلك الوقت بدأ مايمكن أن نسميه الجيل الأول من المستشرقين اليابانيين: مايجيما، أزوتسو، أوكوبو... إلخ. كانوا يعرفون اللغات الشرقية جيداً، أما اللغة العربية فقليلاً. والغريب أن أوكوبو ترجم القرآن من التركية لامن العربية، لأنه لم يكن يعرفها. ومع ذلك نسميه مستشرقاً. فالجيل الأوّل كان يدرس الفكر الإسلامي من خلال اللغة التركية والفارسية، أو بالأحرى لم يكونوا يدرسون الفكر بالمعنى الواسع لهذه اللفظة، بل كانوا يجمعون معلومات حول العالم الإسلامي ويلقوننها للطلاب. وشجع النظام السياسي آنذاك هذا الاهتمام بالعالم الإسلامي، لأنه كان يحتاج إلى معرفة كل شيء حول هذا العالم. فاليابان كبلد استعماري، آنذاك، كان يريد فهم الدول الإسلامية القريبة منه كدول آسيا الجنوبية، ماليزيا وأندونيسيا وفهم الإسلام في الصين. ولذلك كانت العلاقة قوية بين اليابان وتركيا. فالاستشراق الياباني قبل الحرب العالمية الثانية كان خاضعاً لمتطلبات الذهنية الاستعمارية، وساعد الجيل الأول على ذلك كثيراً، مع أنني أعتقد بصفاء نيتهم لما كانوا يقومون به. غير أن النظام العسكري وقتها كان يطالبهم بما يعرفون.

س: كيف كانت علاقة هذا الجيل الأوّل بالاستشراق الأوروبي؟

ج: لم يكن الجيل الأول يولي الدراسات الاستشراقية الأوروبية أهمية تذكر، بل كان يبحث عن فهم الإسلام والعالم الإسلامي بوسائله الخاصة وبعيداً عن

جميع الرؤى الأوروبية لهذا العالم. وهذا بالتحديد ما أردت قوله منذ قليل: أي الخلفية الاستعمارية هي التي كانت تدفع إلى البحث عن رؤية خاصة وفهم خاص للشرق الأوسط والأدنى الإسلاميين.

س: وماذا عن الجيل الثاني والثالث؟

ج: بعد الحرب مباشرة انتعش الجيل الثاني الذي باشر فوراً بنقد الجيل الأول من دون هوادة، ولاسيما على صعيد الرؤية الاستعمارية التي تحكمت بدراسات ذلك الجيل. غير أن مايؤخذ على الجيل الثاني أنه اعتمد على اللغات الأوروبية والاستشراق الأوروبي في فهمه وتقييمه للشرق الأوسط، ولم يتابع، للأسف، فهم تلك المنطقة من خلال لغاتها. بالطبع هناك استثناءات لكن الغالبية كانت كذلك. وقد نجد لهذا الجيل عذراً، لأن اليابان بعد الحرب كانت منهكة وكان الاقتصاد هاجسنا الأول، ولم يكن باستطاعة المستشرق أن يسافر ويرى ميدانياً مايريد فهمه. وبخلاف الجيل الأول، راح الجيل الثاني يهتم بحركات التحرر الآسيوية كثيراً ويدافع عنها. إن أهم مايميز هذا الجيل كثرة الترجمات من اللغات الأوروبية إلى اليابانية. ترجمة جميع الدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامي. ومع الجيل الثالث اختلف الأمر: صرنا نهتم بتدريس الفكر أكثر من تجميع المعلومات والتلقين. أخذنا نسافر إلى البلدان العربية والإسلامية ونعيش في البلد موضوع الدراسة. يتميز جيلي عن الجيلين السّابقين بهذه الناحية وبظهور تباشير التخصص في جانب معين من جوانب الفكر الإسلامي.

س: ماذا تفضل أن يقال لك: مستعرب أو مستشرق؟

ج: هذه ليست مشكلة بالنسبة إلي. لكن أفهم من كلمة «مستعرب» لغوياً، المتخصص بالدراسات العربية وبالعالم العربي. أما كلمة «مستشرق» فتعني المتخصص بالدراسات الشرقية، وعلى هذا أفضل كلمة «مستشرق» لأنني أهتم بالفكر الإسلامي لافي العالم العربي فقط، بل في إيران وتركيا وباكستان وجميع البلدان الإسلامية. طبعاً أهتم بالعالم العربي، لكن الفكر

الإسلامي لاينحصر تطوره وتاريخه بهذا العالم فهناك مفكرون إسلاميون ليسوا عرباً. بهذا أرى أن كلمة مستشرق أقرب إلى الواقع، واقع ما أقوم به، ولذا أفضلها، لكن ليس بالمعنى الاستعماري ذي الحمولة السلبية الذي اتهمه ادوار سعيد. إن ماجاء به ادوار سعيد فيه الكثير من الالتباس. فالاستشراق كما فهمت من كتابه ذو أغراض تشويهية بحتة، أغراض غير علمية. ولا أعتقد أن ذلك يصحُّ إطلاقاً وبهذا الحجم، فالاستشراق قدَّم خدمات للتراث الإسلامي حتى في حالة الهجوم والنقد، خدمات لم يستطعها المسلمون أنفسهم..

د ـ ياسوشي ـ توناكا

ياسوشي ـ توناكا مستعرب من الجيل الجديد يهتم بالفكر الاسلامي. وهو تلميذ كوجيرو ـ ناكامورا، صاحب الحوار السابق. يتكلم العربية مثل غالبية المستعربين اليابانيين، وهو من جيل يريد أن يفعل شيئاً. كنت ألتقيه من حين لآخر، نتحدث بصراحة حول مشكلات الاستعراب، وأسباب تأخره عما يحدث للدراسات العربية والإسلامية في أوروبا.... لايخفي امتعاضه من تخلف يسيطر على غالبية دوائر الاستعراب ، ولا يستطيع شيئاً... نشر هذا الحوار معه في جريدة الحياة بتاريخ ١٥ ـ ٩ـ ١٩٩١ .

س: بصفتك من جيل المستعربين الجدد، كيف تنظر إلى الاستشراق الياباني؟

ج: ما قدمه الأوائل لايتجاوز المعلومات الأولية حول الإسلام،لأن اليابانيين لم يكونوا، وقتها وعلى جميع المستويات، يحتاجون إلى أكثر من ذلك. أعتقد أن تلك المعلومات، كانت جديدة ومدهشة بالنسبة إلينا جميعاً. الأجيال السابقة ركّزت اهتمامها على الإسلام في الصين وفي الدول الإسلامية القريبة من اليابان لغايات لاتخفى على أحد، أقصد لغايات استعمارية في قسمها الأكبر.

س: وكيف درستم الفكر العربي والإسلامي؟

ج: نقرأ النصوص بلغتها الأم. قرأنا، مثلاً نصوصاً من «إحياء علوم الدين» للغزالي، ومقدمة ابن خلدون. وكان الأستاذ يقوم بالترجمة والشرح والتعليق. وفي محاضرات أخرى كنّا نقرأ دراسات باللغة الانكليزية أو الفرنسية حول نصوص الغزالي أو حول مقدمة ابن خلدون أو حول أي نص آخر لكي نفهم وجهة النظر الأوروبية.

س: كان يُطلب منكم معرفة هذه اللغات الأوروبية؟

ج: نعم. على طالب الدراسات الإسلامية أن يعرف على الأقل الانكليزية والفرنسية والألمانية معرفة أولية تتيح له أن يفهم بمساعدة القاموس ما يقوله النص. طبعاً دون أن ننسى العربية والفارسية والتركية، أي لغات أهم البلدان الإسلامية. قد يبدو هذا من قبيل المبالغة، لكنه الأمر الواقع...

س: ما تقوله يقع في دائرة المفهوم الموسوعي للاستشراق وربّما يشكل خطراً على ميدان التخصص...

ج: التخصص هو الذي يطبع الجيل الجديد، ولايطلب إلينا أن نكتب ونتكلم هذه اللغات جميعاً. لم أقصد ذلك، ولايعني أن يصبح الطالب موسوعياً. فهذا أمر مستحيل الآن. لذلك هناك متخصصون كثر. هناك من يعمل على التاريخ العربي والإسلامي القديم، وهناك من يعمل على الفكر المعاصر، وهناك من يعمل على التاريخ الحديث. وهناك طلاب توزعوا الإختصاصات فيما بينهم، في مايتعلق بإيران قديماً وحديثاً ولاسيما بعد الثورة الإيرانية. وحول هذه الثورة فعلاً كتبت أشياء كثيرة في شتى اللغات، لذا كلّما كان الباحث يعرف لغات أكثر كلّما فهم موضوعه بشكل دقيق وواسع.. ثم إن الإسلامياتي لايمكن أن يكون مستعرباً فقط، عليه أن يعرف أكثر ما يستطيع من لغات البلاد الإسلامية. فإذا كان الفكر الإسلامي قد نشأ باللغة العربية، فإنه تطور عبر هذه اللغة وعبر لغات الشعوب الإسلامية غير العربية. فالإسلام ليس دين العرب فقط، بل هو اليوم دين الملايين التي لاعلاقة لها بالعرب وتفهم الإسلام بطرق تختلف تماماً عن فهم العرب له. ومن واجب الإسلامياتي أن يعي هذا الواقع...

س: بماذا وبمن تفكر حين تقول هذا الكلام؟

ج: أفكر بتركيا، بالتجربة التركية تحديداً. فالمسلمون يشكلون غالبية المجتمع التركي. وكانت تركيا معقل وحامية الإسلام لمدة طويلة. ومع ذلك قبلت الذهنية التركية تغيير الحرف العربي إلى اللّاتيني. ولهذا دلالة كبرى ليس محل الحديث عنها هنا. لكن الأهم من هذا قبول المجتمع التركي ذي الثقافة الإسلامية أساساً الفصل بين الدين والدولة على الطريقة الأوروبية.. لفهم أبعاد ودوافع ونتائج هذه التجربة هناك أسئلة كثيرة تطرح نفسها على الاسلامياتي أياً كانت جنسيته.

س: بماذا يتميز جيلك عن الأجيال السابقة؟

ج: يقترب من القطيعة مع الأجيال السابقة... إنه الفوج الأول الذي يدرس في جامعات العالم العربي والإسلامي وبلغة هذا العالم. زملائي جميعاً يعرفون العربية جيداً قراءة وكتابة بنصوصها القديمة والحديثة. وهذا شيء جديد تماماً. ولذلك فإن جميع البحوث التي نعدها تبتعد إلى حد كبير عن الدراسات الأوروبية في المجال نفسه. نعد بحوثنا استناداً إلى تجاربنا الخاصة وإلى النصوص المدروسة بالذات. وهذا شيء جديد بالنسبة إلى اليابان. لابدَّ أن نتخلص من تبعيتنا للدراسات الأوروبية. ولن يتحقق ذلك إلّا بالسفر إلى البلاد الإسلامية والعيش فيها وفي مكتباتها ومعايشة النّاس مباشرة. وهذا بالتحديد مالم يتوفر للأجيال السابقة التي كانت مضطرة للتبعية بشكل أو بآخر...

س: هل هناك تبعية وإلى أي حد؟

ج: نعم هناك تبعية، ونحن الآن بصدد العمل على التخلص منها كما أشرت. والحقيقة هي أننا نريد منزلة بين المنزلتين: يعني بين الأوروبي وبين المسلم، أي منزلة جديدة. فنحن لسنا مسلمين ولامسيحيين ولم نقاتل العرب والمسلمين، والعلاقات التاريخية تسمح لنا بتكوين مثل هذه المنزلة. علاقتنا بالعرب والمسلمين ليست معقدة كما هي الحال بالنسبة إلى أوروبا. لكن

هذا لايعني أن نجامل العرب في آرائهم وفي فهمهم للتراثات الفكرية الإسلامية وسوف تكون لنا بالتأكيد وجهة نظرنا الخاصة بنا. فنحن اليوم، وجيلي بخاصة، نهتم بكل مايقوله المفكرون العرب والمفكرون المسلمون حول الإسلام القديم والمعاصر.

س: كيف تنظر إلى مستقبل الدراسات الإسلامية في اليابان؟

ج: على أية حال، يزداد عدد المستعربين زيادة ملحوظة... ومنذ تأسيس القسم الخاص بالدراسات الإسلامية، ونحن نستقبل سنوياً حوالي خمسة طلاب ماجستير ودكتوراه. لكن هذا العام، لم نستقبل أي طالب بسبب حرب الخليج وغزو الكويت. كنت أتوقع شخصياً عدداً فائضاً من الطلاب بعد هذه الحرب والدعاوة التي رافقتها حول الإسلام والفكر الإسلامي، غير أن العكس هو الذي حدث، فالصحافة اليابانية المتخصصة بالشرق الأوسط ارتكبت أخطاء فادحة، إذ ربطت وعلى غرار الصحافة الغربية بين الإسلام والإرهاب، وقدّمت المسلم بوجه محارب إرهابي، وهذا ما أخاف ويخيف الجميع...».



مقدمة لقوانين اللّيل

- مقدمة الاحتقان
- ليلة الطوفان والكشف
- حرمة الكاس وتقاليد الذئاب
- بين الشوارب والحجاب
- مقدمة للبحث عنهنّ..
- خمارة التّنين الطاهر



مقدمة الاحتقان

قلّما يفارقني شعور أنني داخل سياج ثكنة عسكرية أو داخل مجمع كهنوتي وأنا في اليابان. من الشارع حيث انتظام المشاة والعابرين يستدعي أرتال جنود في ميدان التدريب أو مصلين في بيت العبادة، وهم يعبرون أو يقفون، إلى أرصفة المحطات حيث اصطفاف النّاس أرتالاً أرتالاً استعداداً لوصول القطار، «هذه الشاحنة العسكرية الصباحية»، إلى المطاعم والخمارات حيث لابدَّ من الانتظار بالدّور في غالب الأحيان للحصول على مكان. عالم «مُنظَّم» تنسى فيه أنك إنسان يرغب بالرفض والاحتجاج من حين إلى حين، وتذوب فيه حتى لتصبح «شيئاً» من جملة ماهو موجود، «شيئاً» لا أكثر، «شيئاً» آلياً ينفذ مايتلى عليه من أوامر. كلّ شيء مسيّر بأمر، بلهجة قاطعة. لا حركة، لافعل من دون أمر.

على إشارة المرور وقفة واحدة، ثم مشية واحدة، ولباس موحد إلى حد كبير، لا أحد يريد أن يلبس شيئاً مختلفاً يوحي بأنه نشاز. إنّها ثقافة «الإنسجام». لايجرؤ «جندي» واحد أو مؤمن واحد على الفوضى. وإلّا فإن العقاب ينزل عليه من حيث لايدري. للعبور لابدَّ من الدور، للوقوف لابدَّ من الدّور. كلٌّ فعل يحتاج إلى تراتبية ودور.

إن هي إلّا ثكنة كبرى أو جامع كبير. ضغط هائل من جميع الجهات. جنود أو مؤمنون من جميع الجهات، عرفاء أو أئمة من جميع الجهات ورقباء وصف ضباط وضباط وأوامر جنرالات وشيوخ مخفيين.

على أرصفة محطات القطار يصطف البشر أرتالاً. في كلٍّ رتل ثلاثة صفوف. وفي ساعات الصباح الأولى، أمام كلّ رتل موظف بلباسه الأزرق

السماوي ينظم صعود الركاب ونزولهم. إنّه «الرقيب» أو الإمام المسؤول عن جماعته. قطار طويل وأرتال كثيرة. لهؤلاء «الرقباء» وجوه صارمة، ناشفة كالخبز اليابس. ينطقون مثل آلة معبأة بجمل وكلمات محددة: خذ مكانك. انتبه. سوف تنطلق الصفارة. ويطلق كبيرهم الصفارة: انتبه، جاء القطار، القطار يدخل إلى المحطة، تفتح الأبواب، يرجى الصعود، انتبه تغلق الأبواب، يتحرك القطار. ابتعد عن حافة الرّصيف. احترس القطار يمشي. داخل القطار، معلومات بالطريقة نفسها: المحطة القادمة كذا، الباب الأيسر يفتح، أو الباب الأيمن. انتبه، لاتنس أشياءك في الداخل أثناء النزول. وهكذا منذ الصباح الأول لحد آخر قطار ليلي. صوت موزون يضرب على الأعصاب. يسخر من كلِّ النّاس: أنتم لاتنتبهون متى يأتي القطار، ولامتى يدخل إلى المحطة، ولامتى تفتح الأبواب، أنتم أطفال صغار لما تبلغوا سن الرشد بعد... ها هي المعلومات أمامكم، يمنع الخطأ، يمنع السؤال والتواصل... لاتسأل راكباً آخر عن المحطة القادمة، لاتزعج وكن حريصاً على سماع الأوامر والتعليمات.. هكذا يصل الياباني إلى المحطة ويستسلم فطرياً لهذه النداءات، لايحتاج إلى التواصل إلّا معها كي يصل إلى حيث يريد. يصغي فقط. ينفذ فقط. هذه حياته اليومية. في القطار. في الباص، في الشركة، في المدرسة، في الجامعة، في الشارع، في في إلخ. ولذا يضيع إذا سافر وحده خارج اليابان. ويحتاج دوماً إلى قائد ودليل. كما يضيع إذا سافر وحده داخل اليابان ودون هذه الأوامر والتعليمات. إنّه مصاغ للطاعة والخضوع. مصاغ للنظام وغريزة الطأطأة والعيش خلف سياج القطيع.

ضغط من جميع الجهات. لاهامش للفوضى والمراهقة. حتى أولاد المدارس لايراهقون. لا أحد يخالف. «انسجام» بـ «انسجام». ضغط بضغط. وكان السؤال: متى يمارس الياباني مراهقته؟ كيف وأين؟ مضت على وجودي في الأرخبيل سنة، سنتان، ثلاثة، أربعة، خمسة... الخ ولم أحظَ بمشاهدة مَنْ يخالف، مثلاً، بالقفز فوق حاجز الدخول إلى المحطة، أو بالمرور أمام مسؤول المراقبة خفية في الخروج أو في الدخول... هذا المظهر البسيط من مظاهر

الفوضى البسيطة في البلدان ذات المحطات والقطارات المتقدمة... قيل لي إن هذه المراهقة تمارس يومياً من قِبَل الكبار قبل الصغار، ولكن بشكلها السري. كيف؟ لم أفهم. لكن بطريقة يابانية لاتُرى. على طريقة غاز السارين: فوضى سرية، فوضى غير معلنة، غير انفجارية، غير مشهدية. لكنها فوضى بروح يابانية. القفز فوق الحاجز يكون باللعب بالبطاقة نفسها، أي بالغش، بالخدعة، بالسرية.

اعتدتُ في باريس على هذه المشاهد اليومية: حوار حاد بين راكب ومراقب بطاقات، مشادة أحياناً؛ قافز فوق الحاجز، أو عابر تحته في اتجاه القطار أو المترو. من جهتي، لا أذكر أسبوعاً واحداً لم أخالف خلاله. ولو قاضتني اليوم مصلحة المترو الباريسية أو مصلحة الخطوط الحديدية بين باريس والضواحي، على تلك المخالفات، لدفعت المبلغ المرقوم. للمخالفة طعم الحرية. كأننا بها نشارف حدود المطلق. نحقق شيئاً غامضاً لانعرفه. نكتشف قدرتنا على الخرق أو على الطاعة. نكتشف حسّنا بالمسؤولية. نتذوق نكهة الإرتجاف والخوف مهما كانت المخالفة بسيطة.

وبسبب تلك العادة، عزمت ذات مرة على الجرأة في طوكيو. وصلت إلى محطتي وعبرتُ أمام المراقب بسرعة. حاولت أن أضيع في زحمة العابرين. لكنه سرعان ماوصل إليّ. كأنَّ الذي مرَّ جندي فار من المعركة. تابعت السير. لاحقني. أوقفني وقال بإنكليزية متوترة: أين بطاقتك؟ يرغو، والرغوة تخرج من بين شدقيه. تجحظ عيناه كأنه ابتلع فأراً أو قطاً. تمتعت بالخوف منه. تأكدت من أنني لاأزال أنا أنا. تأكدت من وجودي ومن أنني أمقت الأنظمة المثالية لحد التدين. كلُّ حركة من حركاته شتيمة لأجدادي. أنا الأجنبي الذي تجرأ، ولابدَّ من إعطائه درساً أمام الجمع الغفير. تحلّق حوله جمع من اليابانيين. نظرات تتهم وأخرى تشتم. ولولا أناقتي لمدّت يد أحدهم بالتأكيد. الأناقة عندهم جواز سفر إلى الرؤوس: إشارة واضحة إلى أنك ذو حول وقوة. إذاً، ضوء أحمر. تظاهرت بعدم الفهم. نعم؟ ماذا؟ مالك؟ فتنطح أحدهم قائلاً بوضوح تام: بطاقة ركوبك يا سيّد؟ خذها. ها هي. ولِمَ كلُّ هذا الضجيج. ربّما قصدتُ ذلك وربّما لا.

بطاقتي هذه لاأستطيع استخدامها مرّة أخرى وأنت تعرف ذلك... لكن لابدَّ من ترويضك أيها الأجنبي، أيها الذئب الأبيض مثل العدم.. لابدَّ أن يخضع رأسك لقالبنا، وأعضاؤك لترتيبنا. رتبوا يا أصدقائي ماتشاؤون، لكن أعضائي كالغيوم، لايرتبها غير الرّياح.

لست رسولاً من رسل الفوضى، ولانبياً من أنبياء العبث. ولاأريد أيضاً أن أكون عبداً من عبيد الإمتثال لصرامة القانون والنظام. أعتقد أن مجتمعاً كالمجتمع الياباني يحتاج إلى هامش من الفوضى، وإلّا فإن الأمراض والأوبئة النفسية سوف تهدد بإنتاج شعب عدواني، يسعى إلى السيطرة على بعضه البعض، أو على الشعوب المجاورة. إن رغبة الفوضى المشهدية، العلنية تحتاج إلى إشباع من حين لآخر. وعدم إشباعها في اليابان يؤدي إلى ظواهر غير طبيعية بين طلاب المدارس: الإنتحار، الإضطهاد، ارتكاب جرائم القتل فيما بينهم.

في اليابان، لا أحب القطارات ولاركوبها. توحي لي بقافلة عسكرية تغصُّ بالجنود والبنادق، وتتجه إلى ميدان قتال. وفي ساعات الصباح، صمت رهيب داخل القطار، يرافقه ازدحام قاتل. علب السردين تحسد على فضائها وضجيجها. ولا أحد يصرخ أو يحتج: يا عمي ازدحام. شو هادا. لكن غريزة الطأطأة، طأطأة الرؤوس لبعضها، هي الزير والحكم. أهو حبُّ العمل مجنون إلى هذا الحد..

في جو الازدحام هذا تتلاصق المؤخرات، ويتلاصق مايتلاصق. وتأخذ الانتصابات. ويبدأ النكل في الخواصر، والدفش المنظم والعفس على الأقدام. في هذا الجو يمارس الياباني فوضيته السرية وتتجلى قوانينه الخفية. لافوضى في الظاهر، لكنها تيار في العمق يحرك الأقدام والقضبان: التصاقٌ من دون قصد، وانتصاب دون نية، واحدة تريد تلتصق بمنتصب وتصمت صمتاً لاغبار عليه. ممارسة الفوضى دون قصد في جو مبهم، غامض دون قصد. لاوجود لأنا واضح أنها تشاغب، وتمكن الإشارة إليها بالسبابة.. وواحدة أخرى لاتريد، فتعلّق محفظة يدها بحيث تأتي على المؤخرة تحاشياً لضغط مقصود أولا. أما الاحتجاج فنادر إن لم يكن معدوماً. و«ضحايا» هذا الشغب السرّي جميع

النساء، ولاسيما فتيات المدارس الإعدادية والثانوية: يلبسن تنورات قصيرة فيبدون مثل زجاجات خمر في معبد مسكون. وما إن يصلن إلى الجامعة حتى تكون المؤخرات قد ألفت ضغط القضبان السرّي.

لا أحبُّ صباح القطارات اليابانية، ولاصباح محطاتها. وحدث أن تأففت من هذا مراراً، فكنت أقابل بوابل من نظرات الشتائم والامتعاض وتقطيب الحواجب... ماله، مالهذا الأجنبي وكأن بلادنا لاتروق.. ماله يجرؤ على عادات صمتنا ويشاغب علناً... نيام في أرخبيلهم منذ ثلاثمائة عام، وهاهم يستيقظون ليجدوا أنفسهم في عالم غير عالمهم، وفي دنيا غير دنياهم، وكلابهم إلى جانبهم تحرس ما تبقى من تقاليد الأرخبيل..

كلّما اختلطت الأشياء وغامت، طاب للياباني أن يلعب..

الوضوح عدوه الأوّل.

عندما ركبت القطار لأول مرّة، أخذت بمراقبة الوجوه لأقرأ ما قد تعنيه. لم أستطع فهم أي وجه. وجوه يابسة، متشابهة، لاتعبير لها سوى الجفاف. وجوه خالية من الدم. بعضها نائم، وبعضها مخشّب في اتجاه. لكن مالهم نيام هكذا؟ لا، ليسوا نياماً ولكن الشبكات البصرية تتعب من ضغط الحركة داخل القطار وخارجه، يريدون العزلة والإستراحة، أجابني الصديق. أغمض عينيك كلّما أردت أن تكون وحدك بين البشر، ونَمْ إذا شئت، أضاف الصديق. مارستُ عادة إغماض العنين في بلادِ ولم أنجُ من البشر، ولم تفلح. لاتفلح إلّا في الأرخبيل، أرخبيل الخمور المضغوطة والعيون المضغوطة والموخرات المضغوطة.

تمنيت مرّة واحدة لاغير، أن يقال هناك إضراب قطارات ولاتستطيع الذّهاب إلى العمل اليوم... الاحتجاج ممنوع والإضراب ممنوع... نفّذ ماتؤمر به أيها الياباني. ثم كُلْ واشرب كما تريد. اسكرْ وغبْ كما تريد، لكن لاتعترض على مانريد. صمت القطارات، وصفارات الموظفين، وأقدام تتلاطم فوق الأرصفة، ورؤوس، لكثرتها، كرؤوس الماشية، كلُّ هذا كان يقرفني عند

الذهاب كلَّ صباح إلى الجامعة... رغبة هائلة للعواء كأي ذئب تضيق به الأقفاص وعادات البيوت السرية وأسيجة الحظائر.

لايوجد ياباني موظف إلّا وله حياةٌ خاصة في القطار. كلّ يوم ساعتان أو أكثر. في الذهاب وفي الإياب. واللافت بالنسبة إلى مراقب أجنبي هو أنه نادراً ما يقدِّم شاب، أو فتى، مكانه لعجوز، أو لمتقدم في السّن. لابل يسابق الشباب العجائز على الأمكنة. أينبغي فهم هذا هكذا: لاوجود بيننا لغير الأقوياء، لغير المنتجين، ماهي الثقافة التي تعلمها هذا الشّاب فيما يخص احترام المتقدمين في السّن ممن لانعرفهم؟ من المهد إلى اللحد يعمل واحدهم كالآلة، ليس قصداً، بل لأنّه كوِّن هكذا، برمج هكذا ولايستطيع الاحتجاج أو الرّفض. والآن لاشباب يقدمون له مكاناً للجلوس داخل قطار مزحوم... حدث أن قدمتُ لعجوز مكاني، فرفضت. لابأس. لكن جاري رماني بنظرة ازدراء واضحة. أو لعلّه استغرب سلوكي. فلم أعد إلى تلك «الفعلة» بعدها أبداً. وعندما أسأل بعض الأصدقاء اليابانيين حول هذه الظاهرة، يأتي الجواب بأنهم لايفهمون لماذا يقدِّم أو لايقدِّم شاب مكانه لعجوز.. لكن لماذا، أنتم العرب، تغرقون أنفسكم بالتفاصيل. هذه ليست مشكلة، الإنتاج هو الأساس، عبادة الإنتاج.. إذاً هكذا: قد تصلون في أرخبيلكم يا صديقي إلى حد تأجير الأمكنة داخل القطارات... تدفع أقف لك، لاتدفع لا أقف. هكذا يُطبق قانون السلوك التجاري، والإنتاج، بحذافيره...

شوق عارم إلى الحرية، وحنين إلى التمرد. لم أعد أطيق رؤية اليابان من خلال عيون بعض الأصدقاء. صرت أتحاشاهم وأتحاشى التعامل معهم، لأنَّهم أصرّوا أن أعرف من اليابان مايريدون فقط. عادة يابانية بامتياز. ولأنهم أرادوا أن يشاهدوا فيَّ صورة عربي كونوها لأنفسهم من خلال بعض الكتب تارة، وتارة أخرى من خلال أسفارهم إلى قرى وصحارى بعض البلدان العربية. تعبت من رؤية الأناقة، واللباقة الزائدتين. تعبت من الكياسة المفروضة الفارغة. احتجت إلى رؤية الوجه الآخر، إلى رؤية القفا، إلى رؤية زبالة المجتمع الياباني. تعبت من الجماعة ومن حياتها. واستيقظت الفردية بعريها. فصرت أهرب من الحفلات الجماعية المنظمة، أو أفرّ بعدها كي أرى ما يراه الفرد بمفرده.

لم يكن الأصدقاء مزعجين إلى هذا الحد. لكن طبع الفردية يفوق عندي روح الجماعة. بدأت سيرة ذئب الخمور اليابانية فصولها الأولى. ورحت أبحث عن الأماكن التي تشدني وتروق لسلالة الذئاب: خمارة يتبادل سكيروها الشتائم وأخبار البغايا كما تتبادل المصارف الصفقات وأخبار العملات، خمارة تكشط عن الوجه ومن القلب الغربة الحاقدة؛ ماخور يوقظ النزوات الخفية ويحضن الغرباء والعابرين مثل ميناء سفن مهجور؛ زاوية يتبول فيها سكارى آخر اللّيل.. وتحاشيت، تحاشيت المعابد والمتاحف: فأنا لا أطيق هذين العالمين لأنهما جزء من الماضي، لأنهما الماضي ولاشيء غيره. فليسقط الماضي بماضيه، وليعش الحاضر بحاضره... وتحاشيت، تحاشيت أمكنةً يتواجد فيها الأجانب... ورحت أخلق أمكنتي كأنني جزء من المكان... المعابد وسلالتها إلى الجحيم، المتاحف وسلالتها إلى الجحيم، الأماكن السياحية جميعاً إلى جحيم الجحيم.. أي قرفٍ أن تكون سائحاً في المكان، تحمل آلة التصوير وتدور بها كأنك تريد منها أن تكشف الأشياء... لا أريد أكثر من عينين زائغتين تريان مالاتراه العيون المستقيمة؛ ولاأكثر من قدمين تقودان باتجاه الأماكن الزائغة...

ليلة الطوفان والكشف

تعبت معدتي وجهازي العصبي من البيرة والويسكي.. وفي ذات يومٍ من الأشهر الأولى دعيت إلى خمارة تقليدية. أو هكذا قيل لي... إنها خمارة تقليدية: بهو كبير في الطابق الأول من بناء ليس جديداً، وفي حارة من حارات طوكيو القديمة. يجلس الزبائن على الأرض المفروشة بالحُصَرِ اليابانية التقليدية (تاتامي) وأمامهم طاولات خفيضة. الخدم والخادمات بلباس ياباني تقليدي. كلُّ شيء فيها يذكر بماضٍ ياباني. سوف أعرف فيما بعد أن هذا النوع من الخمارات غالٍ لأنها تحافظ على التقاليد وتقدِّم فيها الخمور والأطعمة حسب الأصول اليابانية. وأوّل مالفت انتباهي كثرة الساقيات.. فتيات كأزهار الكرز يرحن ويجئن بأكواز الساكي، أكواز الخمر الياباني الشهير، الذي سوف أعاقره لسنواتٍ يومياً ودون انقطاع... تقترب منك، تركع على ركبتيها والبطحة

الفخارية المليئة بالخمر الساخن بين يديها... تشير إليك أن أرفع فنجانك الصغير لتصبَّ لك... هي تصب الخمر وأنا أحدق في حركات يديها وعينيها.. أساقية تصبُّ لك الخمر!! اشرب إذاً، وليكن اليوم يوم معراجك إلى أي مكان مجهول.. أساقية في مكان أستطيع الوصول إليه عندما أريد!! إذاً، حضّر سفنك يا نوح، فلسوف أجعل من هذا اليوم يوم طوفان حقيقي، عجّل يا نوح عجّل. وإلّا فإن الطوفان سوف يبتلع ذريتك وذرية أجدادك... آه يانوح لو كنت معي ذلك اليوم!! وجيئ بطبقٍ من الأسماك المتنوعة، بعضها جاهز للأكل، والبعض الآخر يحضِّره الزبون بنفسه فوق غاز صغير وضع على الطاولة خصيصاً للأمر.. وجيء بأطباق أخرى، جميعها من البحر. وامتلأت الطاولة بالأطعمة البحرية التي لاعهد لي بها أبداً، والتي سوف تروق لي كثيراً.. تناسب الخمور اليابانية جيداً... قليلة الدّسم... مريحة للمعدة وللأعصاب، سريعة الهضم. سوف أعرف فيما بعد أن الطعام الياباني خلق أصلاً لتناوله مع الخمور. مهما كان الأكل غريباً أو عجيباً، تخفف الخمور من غرابته ومن عجبه فيصير قريباً وصديقاً... واكتظت الخمارة بالزبائن، وازدادت حركة الساقيات، وصار الجو مليئاً ببخار الساكي... وأشربُ أشربُ، لا أرتوي. لأول مرّة أشرب خمراً ساخناً... البطحة الأولى، الثانية، الثالثة، ولم أشعر بأي نشوة. مالهذا الخمر لايصل إلى الرأس. كنت أبحث عن السكر بأي شكل، كنت اريد الانفلات من مجاملات الطاولة ومن الحديث الجدي.. أحديثٌ جديّ مع الخمور؟ وصرتُ أعبُّ بصمت. لم أعد أنتظر وصول الساقية كي تصب لي، ولم أعدْ أنتظر صديقي كي يصب.. آخذ البطحة وأملأ الفنجان ثم أرتشفه دفعة واحدة. كان الأصدقاء ينظرون إليّ بدهشة: يبدو أنه خبير ويعرف مايشرب. الساكي خمرة خفيفة، تشرب ساخنة، وتشرب باردة، وهي درجات... ويبدو أن ساكي تلك الليلة كانت من النوع الجيّد جداً.. تأخذ طريقها إلى الرأس بصمت وهدوء. لاتحب الضجيج وهي تسري بين المفاصل والعروق... عندما حاولت النهوض شعرت بها. كان جسمي قد تحوّل إلى كوزٍ مليء بالساكي، وإلى بطحاتٍ مكدّسة. وصلت إلى المرحاض وأنا أتمايل فوق قدميّ مثل قضيب

خيزران تلوكه الرّيح ولايقع. وفي المرآة تعرّفت على وجهي، ورأيت ذلك الذئب، وسمعت عواءه قادماً إليّ من أقاصي الدنيا... إيه أيها الذئب... يا صديقي... أين أبعدتك الأيام عني... أرجوك لاتنمْ اللّيلة ولاتغب ولا لا... فإخوانك ينتظرون في كلِّ مكان من هذه المدينة السكرانة على أطراف المحيط... عدت إلى مكاني بعزيمة أقوى وهمة أشد. ورحت أشرب لا ألوي على شيء. عيناي تطاردان السّاقيات بلباسهن الذي لايكوّر إلّا المؤخرة.. أية متعة أن يلاحق نظرك المفلوش من الخمر ساقية لاتكف عن الابتسام، وأية متعة أن تصب لك الخمر امرأة لاتعرفها في مكان ناء وغريب لاتعرفه أيضاً. المرأة والكأس في الغربة وطن بلا نهاية، وطن حتى العظام.

موسيقى شرقية خفيفة جداً، أبخرة الساكي تعج بالمكان، ونساء يرحن ذات اليمين وذات الشمال كأنّ الخمر فوق رؤوسهن، وكنت الأجنبي الوحيد في المكان... أي حلم هذا، أية متاهة... لاثكنة بعد اليوم، ولانظام بعد اللّيلة.

اليابان، هذا الحوت الثمل، وهذا المدى المجنون.

واقترح الأصدقاء أن نغير المكان... سوف أفهم فيما بعد أن العادة هي الانتقال من خمارة إلى أخرى إلى أن يقترب وقت القطار الأخير. هكذا يتساقط السكارى بين الخمارة والخمارة كما تتساقط طيوب التين. والقبضاي من يصمد... كان بيننا صديق يبدو أنه ثمل جيداً ويريد أن يشرب أكثر، فلم يجد سبيلاً إلى ذلك إلّا التحدي... تحداني إن كنت أستطيع شرب الكونياك بعد كميات الساكي التي تجرعتها طوال الساعات السابقة... في الواقع، لم أكن معتاداً على تغيير نوعية ما أشرب ... أبدأ بالويسكي وأنتهي بها ، أبدأ بالعرق وأنتهي به. هكذا. ولأن ذئب الخمور صدق في ما عاهدني عليه تلك اللّيلة، فلم ينمْ ولم يغب، وافقت على المشروع وقبلت التحدي... لست قوياً في الشراب إلى حد مثالي، لكنني أستطيع الصمود إذا لزم الأمر واقتضت الظروف.... لا أسكر... أنتشي نشوة كبيرة، لكن لا أغيب أبداً...وشربنا حتى سقط الصديق ولم يعد يعي ما يقول... أخذني من يدي ورحنا نرقص في الشّارع ونركض ونصرخ مثل جميع السكارى... في تلك الليلة أذكر أننا مررنا

بالقرب من عاهرة في الحي، ودلّني عليها صديقي السكران: أتدري ماذا تعمل هذه... وانفجر بالضحك والقهقهة.. إنها عاهرة. وهنّ كثيرات في هذا الحي. لكن نسيتُ أن أسأله كيف الوصول إليهن.. فهن لايقفن على أرصفة الشوارع كما هي العادة في باريس، بل لهن أوكارهن الخاصة. وهذه العاهرة ليست أكثر من نقطة علّام. ولايتعاملن مع الأجنبي إلّا نادراً وإلّا بصحبة ياباني... كان صديقي هذا يسكن الحي... وكان عليّ أن أعود إلى «الثكنة» مخموراً في ساعة مماثلة.

تعلمتها. لم يعد الأمر صعباً. لاويسكي بعد تلك الليلة إذاً. بدءاً منها صار خمر الساكي أليفاً.. ساكي ساخن ولاشيء آخر.. جرّبه يوماً تشربه دوماً... لم تعد هناك مشكلة في الحركة وحيداً... ادخلْ إلى الخمارة وانظرْ ماذا يشرب إخوانك ويأكلون واطلب مثلهم.. بالإشارة قل: هذا وهذا وهذا... الخ. لايوجد حلٌّ آخر، إذا رغبت أن تتحرر من مراقبة الأصدقاء.. لاتعرف اللغة اليابانية!! لامشكلة في الأمر.. فالإشارات لغة أفصح وطريقها أقصر والياباني على فهمها أقدر.. هكذا فعلت طوال الفترة الأولى، إلى أن بدأتُ أعرف أسماء الوجبات وأسماء أنواع الساكي.

لم أكن أعرف أن عدد الخمارات في اليابان، أو في طوكيو وحدها، أكثر من عدد المساجد في العالم الإسلامي كلّه.. وأكثر من عدد الكنائس..

اليابان، هذه الخمارة المترامية الأطراف...

ألهذا دلالة ما؟! أينبغي فهمه هكذا: بالقرب من الثكنات العسكرية تكثر المواخير والخمارات...

اليابان هذه الخمارة العسكرية...

لايهمّ، عدة سنوات وتمضي، فالخمر سيف يقطع الوقت جيداً. أعرف هذا منذ أيام الخدمة الإلزامية في حلب.. لاعدو للوقت إلّا الخمور، ولا صديق للغريب إلّا الخمور. الخمور تنعش وتدمر، تُوجد وتلغي، وفي الخمارات أصدقاء أكثر مما في الكتب والمكتبات... من الكتب يجيء الأعداء ومن المكتبات المصائب.

كنت أعمل وراء مكتبي حتى ثمالة الإرهاق. أترجم. أكتب القصائد. أحضِّر المواد التي يجب إرسالها إلى جريدة «الحياة». وشيئاً فشيئاً صار عملي يخفُّ. خفَّت الكتابة وخفّت القراءة... ربّما فقط لأن أصدقاء المهنة قد خفوا وانعدموا تماماً في اليابان. هكذا صرت أبحث عن أصدقاء داخل الخمارات. فالذئب عوى، ولابدَّ أن أستجيب له، فهو من سلالةٍ تريد قطيعها على الدوام.

الخمارة في اليابان مطعم + مشرب، أو مشرب + مطعم. وما إن تطأ الأقدام عتبة الخمارة حتى تتعالى أصوات الترحيب: «إيراشّي، إيراشّي»، أهلاً وسهلاً، عبارة يطلقها أوّل مَنْ يراك من العاملين، ثم يرددها العاملون الآخرون بآليةٍ وبصوت مرتفع دون أن يشاهدوك. ثم تقاد إلى مكانٍ يُختار لك، إذا كانت الخمارة مليئة، وفي غالب الأحيان هي كذلك.. حتى الخمارات مزدحمة... لابأس، الإزدحام هنا عائلة أليفة. في البداية أزعجتني عبارة الترحيب تلك... وكنت أخجل: أو كنت أخاف أن يُفْضَح وصولي وأنا الذي يحب الوصول خفيةً وبهدوء... ألستُ قادماً من أجل شرب الخمور... إذاً فليكن ذلك بصمت. «إيراشّي، إيراشّي»، عبارة ترحيب تقال حتى أثناء دخول ضيف إلى منزلك، وتقال بكثرة لدى دخول أي مخزن، أي دكان، أي محل للبيع، تقال سواء اشتريت أو لم تشترِ. وهي من أوّل مايحفظه الأجنبي في اللغة اليابانية. الخمارات من الدّاخل تكاد تكون متشابهة: قسمان، قسم على الطريقة الغربية، طاولات وكراسٍ؛ وقسم على الطريقة الشرقية، طاولات خفيضة والجلوس على أرضية مفروشة بالحُصر السميكة المصنوعة من القش (تاتامي)... وهناك في الغالب كونتوار تكون محلاته لزبائن من نوعيتي، جاؤوا لوحدهم ولاصديق ولارفيق.. إمّا غرباء عن الحي، أو عابرو سبيل، أو عشّاق وحدة مع الكاس.. والخمارات الراقية، هي الخمارات التقليدية حيث لاطاولات ولا كراس. وحده البهو الكبير مقسَّم على الطريقة اليابانية إلى مقصورات تفصل بينها جدران ورقية متحركة. وفي كلِّ مقصورة طاولة خفيضة أو أكثر تحيط بها مجموعة من الطراريح الأنيقة.

ما يشدُّ النظر داخل الخمارات كثرةُ النساء: ساقيات وشاربات.

الساقيات، أفهمهن... أمّا الشّاربات ومن جميع الأعمار فحدِّث ولاحرج.. لافرق هنا بين رجل وامرأة.. وفي غالب الأحيان اليابانية أقوى من الياباني في تعاطي الخمور من جميع الدرجات.. هي تشرب وهو يسكر... لن أرى امرأة تشرب وتحب أن تشرب مثل اليابانية. خُلقت للكاس. والأمر ليس جديداً، فهذا تقليد قديم له حكايات وحكايات قد لايكون محلها هنا.. إذاً، إلى الخمارات يا ذئب الخمور ولاتنمْ صاحياً ليلة واحدة، وقل لنوح إنك تريد الحياة داخل الطوفان، فلينجُ وذريته إلى حيث لاشيء غير الجفاف... إلى هناك يا أيها الذئب واغسل الحنجرة بكلِّ أنواع الساكي، اغسلها من ماضيها المليء بعرق التين الوطني... نساءٌ تسقي نساءً ولارجال ولاثكنة بعد اليوم ولانظام بعد الليلة.. العدالة كلُّ العدالة هناك، في الداخل حيث نساءٌ تروي نساءً ولارجال.. في الخمارات الراقية، الساقياتُ يابانياتٌ حصراً لعلو مقام الزبائن وانتفاخ جيوبهم... هناك عليهن ارتداء «الكيمونو»... أما في خمارات الذئاب مثلي فهن خليط: اليابان، ماليزيا، الصين، تايلاند، وفي الغالب طالبات جامعيات يعملن بعد انتهاء المحاضرات. ولهذا كنت أُخْدَم جيداً حالما تعرف واحدتهن أنني أستاذ جامعي.. وسرعان ما كنت أقدِّم نفسي عندما فهمت الأمور. أحياناً هناك ساقيات محترفات، متزوجات ولهن عائلة وأولاد... ويعملن في السقاية دون حرج أو خجل: السقاية عمل كغيره، وتجيده المرأة أكثر من الغلمان.. خلقت المرأة لترطيب الجفاف، والخمرة لترطيب الحنجرة.. تباً لخمارة لاتستخدم امرأة جميلة للسقاية، تباً لها ولصاحبها وألف تبّ.

أن تشرب اليابانية إلى منتصف اللّيل وتعود وحدها سكرانة إلى بيتها، فذلك أمر عادي.. لن يزعجها أحد في الطريق، إلّا ماندر... سكرانات يترنحن وحدهن على طرفي الشارع مثل قوافٍ في قصيدة موروبة الكلام والوزن... أية متعة أن ترى بعينيك أيها الذئب هذا المشهد الآمن الجميل... إذاً إلى الخمارات يا ذئب الكؤوس وحتى الفجر، فلا مؤذن في هذي البلاد يذكِّرك بإلهٍ أو صلاة أو عقاب.. وعبَّ حتى تجحظ عيناك فلا تشاهد عسكراً أو ثكنات... إذاً لاحرية إلّا في اللّيل فوق تراب الأرخبيل الياباني العظيم... في اللّيل كلُّ شيء

يسكر، ومن عنده موّال فليغنه كما يريد... الظَّلامُ، الظلامُ، لاحريةَ في النّور: لاحرية إلّا في الظلام.. إذاً، هو ذا قانون الأرخبيل أيها الذئب ولابدَّ من الخضوع له.

في النّهار لاتوجد خمارة مفتوحة، ولابدَّ من انتظار السّاعة الخامسة أو الرابعة والنصف بعد الظهر كي تجد خمارة من الخمارات السابقة الذكر مفتوحة. السّاعة الخامسة هو وقت انتهاء الدوام الرّسمي لمن يريد الخروج من عمله باكراً... هو بداية زمن تطبيق قانون الحرية: لاحرية إلّا في الظَّلام.. والويل لمن يشرب في النهار... إذاً هو لايعمل.. والويل لمن لايعمل.. لاعاطل عن العمل... العمل لحد الكآبة ومن المهد إلى اللّحد.. فقط تبدأ الحرية مع هبوط الظَّلام. أفهمتَ أيّها الذئب؟ إياك أن تستيقظ في النّهار قبل السّاعة الخامسة بعد الظهر...

حرمة الكاس وتقاليد الذئاب

كانت بالقرب من بيت الأرواح والأشباح، بيتي، خمارة دجاج مشوي، لاتقدم غيره. والدجاج المشوي في الخمارات يُقدَّم مشوياً على شكل شقف وأحياناً على شكل كباب. يُشكُّ ويشوى بعيدان خشبية، لايتجاوز طول الواحد منها طول قلم الرصاص، وفي كلِّ عود أربع أو خمس قطع. وخمارات الدجاج شعبية في غالب الأحيان، يرتادها الشباب واصحاب الدّخل المحدود. وهي متواجدة في جميع الأحياء، ولاسيما قرب محطات القطار. غالباً ما تكون مزدحمة.. رائحة الشواء تبدأ من الساعة الخامسة تنادي العابرين وسكان الحي، والموظفين العائدين من أعمالهم. تعاملت مع هذا النوع من الخمارات طيلة الأشهر الأولى لسهولة الطلب فيها ولازدحامها الشديد، ففي الازدحام أضيع وأراقبُ دون أن أكون دريئة للأنظار... من تلك الخمارة القريبة كنت أنطلق كلّ يوم. فما إن أحاذيها أو أمرّ جوارها حتى يبدأ الذئب بالتململ والنهوض وتحريك فكيه.. إلى هناك أيها الذئب اللعين.

إلى الخمارات الشعبية هذه قلّما يدخل الأجانب. ولذلك عندما كنت أرتادها، كان واضحاً أنني أجنبي، ولايمكن أن أضيع بينهم كما يضيع الآسيويون الآخرون. فأرتبك أثناء الدخول، لاسيما أنني لاأعرف اللغة اليابانية... وينتهي الإرتباك بعد أن آخذ مكاني على الكونتوار وأبدأ بالفنجان الأول والثاني والثالث... انفجعي بأملك أيتها الغربة، وانفجع بنفسك أيها الإرتباك... ادخلْ أيها الذئب، ادخلْ.. لماذا تحملق في الوجوه، ولماذا تحملق الوجوه في شاربيك... ادخلْ، فبعد الكؤوس الأولى تُطْعَن الغربة في خاصرتيها. ألم أقل لك: الخمر في الغربة وطن، والسكر جواز سفر إلى حيث تشاء، ويجوز للسكران مالايجوز لغيره.. وما إن أجلس حتى يسألني جاري: من أين أنت؟

لا أدري لماذا أخاف هذا السؤال... سؤال لاأطيق سماعه، ولاأعرف الإجابة عليه بدقة... كنت أحار ماذا أقول... أقدِّم نفسي عربياً وأضيف فوراً، بلا تردد: لكن أنا قادم من باريس. ثم أبدأ بسرد حياتي الباريسية وبأنني قضيت هناك عقداً كاملاً من الزّمن... لا أفهم لماذا كنت أقوم بهذه الإضافة السريعة. أهو نوع من الاستقواء لفرض الاحترام... أهو الخوف من ضعف هويتي العربية وحدها.. هل أردت إخفاء هويتي وانتمائي... لاأفهم. لكن من المؤكد أنني عندما وصلت إلى طوكيو، لم أقبضها ولم تملأ عيني.. طوكيو، ماهذه؟ أنا قادم من باريس أم الدنيا. وأنت يا جاري لاتعرف باريس ولم تخرج من أرخبيلك المتخلف هذا... كانت لي قناعة أننا كلّما اتجهنا إلى الشرق أكثر ازداد التخلف... الشرق رديف التخلف في ذهني. وأنا الآن في الشرق الأقصى، إذاً أنا الآن في النقطة القصوى من التخلف. وكانت كلمة غرب رديف التقدم والحضارة، أقصى التقدم والحرية والثقافة... الشرق كان يعني لي الكبت، الديكتاتورية، القيود، وربّما لاتزال آثار هذا التفكير العجيب عالقة في أعماق لاوعيي... لذا كانت «أنا قادم من باريس» تعني أنا قادم من الغرب، من حيث التقدم والحضارة، إليكم هنا في أرخبيلكم المكبوت هذا... صحيح أنا من

الشرق، لكنه الشرق القريب من الغرب ذاك حيث قضيت عقداً من الزمن... أفهمت يا جاري؟ كلٌّ هذا وربما أشياء أخرى لاأعرفها كنت أريد قولها على مايبدو في: أنا قادم من باريس... وشيئاً فشيئاً صرت أكتشف كيف يتبرم الياباني وينزعج من الحديث حول فرنسا وباريس، ويبدأ يهزُّ رأسه ذات اليمين وذات الشمال وكأنه يقول: لاأحب فرنسا ولا الفرنسيين... عرفت فيما بعد أن الياباني يغار من الفرنسي ويحسده على الحرية الداخلية التي يتمتع بها، يحسده ويغار منه لأنه سبقه إلى الحضارة والتقدم، ولأنه تجرأ على قتل ملكه، ممثل الله على الأرض... كما عرفت فيما بعد أيضاً أن الفرنسي يحسد الياباني ويغار منه لأنه برهن على جدارته في التقدم والازدهار، لأنه يقلّد ويأخذ دون خجل من أجل بناء نفسه، لأنه وهو الشرقي استطاع أن يقول للغرب ـ وفرنسا على رأس القائمة ـ: الشرق ليس مرصوداً للتخلف كما في أذهانكم، هاهو الشرق يصير غرباً أكثر من غربكم... عندما فهمت، هذا واكتشفته عدلت عن الإضافة كلّها... إذاً، أنا عربي وكفى.. قد تكون غير قوية من أجل تقديم الذات، لكنها هويتي في آخر المطاف. وإذا لم تكفِ في حالة من الحالات، سوف أستقوي بالماضي العربي، بالعودة إلى حالات الازدهار والحضارة عندنا.. ولن أعمد إلى موال أنا قادم من باريس... وإذا لم تكفِ أنا عربي وشعرت بازدراء الآخر، سوف أحدّثه عن تاريخه الياباني المتخلف، سوف أذكّره بعهود تخلفه ولحظات ضعفه... ثم بدأت أشعر أن: أنا عربي مدعاة للدهشة والاستغراب.. أعربي في اليابان، وفي هذا المكان الياباني جداً؟ أعربي بيننا يشرب مانشرب ويأكل مانأكل؟! لا، لا، أنت لستَ عربياً!! في هذه الحالة كنت ألجأ إلى: أنا قادم من باريس للإيضاح وأخذ العلم.. نعم، أنا عربي، مدعاة للدهشة وليس بالضرورة للإحترام والتقدير.. لايهم، لكن لن أعود إلى تلك الإضافة، ولن أدفع ثمن الغيرة المتبادلة بين الياباني والفرنسي.. فلتكن إذاً أيها الذئب مدعاة للدهشة والاستغراب أينما حللت في أرخبيل الواق الواق، بلد الأساطير والخرافات المورقة.

ـ من أين أنت؟ من أنت؟

ـ أنا عربي

ـ لا، لا، أنت لستَ عربياً!!! أعربي في اليابان وتشرب الخمر؟! لا، لا..

ـ أنا عربي، وفي اليابان، وأشرب الخمر، وأطارد النساء واواوا...

دهشة تثير الأعصاب أحياناً... دهشةٌ تُدْهِشُ.. فوراءها توجد أحاديث كثيرة... منها أن العربي مربوط في بلاده لايسافر، مربوط بالتخلف، بالإنغلاق، مربوط بالتعصب والأصولية، مربوط بالصحراء والبداوة، ومربوط أكثر بالجنس وحبّ النساء. والمستعربون اليابانيون مسؤولون إلى حد كبير عن هذه الصورة.. وحده الأمريكي أو الأوروبي يستطيع الوصول إلى اليابان وإلى هذه الخمارة اليابانية جداً، وحده الأمريكي أو الأوروبي يعرف أن يشرب كما نشرب وأن يأكل كما نأكل... أما أنت العربي تستطيع ذلك؟! لا، لا لستَ عربياً، وإلّا كيف تعرف ذلك... قلّما صادفت يابانياً إلّا وعنده هذه الصورة... إذاً، إلى أي مكان تكون فيه مدعاة للدهشة أيها الذئب... وصرت أتمتع بها.

في البداية لم أكن أعرف سوى تلك الخمارة. وذات يومٍ أثناء العودة من الجامعة قررت أن أفعل كما يفعل غالبية الموظفين اليابانيين... منذ الساعة الخامسة تبدأ الأفواج بالخروج من الشركات... أفواج إلى البيوت، والأفواج الأخرى إلى الخمارات، تغزوها كأسراب الجراد... يُعرِّج الموظف الياباني على خمارة قبل وصوله إلى البيت... أحياناً يُعرج ويبقى، حيث عرّج، حتى ساعة القطار الأخير. إذاً، وحدك اليوم أيها الذئب.. ودوماً وحدك إلى تلك الخمارة.. كانت الجموع قد وصلت وامتلأ المكان بالزبائن... واقفاً ومحصوراً بين حشد منهم، طلبت من النادل زجاجة بيرة، وأشرت بالسّبابة إلى ماأريده من الدجاج المشوي. هكذا هي البداية دوماً... البيرة أولاً. يبدأ الياباني بالبيرة، ثم يتابع بما يحبه من أنواع السّاكي... كان إلى جانبي رجل تجاوز الستين من عمره.. تعلمت كيف أقدّر أعمارهم.. تبادلنا نظرات التعارف وطرقنا الكؤوس: كامباي كايجين ـ سان (بصحتك أيها السّيد الأجنبي) قال لي، كامباي نيهون جين ـ

سان (بصحتك أيها السّيد الياباني) أجبته... أعجبتني هذه الصيغة... السّيد الأجنبي.. ثم أخذ بالحديث.. ويبدو أن البيرة كانت قد وصلت جيداً إلى رأسه. صحيح أن الياباني يشرب ويعبُّ كالبالوعة، لكن لايسكر وإذا سكر، فسكره لايلغيه مهما كان قوياً.. رحت أتظاهر بالإصغاء إليه... تعلمت من أيام حلب أن السكران يريد أن يهذي، يهلوس، يتحدث فقط... لايريد أكثر من أذن تتلقى. كان ضجيج الزبائن شبيهاً بطنين النحل... وكانت تلك الخمارة أشبه بخلية نحلٍ لكثرة من فيها.. الداخل داخل والخارج خارج... فجأة عرض عليَّ الذهاب إلى خمارة أخرى.. لم أتردد كثيراً في الأمر، فالحارة حارتي، وبيت الأشباح ذاك قريب.. سوف أفهم فيما بعد أن مثل هذه الدعوات طبيعية، وسوف أفهم أيضاً أن الأمر حدث لكثير من الأجانب... قد يدعوك الياباني لأنك أجنبي فقط... أحياناً يريد أن يمارس لغته الإنكليزية أو أية لغة أجنبية يعرف أنك تعرفها فيدعوك... وقد تدهش أنت للأمر... لكنه طبيعي ولايدعو للقلق إلاّ إذا كان صاحب الدعوة يثير الشك والارتياب.

اتجهنا إلى خمارة في الطابق الثاني تحت الأرض... لم يكن المكان بعيداً، كان في الطرف الآخر من الشارع ذاته... خمارة تحت الأرض!! لم أعرف هذا من قبل... وفي الطابق الثاني تحتها... سوف أعرف فيما بعد أن هذه الخمارات منتشرة جيداً باليابان وقد فرضها ضيق المساحة وكثافة السكان... وسوف تكون خمارتي الخاصة فيما بعد من هذا النوع... أوكار تدلف إليها ذئاب الخمور من الساعة الخامسة... أي قبر هذا.. أي وكر...وماذا لوحدث زلزال ونحن في الداخل؟! إلى أين المفر....

لم يكن لي عهد بالزلازل. عندما عشت أوّل هزة، انتابني خوف غير طبيعي. كان ذلك في بيت الأشباح حيث روائح البغايا لم تفارقني طيلة ثلاثة أعوام.. اهتزت الطاولة وأنا أكتب... كنت وقتها أترجم نصوصاً لنيتشه.. أهو النص الذي هزني، أم الأرض اهتزت فعلاً... إنّها الأرض... ولابدَّ أن الثور العظيم ينقلها الآن من قرن إلى آخر... حتى الثيران تتعب. اتصلت حينها بنوبواكي، صديقي، وسألته إذا كان قد شعر بالهزة. قال نعم... ثم أخذ يشرح

لي أن الزلازل كثيرة في اليابان وعليّ اعتياد ذلك مثل أي ياباني.. لكن لماذا لم يخبرني بالأمر منذ البداية... لماذا لم يقل شيئاً حول ضرورة الاحتياط في حالة زلزال كبير... قلت لعلّه أخفى ذلك قصداً كي يضمن سفري... ويومها فكرت فعلاً أن أترك اليابان بأسرع مايمكن قبل أن يبتلعني زلزال قوي أو خفيف... وأوّل ماخطر لي هو مشهد التابوت الذي رأيته أثناء وصولي قبل أشهر... ويومها قلت: لهذا رفض أدونيس المجيء... فالزلازل ليست مزحة يا إخوان... وأنا غير مجبر على البقاء فوق أرض لاأعرف متى تهزُّ ردفيها وتقذفني إلى جوفها كأنني جرعة ساكي في فنجان صغير... بعد رعشة الخوف الشديد الأولى، وبعد السماع إلى شرح نوبواكي، صديقي، تمالكت أعصابي وقلت: ولتكن المغامرة إلى النهاية، فأنا لست أفضل من هؤلاء القوم الذين يعيشون مع الزلازل والهزات منذ مئات الأعوام والقرون... وليكن رعب جديد يضاف إلى مافي داخلي من رعب... ثم تصادقنا، الهزات الأرضية وأنا... اعتدت عليها واعتادت عليّ، لكن شعور الخوف منها لايفارقني وأنا في الأرخبيل داخل مداها تماماً.

تبعت صاحبي وهو يهبط الدرج بهدوء... إلى أين يأخذني هذا الرّجل. أخمارة هنا حقاً.. أمبغى. وسرعان ما انجلى الأمر. إنّها خمارة. مكان ضيق ولايتسع لأكثر من عشرة أشخاص. لاأحد يهبط إلى هنا إلّا ذئاب الكؤوس وأولاد المهنة. روادها ليسوا شباباً... يتناولون جرعات الساكي وكأنهم في معبد... طقس من طقوس الشراب يخيم على الجو... ضجيج عادي وشبه صمت. امرأتان تشربان وتتحدثان بهدوء، لكن علائم السكر واضحة عليهما... فالاحمرار يعلو وجيهما ولابدَّ أنه الخمر... اتخذنا، صاحبي وأنا، مكانينا على الكونتوار الصغير ورحنا نعبُّ من تلك الخمور الساخنة... ساكي ساكي، يا صديقي ولاشيء غير الساكي وبعض الأسماك المشوية أو المخللة. فوجئ صاحب الخمارة لرؤيتي على ما يبدو... كان ينظر إليّ باستغراب وأنا أشرب الساكي كما لو أنه الماء... عُبَّ أيها الذئب عُبَّ... فالخمور ذئاب إن لم تعبّها عبّتك، وإن لم تكن أقوى منها ألغتك من الوجود... ياما ألغت رجالاً

ونساءً قبلك... ولينظر إليك صاحب الخمارة كما يشاء، فإنه لابدَّ قد فهم أنك من سلالته، سلالة ذئاب الخمور والخمارات... ولابدَّ أنه يتساءل كيف لهذا الأجنبي أن يشرب بهذه السهولة والحب خمرنا الياباني... لكن لابأس... عبَّ واسكرْ ولاتفكر الآن بالزلازل...

كان شعوري بالخوف من زلزال قد يحدث يدفعني إلى تناول جرعات الساكي بكميات كبيرة... ماذا لو حدث الآن في هذا المكان القصي تحت الأرض... إن جميع الحفّارات وجميع الكلاب الشمّامة لن تصل إلى جثتنا هناك... أجئت إلى اليابان كي أموت بزلزالٍ، أو بهزة أرضية... ثم ماذا ينفع أن يجد جثتي كلب بوليسيٍ أو سِنُّ حفارة؟ لاشيء... والواقع أن شعور الياباني الدائم بالخوف من الزلازل ومن الكوارث الطبيعية التي تضرب أرخبيله باستمرار، يكمن وراء ولعه الشديد بالخمور ويُفسّر الكثير من تصرفاته الغريبة تجاه الآخرين وتجاه نفسه... عُبَّ، إذاً، مثلهم، عبَّ... الموت وأنت سكرانٌ شبهُ غائبٍ شبه ملغي أو شبه ميت، أفضل من الموت وأنت صاحٍ وموجود... ثم جميل أن تهتز الأرض تحتك وأنت سكران... إذا كان الصاحي لايستطيع شيئاً، فماذا يمكن لسكران أن يفعل في وجه زلزال يحوّل هذه العمارة وجميع البنايات الشاهقة المحيطة إلى أطلال لن يقف عليها شاعر ولاحبيبة، لن يقف عليها سوى بعض رجال الشرطة وكلابهم الشمّامة تلك... عبَّ، إذاً، عبَّ وسلِّم أمرك لله... لكن هل يتسلّم الله أمر سكران... ربما.. لا أعتقد أن اللّه يهجر السكران، فهذا عبد من عباده ولايُعقل أن ينساه... واللّه أدرى وأعلم بأمور هذا الأجنبي في جوف هذا الغار السحيق.

اشتدَّ بنا الشراب، واشتد بنا السكر وصاحبي إلى جانبي لم يتوقف لحظة عن الكلام. كنت أصغي إليه تارة، وأجول بنظري على الخمارة ومن فيها تارة أخرى. كان يعرف بعض العبارات الإنكليزية فقط يرددها عندما ينتبه إلى أنه مع أجنبي. يشرب ويتحدث باليابانية وأنا لاأعي شيئاً مما يقول، سوى بعض الكلمات القليلة جداً... ومع ذلك أصغي إليه بجدية وأهزُّ برأسي كمن يفهم كلَّ شيء. صاحب الخمارة والحاضرون جميعاً فهموا أن صاحبي قد سكر،

وأدركوا أن صحبتنا لايتجاوز عمرها ساعات معدودات، ولاحظوا أنني لاأفهم حرفاً مما يقول... أتلقى ولا أرسل... أعبُّ فقط وأعبُّ... إذ سكر الياباني ينسى أية لغة أجنبية يعرفها، وينطلق لسانه بلغته الأم فقط... إذاً اشربْ وحدك أيها الذئب ولاتترك كلمة تفوتك مما يقول... هو ذا مصيرك اللّيلة، وقدرك أن تصغي... ألم تخلق منذ البداية للإصغاء... الستَ مدرّباً عليه منذ الولادة... ويتسع المكان، صارت الخمارة أوسع من الصحراء، وصار جميع الزبائن أصدقاء. إنها الخمرة تمحو الحدود وتلغي المسافات، إنّها اللغة المشتركة بين جميع السكارى، إنّها ماوراء اللغة... معها ينتهي دور الكلام... ليس مهماً أن أفهم مايقول أو أن يفهم ما أقول، المهم أن أصغي إليه ويصغي إليّ..الإصغاء هو لغة السكارى.

اعتدل صاحبي في جلسته والتفت إليّ ليسألني مرّة ثانية بإنكليزية بسيطة:

ـ من أين أنت؟

سألني هذا السؤال للمرة الأولى أثناء لقائنا في خمارة الدجاج تلك منذ عدة ساعات، وأجبته وقتها أنني عربي ومن سوريا. لكن يبدو أنه نسي ما حدث. فعدت إلى جوابي السابق:

ـ عربي من سوريا.

لم يُصدِّق. أصرَّ على أنني أمريكي أو أوروبي. تلكم هي المرّة الأولى لحادثة سوف تقع لي باستمرار... لابأس، لكنني قادم من باريس. فيتنهد ويضيف: الآن فهمت، الآن فهمت. ماذا فهم... لا أعرف. ونتابع قرع الأنخاب... هات ساكي يا صاحبي هات... عربي أو غير عربي، إن هو إلّا ذئب خمور استيقظ الآن ولن يكفّ عن العواء والجري من كاس إلى كاس حتى ترتبك مفاصله.

لم يكن نديمي من النوع الغبي، فهو يعرف جيداً ماذا يفعل... فهمت فيما بعد أن جيله هو الذي خاض ويلات الحرب، وهو الذي شيّد حداثة

اليابان. ولو لم يكن ذا خبرة مع الأجانب، لايدعو اليوم أجنبياً إلى مكان حميم كهذا... وفهمت أيضاً أنه فوق الستين، ومن يبلغ هذا السن في اليابان يحال إلى التقاعد فيقضي جزءاً من وقته في الخمارات يتمتع بالشراب... أيام العمل، لم يكن لديه الوقت لمتعة مماثلة هادئة... وأصحاب الكاس في هذا السن، من الرجال والنساء، يبدأون الشراب باكراً، الساعة الخامسة أو الرابعة والنصف، وينتهون باكراً، الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة... ثم يعودون إلى بيوتهم.

كنت لاأزال أعبُّ فناجين الساكي وأرتشفها كما أرتشف الماء، عندما انتبهت إلى أن رأس صاحبي بدأ يلطم طرف الكونتوار. كان قد توقف عن الكلام وأخذ يسهو أو ينام قليلاً. نظر إليه صاحب الخمارة وناداه باسمه على ما أظن... ربّما قال له: لاتنمْ هنا يا سيد فلان... ثم التفت إلى فتى يعمل معه في المطبخ وهزّ رأسه بامتعاض... لعله قال: هذا الرجل يفعل الشيء نفسه كلَّ مساء... تماماً كما توقعت: اقترب مني وقال بإنكليزية واضحة: كل يوم نفس الشيء... يشرب حتى يسكر ثم يبدأ النّوم... لم أعرف بماذا أجيب... ابتسمت ولطمت صاحبي بشكل خفيف لعله ينتبه أو يفيق... كان نائماً بالفعل... هل أتركه وأمشي... أدفع الحساب وأخرج... لكن لا... هذه حارتي وقد أصادفه مرة أخرى.. ويبدو أنه زبون مداوم على هذه الخمارات حيث سوف آتي مراراً... فهمت فيما بعد أن نوعية هذا النديم متوافرة داخل الخمارات وخلال هذه الفترة دوماً، من الساعة الرابعة حتى التاسعة... فالكبار في السّن خبراء بالنوم على أطراف الطاولات وكؤوسهم إلى جانبهم بانتظار جرعة أخرى... حتى نوبواكي، صديقي، سوف يفعلها معي مرة أو مرتين، مع أنه لم يكن إلّا فوق الخمسين بقليل... يغمض واحدهم عينيه قليلاً.. ربما يغفو، ربما يسهو، لكن ربما ينام أيضاً... ثم يفتحهما بعد فترة ويستيقظ كي يتابع المشوار.. تقنية في الشراب لاتناسبك يا ذئب الخمور. فأنت لاتزال فتى بين الذئاب، وعليك أن ترى وتشاهد كلَّ شيء، عليك أن تتعلم من هؤلاء الذئاب فنون السكر والشراب.

أيقظت صاحبي وأشرت إلى السّاعة... حان الوقت يا صديقي... رفع رأسه ثم تثاءب وتمطمط وحدّق في كأسه... كانت لاتزال شبه مليئة... أمسك بها كمن يمسك بقبعته ويهم بالخروج.. وكرعها دفعة واحدة إلى داخل فمه.. حينها لم أستطع إلّا أن أتمتم بصوت خافت: «أخو الشرموطة!! من أين لك هذه القوة؟»... كان قد شرب أكثر مني بكثير، ونوعاً آخر من الساكي نسوف يكون رديفاً جديداً لخمرتي الساخنة المفضلة.... لقد شرْب الــ: نيهون ـ شو... نوع آخر من الخمر الياباني.. ولهذا الخمر رائحة لم أحبها في البداية، لكنها سرعان ماتصبح أليفة بعد الجرعة الأولى.. اعتقدت أنه سكران تماماً ولابدَّ أن أدفع الحساب، لكنه رفض وبإصرار حتى أن أشارك.. في هذا الموضوع، الياباني أوضح من شمس الظهيرة، عندما يدعو، يتحمل مطالب الدعوة إلى النهاية... أية دعوة كانت.. ودعوة صديقي لم تكن فخاً كما ظننت للوهلة الأولى.. وفي الأمور المادية، لاينسى الياباني ولايتناسى قوانين السلوك التجاري.. كلّ شيء بثمن.. دفع الحساب واتجهنا صوب الدرج المؤدي إلى سطح الأرض.. ما إن رفع قدمه نحو الدرجة الأولى حتى شعرت بأنه يحتاج إلى مساعدةٍ وإلى عكاز... اتكأ عليَّ قليلاً وحاول الصعود، غير أن الاتكاء وحده لم يكفِ... كان عاجزاً عن الصعود، وكان لابدَّ من حمله كمن يحمل جريحاً في معركة... كان جثة حية مليئة بالخمور.. ولا أعرف كيف صعدنا ووصلنا وجه الأرض... ولو لم أعد إلى تلك الخمارة مرات ومرات وصرت زبوناً مداوماً، لأقسمت الآن أنني كنت في قبر انشق وخرجت منه، أو أنني كنت في حلم انكسر وخرجت منه مثل صوصٍ...

لم يكن الوقت متأخراً... كانت الساعة تقارب العاشرة، وكان رذاذ المطر مثل وشاح يلفُّ كلّ شيء بصمت وهدوء... أيقظتنا برودة الجو قليلاً... وانتبهت فجأة إلى ثمالتي الواضحة جيداً. فكرت بالعودة إلى البيت، لكن صاحبي كان قد جلس على الأرض وأخذ بالهذيان وكنت إلى جانبه مثل نبتة غريبة.. أجنبي مع ياباني وكلاهما مثل خرقة مبللة بالخمور... المحطة قريبة ومحيطها يعج بالنّاس.. وكان منظرنا مدعاة للدهشة... ماذا يفعل هذا الأجنبي

مع هذا الياباني «العجوز»، هكذا قالت امرأة بعينيها وهي تمرُّ إلى جانبنا، هل يسرقه، هل يقتله، هل بينهما مشكلة... هكذا قالت جميع العيون... المشهد ليس عادياً.. ارتبكتُ.. شعرتُ بالخجل من كوني أجنبياً... كانت المشاهد المماثلةُ كثيرة جداً، غير أنها بين يابانيين حصراً... لم يكن فيها هذا النتوء الذي كنته مع صاحبي... تمنيت وقتها أن يتحول وجهي، بقدرة قادر، إلى وجه ياباني أو صيني أو كوري... وقتها أيضاً ـ وفي أوقات أخرى لاحقة وكثيرة ـ اكتشفتُ كم أنا أجنبي ومن العرق الأبيض... والحادثة نفسها سوف تتكرر لي مع مستعرب يدرِّس في جامعة خارج طوكيو.. جاء إلى العاصمة بشغل خاص. يومها دعاه نوبواكي، صديقي، إلى بيته ودعاني أيضاً. بعد معركة حامية الوطيس من الشراب والشراب، خرجنا من عند الصديق، وقد عفَّى الزمان على وعينا ومضى، لكن كنت يومها أشد تماسكاً بكثير من الآخر... سقط على الأرض مراتٍ عديدةً ورفعته، وظللت أرفعه إلى أن أركبته القطار، يومها كادت عيون المارة تلغيني من الوجود... يومها عاودني الشعور ذاته: كم أنا أجنبي ومن العرق الأبيض.

تأبطتُ ذراع صاحبي وصرت له عكازاً... الخمرة تجر أقدامنا والله يقود خطانا. واتجهنا صوب المحطة. بعد عدة أمتار من السير تركني وراح يمشي وحده... لابدَّ أنه استغرب وجوده معي وسط الشارع واستيقظ لما هو فيه... تبعته خوف أن يسقط أو يضيع فلا يصل إلى القطار. ليس جميلاً أن أتركه وحده في حالة مماثلة وآخذ طريق بيتي.. وفجأة يدخل إلى مطعم وجبات سريعة (ماكدونالد) كنا نمرُّ أمامه ثم أخذ بالبصاق والشتائم.. كيف لماذا فعل هذا.. لم أفهم. لاأفهم كلمة مما يقول... لكنَّ صوته كان عالياً والمطعم كان مليئاً بالشباب والشابات من طلاب المدارس الإعدادية والثانوية. والغريب أن أحداً من هؤلاء لم يعره انتباهاً... كأن المشهد عادي أو جزء من صخب المطعم والمكان... وقفت على الباب أراقب مايحدث.. قدم شاب مفتول العضلات جدي الملامح يلبس قبعة مستطيلة عليها شعار المحل العالمي مثل بقية قبعات الموظفين الآخرين. اقترب من صديقي وأشار إلى باب الخروج. لكن صاحبي

تابع خطبته ورذاذ البصاق يخرج من فمه.. سهوت عن المشهد لحظة لأراه بعدها مطروحاً على الأرض يحاول النهوض ولايستطيع. الشاب يقف فوقه حائراً ماذا يفعل.. ربما دفشه دون أن يعرف أنه أمام رجل مخمورٍ إلى أذنيه.. جِرْتُ وقتها.. يبدو أن عراكاً سيبدأ، فماذا عليَّ أن أفعل.. لاأستطيع ترك هذا الرجل الذي أكرمني لتوه بين يدي هذا القبضاي الذي قد يفعل به مايريد قبل أن يتدخل أحد.. لكنني الآخر سكران تماماً ولا أستطيع مواجهة هذا الشاب المفتول العضلات.. ثم إنني أجنبي... ماذا سيقول الآخرون: أجنبي بين يابانيين!! ماذا يريد؟ وفي النهاية لا أفهم ماحدث ومايحدث... إذاً من الأفضل أن أعود تاركاً صاحبي لمصيره. فهو ياباني ويعرف الخروج مما هو فيه ـ ... وفيما أنا حائرٌ أفكر هكذا، أخذتني نخوة السكارى واستولت عليّ غريزة الجاهلية «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»... هو ذا أنت أيها الذئب كما عهدتك دائماً.. إيه أيها الذئب، استيقظ الآن ولاتنمْ عن أخٍ من قبيلة السكارى قد يعضه أرعن لايزال صاحياً... ألا مزّق جلدك الآن أيها الذئب واخرج إليه عارياً بأنيابك كلّها... لابدَّ أن ترعى حرمة الكاس وتجري إليه كما جرت في عروقك خمرته... لكن هذا الشاب القبضاي قد يخبطنا نحن الاثنين إلى مالانهاية، وقد لايتدخل أحد... خبرتي في العراك لاتتجاوز الأمور الأولية: هجوم غريزي ودفاع غريزي أيضاً.. أما هو فقد يكون مدرّباً فلا أحتاج لأكثر من قذيفة واحدة... مالك أيها الذئب!! أنسيت صوتك كيف كان يشق عباب اللّيل والنّهار... أنسيت ذاك العواء... أنسيت كيف كان يُنْزِل التفاح عن أمه... إذاً، إلى الصوت بوتيرته العالية.

كنت في الواقع قد تعلّمت بعض الكلمات البذيئة وجملاً متفرقة ومفردات لايعني نطقها أنني أعرف اليابانية... وكانت هناك كلمة واحدة، أو عبارة واحدة، أجيد استخدامها دون أي خطأ تقريباً.. وهي من الكلمات الأولى التي يتعلمها الأجنبي بسرعة لكثرة مايستخدمها اليابانيون في جميع المناسبات... إنها عبارة: «باكا ـ يارو»... يا أبله، أو يا أحمق. تُستخدم أحياناً، وربما غالباً، للتعبير عن صداقة ما بين صديقين، وتستخدم أثناء الشجار للتعبير

عن انزعاج واضح. ويحتاج استخدامها في هذه الحالة إلى خبرة... ذلك الصوت لاأعرف من أين خرج وكيف.. اقتربت من الشاب وأطلقت صاروخي الصوتي: باكا ـ يارو.. خرجت من فمي وكأنني واحد من الياكوزا.. أو كأنني رئيس جماعة منهم... كان المطعم مليئاً وانتبه الجميع هذه المرّة. فالقضية أصبحت أكثر امتاعاً، ولم تعد بين ياباني وياباني آخر... هناك نتوء غريب.. هناك أجنبي في الدّاخل. أن يتدخل أجنبي بين يابانيين، ينصر واحداً ضد آخر، فذلك يعني أنه فهم ويفهم ماحدث. ولكن، أنا، لست أمريكا لأمنع اعتداء ياباني على ياباني آخر، كما حدث في التاريخ. فقبل تطبيق الديمقراطية الأمريكية بالقوة، كان الياباني يقرط الياباني بلا تردد ودون رحمة... بعد الحرب الكونية الثانية فقط عادت للياباني كرامته التي سلبه إياها ياباني آخر... وأنت كأجنبي، ينبغي أن تظل على السطح كي تظل محبوباً، وإلّا فسوف تكره وتُعزل... وإذا عرفت اللغة اليابانية، عليك ألا تتعمق بها، وإلّا سوف تثير غيرة اليابانيين ضدك. فالياباني عنده عقدة أن لاأحد يعرف لغته إلّا هو... وها أنا أخرق هذا وأصرخ بالمعتدي: باكا ـ يارو... لكنه ليس معتدياً، والحق كلّ الحق على صاحبي... وفوجئ الشّاب بهذا التدخل السريع من قبل أجنبي واضح أنه ليس صينياً أو كورياً أو آسيوياً، إنه أجنبي أبيض لايعرف قيم وعادات المجتمع الياباني... سوف أفهم فيما بعد من خلال الخبرة اليومية ومن خلال مطالعاتي لبعض الكتاب اليابانيين إبّان انفتاح اليابان على العالم الخارجي ـ أن لدى الياباني عقدة نقص من شكله الآسيوي... وسوف أفهم فيما بعد أنه قلّما يتدخل أحد بين اثنين يتعاركان في وسط الشارع أو في مطعم أو في مقهى، ويبقى العراك مستمراً إلى أن يصل النبأ إلى أقرب مركز للشرطة... فالأمر لايعني أحداً إلّا الشرطة. ولدى سماعه هذه الصرخة المدوزنة، تراجع إلى الوراء ثم اختفى داخل المطعم... وأنتَ، انهض أنت يا صديقي وخذ طريق العودة إلى وكرك كأي ذئب عجوز... وفيما رحت أساعده على النهوض لأقوده باتجاه الباب دخل شرطيان... يبدو أن الشّاب اتصل بمركز شرطة قريب جداً. وما إن شاهدهما صاحبي حتى استقام كالعود وراح ينحني لهما معتذراً... لم أفهم

شيئاً، انحنيت مثله أمامهما وهما يضحكان... يومها أركبتُ صديقي سيارة أجرة وصرخت به: كس أختك باكا ـ يارو... وفهمت فيما بعد أن الياباني يخاف من الشرطة خوفاً لاحدود له.. لكن مَنْ لايخاف مِنْ هذا الرعب الذي يوقظ السكران.

بين الشوارب والحجاب

يستغرب الياباني إذا شاهد أجنبياً في مكان أليف وحميم. يعتبره حكراً على اليابانيين. ويستغرب أكثر إذا رآه يأكل الطعام الياباني بشهية ويشرب الخمر الياباني بشهية... فكيف إذا كان ذاك الأجنبي، إضافة إلى هذا، عربياً!! تزداد الدّهشة عندها والاستغراب ولايكاد يصدق... هل يستطيع الأجنبي الإرتقاء بفعله اليومي إلى مستوى العبادة، إلى مستوى الدّين الحقيقي... هذا ما يدور في ذهن أولاد الأرخبيل. فهم يقدسون أفعالهم اليومية، يمارسونها.... على أنها دين، وطقوس دينية. أستخدم هذه الألفاظ بمعناها الحقيقي لاالمجازي... كلّ شيء في ذهن الياباني قابل للعبادة... كلّ شيء في اليابان.. فنحن في بلاد الشمس المشرقة. هذا بالتحديد ما سوف يقوله لي شاعر ياباني أجريت معه حواراً: اليابانيون يجعلون من كلّ شيء إلهاً (راجع كتابنا: «سفينة الموت. ديوان الشعر الياباني الحديث. حوارات وقصائد. ط١ ـ دار المواقف ١٩٩٣). قد يختفي الدين، كما نفهمه عندنا، من الحياة اليابانية لكنه يتجلى على شكل ممارسات لاتشبه سوى الممارسات الدينية... ممارسة النظام دين.. طريقة الأكل دين... طريقة تقديم الأكل دين... هناك قواعد تتحكم بالفعل اليومي منذ آلاف السنين لم تتغير. لقد أخذت صبغة تقديسية. الويل لمن يخالفها أو يجهل تطبيقها حتى وإن كان ذئباً من ذئاب الخمر مثلي... هذا الطابع الديني المقدس يلفُّ الحياة اليابانية من جميع جهاتها، ولابدَّ أنه يعود إلى مراحل التخلف السابقة، وطوّع الآن لخدمة الإنفتاح الياباني الجديد: عبادة الغرب وأمريكا عبادة دينية، عبادة التقدم، عبادة الحداثة، عبادة السلوك التجاري، عبادة التكنولوجيا، عبادة القوة والأقوياء، عبادة العمل، عبادة النّوم، عبادة الطعام والشراب، كلٌّ

ذلك بطريقة لاتستدعي إلّا عبادة راهب أو شيخ، أو بالأحرى عبادة الإمبراطور. فهذا الأخير لايزال إلهاً بالنسبة إلى غالبية اليابانيين... وإذا كان الياباني ينفي ذلك اليوم، هذا إذا أصرَّ على النفي فلأنه يعرف فن ممارسة الباطنية، أو التقية، بامتياز. اليابانيون شعب باطني على جميع الأصعدة، ومن طبيعة الباطني الغلو. لذا فهم غلاة في كلّ شيء، غلاة إلى درجة العدم... من الطبيعي أن يخجل الياباني أمام أوروبي أو أمريكي أو أمام عربي من القول إنه يعبد إنساناً.. لايقولها، يكتفي بالنفي والابتسام. ولا أفهم لماذا يخجل من هذه العقيدة ولايريد إظهارها والدفاع عنها، فعبادة الإنسان للإنسان قديمة وليست حكراً على اليابانيين. الياباني لايعبد شيئاً لايراه ويلمسه. وفي عبادته للمرئي بعض أسرار انتقاله السريع من التخلف إلى التقدم: فقط تغير الإله، أو تغيرت الآلهة والأرباب... كان يعبد آلهة التخلف فصار يعبد آلهة التقدم بالطرق نفسها وبالعقلية عينها.. ألهذا وجدت نفسك أيها الذئب داخل معبد كبير هو اليابان... ألهذا أردت أن تكون كافراً ملحداً بين ١٢٥ مليون مؤمناً يابانياً، لن يغفروا لك خطاياك إن أخطأت، ولن يغفروا لك صحوك إن صحوتَ... فاسكرْ بكل شيء: بالعمل، بالنظام، بالخضوع.. هو ذا، نعم بالخضوع.. بالخضوع لهذا العواء الداخلي البعيد الذي يروح بك من خمارة إلى أخرى..

تعرّفت على خمارة متخصصة بتقديم طعام وشراب جزيرة أوكيناوا الواقعة جنوب غرب اليابان... تلك الجزيرة التي جرت على أراضيها أعنف معارك الدبابات أثناء الحرب الكونية الثانية بين اليابان والحلفاء... تلك الجزيرة التي عانى سكانها من ويلات الحرب أكثر من جميع اليابانيين: عانوا من احتلال الحلفاء لهم ولايزالون، وعانوا من العسكر اليابانيين أيام الحرب. فهؤلاء لم يكونوا يثقون بهم وكانوا يرون فيهم أعواناً وجواسيساً لجنود الحلفاء. هناك قصص وحكايات حول هذه الموضوعات تقشعر لسماعها الأبدان... جميعها يؤكد على وحشية نادرة مورست على سكان هذه الجزر.. أوكيناوا حكاية طويلة، ومملكة قديمة، تحتاج وحدها إلى كتاب مستقل... وسوف يزورها ذئب الخمور ويسكر في شوارعها مرتين قصيرتين.. إذاً، إلى خمارة أوكيناوية هذه

المرة... أبهذه السرعة أصبحت متخصصاً بالأوكار الحميمة أيها الذئب.. أبهذه السرعة ضجرت من الأماكن المألوفة والمتشابهة فرحت تبحث عن مكان مختلف.. وليكن.. هذه المرة اصطحبت معي يابانية كنت قد اصطدتُها في مقهى وبقينا معاً إلى أن طفشت مني ذات ليلة بعد أن شمّت رائحة واحدة أخرى تحت أثوابي. طفشت ولم تعد بعدها. بحثت عنها كما تبحث الذئاب عن الفرائس ولكن عبثاً... جريتُ بها إلى تلك الخمارة كما تجري الدماء في العروق.. هو ذا المكان يا صديقتي، ادخلي ولاترددي. صحيح أن المكان ضيق، لكن سوف نجد مكانين بالتأكيد.. كانت الخمارة الصغيرة تعجُّ كالعادة بالزبائن، وروائح الطبخ ودخان السجائر وعبق الخمور. كان المعلّم يعرف وجهي جيداً مع أنها كانت المرة الثانية التي أذهب فيها إلى خمارته... لكنني ربما الأجنبي الوحيد الذي زاره بهذه الكثافة.. كنت أذهب إلى هناك كي أتمتع باثنتين متعة خاصة: بالخمر الأوكيناوي القوي (آواموري) الذي تتراوح درجة كحوله من ٥٢ْ إلى ٦٠ْ أو بآذان الخنزير مطبوخةً معدّة بطريقة آسرة... آذان الخنزير... واغفر لنا يا ربنا هذين المنكرين وهاتين المتعتين، إنك الغفور الرحيم.. افتح يا سمسم، افتح أبواب مغارتك... يدخل الذئب هذه المرة ومعه صبيةٌ... لكن لماذا أنتِ خجولة هكذا.. لماذا ينخطف لونك عندما ندخل خمارة أو مطعماً أو مقهى معاً... سوف أفهم فيما بعد أن اليابانية عندما ترافق أجنبياً ينظر إليها كعاهرة.. كامرأة بلا أخلاق باعت شرفها للغرباء. وسوف أفهم أيضاً أن الياباني يغار جداً عندما يشاهدك مع يابانية ولايتردد في إثارة مشكلة لك.... سوف يزعجك بأي شكل... بحركة، بنظرة بكلمة... وعندما يكون الياباني مع امرأة أجنبية، يُنظر إلى هذه كعاهرة أيضاً تبيع نفسها مقابل أي مبلغ زهيد... ألا يكفي أنك أجنبي أبيض، وعربي أيضاً، وتأتي إلى مكان حميم جداً لايقربه إلّا الأولياء، وإلى هذا كله تأتي معك بيابانية.. هكذا لم يبق عندنا ــ نحن أولاد الشمس المشرقة ــ أي سرّ إلّا وهتكت حجابه... تشرب شرابنا، وتأكل طعامنا، ومن يدري، ربما تنكح نساءنا أيضاً.. ألا اخرج من هذه الخمارة المقدسة واذهب إلى مطعم ماكدونالد أمريكي أو أي مطعم أوروبي في أحشاء هذه المدينة التي لوثتها أقدامكم، أنتم الأجانب.

الياباني لايعتدي عليك عدوانية مباشرة... يلفُّها بأقنعته التاريخية قبل أن يصوّبها نحوك لتشعر بها بعد حين... عدوانية صامتة كصمته، لاتأتيك إلّا خفية ومن وراء حجاب... تنزلق إليك انزلاقاً صامتاً... إذا صرخ، يصرخ بصمت... تذكروا «الصرخة الصامتة» و«اعترافات قناع» وأشياء غير هذا... الصمت أرقى أنواع العدوانية... فلِمَ تضج أنت أيها الذئب وتعوي... كأنك لاتصمت أحياناً ولاتعتدي أحياناً... كأن سلالتك من دم وأنت من دم آخر... ألا تريد أن تشرب... إذاً قل لأنثاك هذه أن تطلب الخمور القوية وآذان الخنزير أيها الذئب الخنزير...

ابتسامة خجولة تعلو وجه صديقتي وهي تطلب من السّاقية ماتريد... لابأس فبعد الكأس الثانية سوف ينتهي خجلها وتنفرج أساريرها.. وننتهي من هذا التوتر.. هي التي تأكل شتائم الحاضرين وهي التي يجب ألا تنظر إلى فوق... دوماً إلى تحت وكأنها ترتكب الكبائر إذ ترافق هذا الذئب الأبيض.. وابتدأ رعد الخمور يقصف بي وبالحاضرين... مع خمرة الآواموري نحتاج دوماً إلى ماء... بعد كلِّ جرعة منها لابدَّ من جرعة ماء، وإلّا فإن لهيباً قد يأكل الأحشاء... لاتخلط مع الماء على طريقة العرق ولايوضع فوقها ثلج يخفف من قوتها... تشرب هكذا وحدها ثم يأتي الماء... لابأس، لابأس، هوّني عليك يا صديقتي... فنحن في خمارة مقدّسة لافي ماخور... اشربي وسوف لن تشعري بعدها بالعيون... اشربي، فجميع الرجال يغارون من بعضهم، وجميع الرجال يغارون على نساء بلادهم... المرأة وطن آخر لهم... أنا أيضاً أغار إذا رأيت عربية مع أجنبي... اشربي يا صديقتي اشربي ولسوف تنقشع غيوم الغيرة بعد قليل... فنحن معاشر الرجال ضيقون، ضيقون مثل أعناق الزجاجات الفارغة، ولانتسع إلّا إذا بدأنا الحروب. لانتسع إلّا بالدمار وتطويح الرؤوس... نحن معاشر الرجال نتسع إذا سكرنا ونضيق إذا صحونا... كان وجهها قد صار بفعل البيرة وبخار الخمور مثل الشمس قبيل الغروب.. مورّدٌ وعيناها زائغتان... هاهي تقرع الكاس بالكاس كالجميع.

منذ دخولنا، لم يتوقف جاري عن النظر إلينا بشكل مباشر. يريد فهم ما يدور من حديث... ليست عادة الياباني أن ينظر وأن يرى مباشرة... بطرف العين يعرف مايريد... يشاهد خفية وينظر بالسّر. غير أن جاري الأربعيني الوحيد نسي نفسه. صار يحاول الحديث بأي شكل وأنا أحاول الهرب. كنت أريد أن أشرب بهدوء مَع تلك الصديقة دون أي طرف ثالث.. إلّا الشيطان. لكن للخمارة جوّاً يفرض نفسه... جميع من فيها أصدقاء بعد الجرعات الأولى، ويصبحون أقرباء بعد السكر.. لاأسرار بينهم.. كلُّ شيء يقال علانية، وكلّ سرّ يفشى بلا خوف أو تردد... أنا الآن سرّ بالنسبة إلى جاري... إذاً لابدَّ من إفشاء نفسي. رفعت كأسي والتفت إليه: كامباي.. كامباي. فتحت له الطريق ولم يعد هناك جدار.. السؤال نفسه بالتأكيد.. وكالعادة.. فلا تتأفف أيها الذئب ولاتتذمر... «من أين أنتَ؟» «عربي».. «عربي وتشرب الخمر»... نعم. في ذهن كلِّ ياباني أن العربي مسلم بالضرورة، وإذاً بالضرورة لايشرب خمراً... وإذا شوهد يشربها فهو ليس عربياً وبالتالي ليس مسلماً. ولابدَّ من إلصاق جنسية أخرى به، أو لابدَّ من تفسير للأمر... هكذا سوف ألجأ إلى: «أنا قادم من باريس» أكثر من مرة... حتى بين المستعربين الذين زاروا البلدان العربية لاتزال هذه الصورة الواحدة للعربي.

لايحب الياباني التمرد والخروج على التقاليد، تقاليد القطيع... أنت عربي، يعني أنت مسلم.. والخمرة ممنوعة في الإسلام... إذاً لماذا أنت لاتحترم هذه القاعدة... أي إنسان عجيب أنت. لابدَّ أنك غير طبيعي. ويتذمر منك بشكل جدي... الياباني يعبد التقاليد، ويكره من يخرج عليها. يغار منه ومن قدرته على الخروج... الياباني عاشق كبير للخضوع ولتنفيذ القواعد والأوامر، يعبد روح القطيع وينفر من الفرد والروح الفردية... روح الجماعة جزء من روح الياباني ويضيع إذا كان وحده... يستغرب ويندهش إذا خرقت تقليداً واحداً، فكيف لو عرف أنك تخرق جميع التقاليد... خشيت على نفسي من الإصابة بعدوى تلك الروح، روح الجماعة والقطيع.. في اليابان لم يفارقني شعور أنني

في واحد من البلدان الاشتراكية لشدة ما تتجلى تلك الروح... كلُّ شيء بالتراتب والتسلسل من الأعلى إلى الأدنى ومن المركز إلى الأطراف... اليابان هي البلد الشيوعي الوحيد بالفطرة على جميع الأصعدة... الشيوعية الغنية، شيوعية الثراء لاالفقر.. والفرد سرعان ما يُسحق دون رحمة إذا تجلت روحه وحاول مالاتستسيغه الجماعة.

لم يكتفِ جاري بهذا الجواب. أراد أن يعرف من أين بالضبط. عندما أوضحت له أنني سوري، ازداد عجبه أعتقد أنّ سوريا بلد في أمريكا الجنوبية... وسوف تتكرر لي هذه الحادثة مراراً عديدة. أن لايعرف كثير من اليابانيين أين سوريا، هذه ليست قضية، لكنَّ الجميل أن أعرِّفها بجيرانها: جارة لبنان، جارة تركيا، جارة إسرائيل.. فيهز الياباني رأسه مهمهماً... فهمت، فهمت. يعرف لبنان بسبب أفراد الجيش الأحمر الذين أقاموا هناك، ولأن الإعلام الياباني يتابع الإعلام الغربي في تقديم لبنان قلعة من قلاع الحشيش في العالم ومركزاً من مراكز التهريب؛ يعرف تركيا لأنها كانت حليفة اليابان في الحروب، ولأن الحمامات التركية منتشرة في جميع الأحياء الساخنة... الحمام التركي مبغى على الطريقة اليابانية.. ظاهريا للتدليك والتمسيد. لكن هناك إضافات أخرى تقوم بها نساء مدربات. اعترضت الحكومة التركية على التسمية فأجبرت المحلات على تغيير الإسم ليصبح «حمام صابون». ويعرف إسرائيل، لأنه من لايعرف هذا الزَّبد الطافي عندنا والذي لايشاء أن يزول... هكذا أيّها الذئب تستطيع الآن أن تقدِّم نفسك بأي جلد تريد من المحيط إلى الخليج... وها هو جارك يعرف الآن مَنْ أنتَ: عربي .وتشرب الخمر... أية شجاعة هذه وأيُّ مقدام أنتَ في نظره.. مادمت شجاعاً هكذا، تستحق أن تشرب...

في جميع الخمارات والأمكنة سوف تطرح عليك الأسئلة ذاتها: من أين أنت، وماذا تعمل في اليابان، ثم يأتي سؤال أساسي ومحيِّر: هل تحب اليابان... في البداية كنت أفكّر جدياً بالإجابة. واردُّ: أحب كذا وكذا، لاأحب كذا وكذا، كنت أحاول إعطاء جواب يعبِّر عني... ثم نصحني أحد الأصدقاء بأن لا أفكر كثيراً وبأن أجيب على الفور بـ: نعم... فالياباني لايحب أن يرى

اليابان غير جميلة في عيون الأجانب، ينفر من نقد الأجنبي لليابان. يبدو أن الأجنبي، حسب خبرة مايقارب عشرين سنة في بلاد الإغتراب، ميال حيث هو إلى رؤية المساوئ والعيوب أكثر من رؤية المحاسن والإيجابيات، ميال إلى رؤية مايزعجه... في داخله عدوانية تجاه بلد الضيافة.. ولاأدري سبباً لذلك سوى حماية الذات والدفاع عن الهوية والعدوانية جدار يحمي من الإنصهار والذوبان بالآخر. لذلك يتسلح بها الغريب حيث هو، ويظلُّ مستنفراً على الدوام.

استراح صاحبي لمّا سمع أجوبتي وقرعنا كؤوس الأنخاب. لكنه فضولي ويبدو أن عنده أسئلة أخرى... وهذه الشوارب لماذا... لِمَ يترك العربي شاربيه... ما معنى ذلك. الياباني يحب التفاصيل والأجزاء. وينتقل بسرعة من سؤال مثل من اين أنت إلى سؤال: وهذه الشوارب؟ فهم الأجزاء أسهل عليه من فهم الكليات... لاترى عيناه إلا دقائق الأمور وأصغرها... الشوارب ليست نادرة في اليابان لحد اليوم وعلى الرغم من الحداثة... لكنها عندنا لاتشكل ظاهرة، أما في بلادكم فهي كذلك... جميع الرجال تقريباً لهم شوارب. هذا كلام صحيح، لكن الأمر لايخص العرب وحدهم... وأنا نفسي لاأعرف لماذا عندي شوارب... ها أنت لاتعرف تاريخ الشوارب أيها الذئب الجاهل... يقال إنّها رمز البلوغ وتعبير عن الرجولة.. حسنٌ.. والذين لايربون شواربهم.. هل هم أقل بلوغاً وأقل رجولة.. على أية حال عندما أطلقتها كنت بباريس وكنت أريد مفاجأة صديقة ستأتي للدراسة هناك... وكانت تعرف وتدري أنني بالغ، وأنني رجل من دون شوارب.. لكن قيل لي إنها تناسب الوجوه النحيفة.. كان أوّل إطراء لشاربي من صديقة فرنسية: ياللشاربين الجميلين... ومن حينها لم يلمسهما مقص... يبدو أن صاحبي اقتنع بهذه التساؤلات حول الشوارب. فنحن في خمارة ولانحتاج إلى أحاديث جدية... والحجاب؟! لماذا تضع نساؤكم الحجاب... يا أخي ليس جميعهن... بعضهن فقط. من تريد أن تضعه لاأحد يمنعها ومن لاتريده لا أحد يجبرها... لعلّه رمز بلوغ المرأة أيضاً... لكنني لاأظن ذلك ولاأعتقده... انداحت في مخيلة الذئب سيول من النصوص حول الحجاب... الحياة كلّها حجاب يا صديقي... النوم حجاب، واليقظة حجاب،

والخمرة حجاب، والدين حجاب، والسكر حجاب، والصحو حجاب، والحديث حجاب، والصمت حجاب، والعري حجاب، والكشف حجاب، وجلوسي إلى جوارك حجاب... حجب هي الأشياء ولن ترى غيرها، حجاب كبير هو العالم ولن ندري ماوراءه... أليس وراءه حجاب.. عبَّ يا صديقي، عبَّ وكفَّ عن هذه الأسئلة في مكان مقدّس كهذا... كان ينظر إليَّ وأنا أتكلم والاهتزاز لم يفارق رأسه... هِمْ، هِمْ، نعم، نعم ويصمت. هذا الكلام حول الحجاب المجازي لايفهمه الياباني، لأنه في غاية التجريد. الياباني لايفهم اللغة المجردة، والأشياء المجردة... لكي يفهم يحتاج أن يرى أو يلمس أو يسمع أو يتذوق أو يشمّ... كامباي يا صديقي كامباي.. فهذه الصاحبة تريد العودة إلى بيتها، وأنا الآخر أريد الإلتحاق بثكنتي... إذاً، أنت عسكري أمريكي، ولست عربياً... كلا، كلّا... أنا عربي ابن عربي، لكن حيث أسكن لايفارقني شعور الجنود... أهو طبعي أم طبع الذئاب الداشرة في البراري... لا أعلم.

مقدمة للبحث عنهنّ...

الأمكنة التي نكتشفها لوحدنا بالمصادفة هي التي تظلُّ عالقة على حيطان الذاكرة أو راسبة في أسفلها أكان المكان خمارة أو ماخوراً أو ما شابه... وهبت قدمين خلقتا للسير والتسكع ساعات وساعات دون كلل أو ملل. اعتقدت في البداية أن الابتعاد عن المحطات يقودني إلى أحشاء المدينة حيث الرطوبة والحرارة وكلُّ ما يبتغيه الغريب... أنزل من القطار ثم أتجه إلى هناك... إلى الأحشاء... أمسح الشوارع واحداً تلو الآخر، أغوص في ما ظننته قاع المدينة. كنت أعتقد أن قاع طوكيو مثل قاع غيرها من المدن: المواخير والخمارات هناك في الدّاخل بعيداً عن ضجيج القطارات وعيون النّاس. لكن يا للمدينة المنسبطة دون حدود ودون نهاية. ساعة على الأقدام وأقطع باريس من جهة إلى أخرى، ساعتان وأكون على أطرافها... لكن ها أنا قد مشيت ثلاث ساعات وربّما أكثر ولا أزال كمن يراوح مكانه... إنّها طوكيو التي لا حدود لها. لكن أين شوارع البغايا، شوارع الرغبات المنشورة فوق الأرصفة وعلى الزوايا... أين نقاط البغاء، أين

مراكز العاهرات، أين سرُّ هذه المدينة... المواخير والخمارات أسرار المدن ومفاتيحها. ،

كان بعض الأصدقاء قد أعطاني كتيباً فيه أسماء وعناوين أهم المعابد والمتاحف في طوكيو دون أن يدري أنني أمقت هاتين الكلمتين مقتاً لا حدود له. في معبد أو متحف لا شيء يموت أو يحرك. ما لا يموت لا معنى له... ثم مالي وللماضي... المتحف ماضٍ والمعبد ماضٍ آخر... كلُّ ما هو قابل للأرشفة والتوثيق لا يمكن أن يكون صديقاً. عقد كامل في باريس. لم أزر خلاله متحفاً. لكن لم أنقطع أسبوعاً واحداً عن زيارة المواخير ومشاهدة العاهرات منشورات في الشوارع مثل الفواصل والنقاط داخل نص لم ينشر بعد. باختصار شديد، لستُ من زبائن المتاحف والمعابد ولستُ من زبائن أي مكان سياحي عام. لا أحبّ السياحة ولا أن يقال عني سائح. أريد إرواء هذا الظمأ التاريخي، إرواء هذا الكبت الذي يعود ولا شك إلى مئاتٍ من السنين. فماذا يمكن أن يقدمه معبد أثري أو متحف كلُّ ما فيه شاهد على تاريخ القوة والأقوياء. وأنا لا شيء يرويني غير الهوامش... إلى الهوامش أيها الذئب وإياك إياك والأماكن المعروفة فلا شيء هناك غير المقت... إياك والمتون...

سوف أعرف فيما بعد أن كلّ شيء إلى جوار المحطة، وسوف أعرف أيضاً أن القوانين اليابانية تمنع انتشار بائعات الربيع (هذه واحدة من التسميات اليابانية الممتعة للعاهرات) فوق الأرصفة. وللوصول إليهن لا بدَّ من قوّاد. لذلك سوف لن أصل، لأنني أكره سلالة القوادين وهذه الطريقة في تناول الأمور. لذلك سوف لن أرى عاهرة واحدة ـ على كثرتهن ـ في طوكيو. ولن أستطيع مساومة إحداهن وجهاً لوجه ومعرفة الأسعار. فكلُّ مجموعة منهن تابعة لقواد. لا توجد عاهرة تعمل بشكل مستقل لوحدها: تصطاد الزبون من على الرصيف ويتحدثان بالسعر وبأشياء أخرى قبل الاتجاه إلى السرير... مرة أخرى روح الجماعة والقطيع، فما لك أيها الذئب تعوي وتصيح... أُصِبتَ بالخيبة! وليكن. من قال أن تأتي إلى بلاد الأقبية والقوادين، ألم أقل لك إنه الشرق حيث لا بدَّ من قبيلة أو عشيرة أو قوّاد.

ومذ عرفت هذا، كنت لا أغادر محيط المحطة القريبة من بيتي عندما أريد التسكع بين الخمارات إلى أن يحين وقت الرجوع. جميع المحطات متشابهة. ما يوجد هناك، يوجد هنا. لا فرق يذكر بين محيط محطة ومحيط أخرى. بعيداً عن المحطة لا شيء سوى البيوت السكنية، لا متجر ولا مقهى ولا مطعم إلّا نادراً.

قناديل ورقية حمراء معلقة على أبواب جميع الخمارات. ومّا إن تغيب الشمس حتى تشعل الأضواء، فيبدو كلُّ قنديل مثل الشمس قبيل الغروب. ثم يناديك واحد منها... خمارات صغيرة ضيقة إلى جوار بعضها سوف أكتشف أنها أشباه مواخير تديرها أشباه عاهرات. غرف صغيرة متجاورة، تتسع الواحدة منها لعدد محدود من السكارى. لا مكان للجلوس سوى أماكن الكونتوار. وراء هذا الأخير امرأة أو أكثر. لا يُدلف عادة إلى هذه الأماكن إلّا بعد العربدة في مكان آخر.

عزمت ذات يوم جمعة على العودة صادقاً دون المرور على أية خمارة. في الطريق صادفت زميلاً يابانياً خبيراً بالشراب. ولم أره مرّة إلّا وعلائم السكر على وجهه. حاولت إقناعه بأنني متعب ولا رغبة لدي على الإطلاق. كنت قد شربت معه مرة أو مرتين. وكان يريد رفيق كأس بأي شكل... لكنَّ اليوم يومُ جمعة يا صديقي ولا أشرب في هذا اليوم... نظر إليَّ وكأنه يقول على مَن تريد أن تضحك، أتسخر مني... لا بأس، لكن أريد احترام يوم جمعة واحد كي أحاجج به يوم الحساب. لا فائدة من الحوار مع هذا الرجل البوذي الذي يعرف أنني أشرب وأحب الشراب... طيب، أنا كفيلك يوم القيامة... يا أخي قد لا يقبل الله كفالة بوذي، وبوذي مثلك... لا لا... يقبل، أنت تعال وسوف ترى. لم أجادل طويلاً. ذهبنا إلى خمارة قرب الجامعة وبقينا فيها لحد موعد القطار الأخير... ها أنت قد اشتعلت النيران في داخلك أيها الذئب ولا يطفئها سوى الذهاب إلى آخر اللّيل... فعندما تبدأ لا تستطيع التوقف حتى تؤذن في نواحيك الخمرة وأولادها آذان الفجر أو الغروب.

وصلت إلى محطتي ولا رغبة بالبيت. بل رغبة بمكان آخر. مكان يقدم

قلقاً أو ما يشبه القلق. أسير على رصيفٍ خالٍ إلّا من بعض السكارى. الواحدة بعد منتصف الليل والجو بارد. أغير الرصيف إلى آخر. أترنح كأي سكران في ساعة مماثلة. والآن لا يهمني الدخول إلى أية غرفة من هذه الغرف الضيقة... إنّها القناديل الحمراء تناديك، فادخل... ادخل أيها الذئب... لم أنت خائف ومما... ألا تسمع نداء هذه الخمارة الصغيرة: يا سكران يا ابن الشوارع والحيطان في داخلي خمر وأرداف وسيقان... لم أتردد كثيراً. فتحت الباب السحّاب (غالبية الأشياء في اليابان سحّابة) ودخلت. كان هناك ثلاثة زبائن فقط. وراء الكونتوار فتاتان ممتلئتان على غير العادة.... أهلاً بك وسهلاً ــ إيراشي، إيراشي ــ ... لكن من هذا الأجنبي المخمور في هذه الساّعة. تناولتني العيون بهذا السؤال... لا بأس... كنت قد تعودت على الأمر. ولم يعد يعني شيئاً بالنسبة إلي. بالعكس صار يمتعني بعد أن كان مصدر إزعاج... أعطني بطحة من الساكي ساخنة... ويعرف ماذا يريد أيضاً... قدمت لي السّمراء البطحة وفنجاناً صغيراً سرعان ما رفعتُه كي تصبّ لي... صُبّي يا فتاة صُبّي، فأنا برميل من دون قاع، برميل غريب في بلادكم ولم ألمس امرأة منذ دهور... فهمت وفهم الآخرون أنني من هواة هذا الجو وأنني لست عجيباً إلى هذه الدرجة... أعطني بطحة أخرى وفنجاناً آخر لك... أدعوك إلى هذه السخونة يا صديقتي. يستحيل على امرأة تعمل عملها ولا تكون سكرانة هي أيضاً... كلُّ يوم تشربين، أليس كذلك... نعم، نعم. إذاً كامباي. كأسك وكأس هاللّيل. قلت بالعربية. فدهشت لسماع لغة لم تسمعها من قبل... من أين أنتَ؟ عربي... أهلاً بك... وما اسمك؟ اسمي «محمد»... أهلاً يا محمدو ــ سان. وتخرج من وراء الكونتوار لتأتي وتجلس إلى جانبي رغم ضيق المكان. والأخرى في مكانها تخدم الزبائن الآخرين ــ ثلاثة فقط. في الطريق إليَّ لامس أحد الثلاثة نهديها وردفيها ملامسة خفيفة... وناداها إلى جانبه. لكنها اتجهت صوبي وهي تجيبه انتظر قليلاً... بعض ما يريده الغريب في جو مماثل أن تجلس في حضنه أو إلى جواره امرأة يراها للمرة الأولى... لكن لا... لستُ غريباً. ألم أقل لكم إن الخمرة في الغربة وطن... وأنا السّاعة في وطني وعندي امرأة. ألم أقل لكم إن المرأة أوسع من الرجال. دعوتها إلى فنجان من الخمر الساخن

فجاءت إلى جانبي. كان يمكن أن تشربه وهي وراء الكونتوار. وكان يمكن أن ألامس نهديها وردفيها كما أفعل الآن، وهي وراء الكونتوار. فالمسافة قصيرة جداً والمكان ضيق حقاً. لكنها قطعت المسافة كلّها لتضمن سلامتي وسلامة عودتي من جديد... سكّيرة خبيرة بالسكارى. ظننت أني أستطيع الذهاب إلى آخر المشوار معها في زاوية من المحل أو في بيتي القريب. لكن سرعان ما أفهمتني أن هذا أقصى ما يستطاع وأن لها حبيباً مثل جميع النساء. هكذا هي وليست عاهرة وليست طاهرة. هي بين بين. وصديقتها الأخرى أيضاً بين بين. تريدان زبوناً يشرب، يستهلك ولا مانع أن يلمس نهداً أو ردفاً من حين إلى آخر... ماذا يريد السكارى أكثر... وهل يستطيعون... لا بأس ولا بأس... القليل أفضل من اللا شيء إلى أن تفرج دوماً ودون انقطاع... لا أريد عاهرة من خلال قواد وسيط... عاهرة لا بأس، لكن رأساً لرأس... والمساومة بيني وبينها مباشرة وإلّا فلا... أليس كذلك أيها الذئب العائد إلى وكره مثل جندي مهزوم.

منذ ذلك اليوم تعودت على المكان وعلى الفتاتين... فهمت منهما أن جميع هذه الأماكن خالية من العاهرات ومن الطاهرات... وفهمت أيضاً أن الدعارة باهظة ولا يستطيعها الأجنبي أو عابر السبيل، وحدهم أصحاب الأموال يعرفون الطريق... وفهمت أيضاً أن يابان الروايات والسحر شيء، ويابان الحياة اليومية والواقع شيء آخر... وسوف يبقى الذئب من خمارة إلى أختها كلّما حان وقت فراغ وكلّما تعبت يداه من الكتابة وضجَّ رأسه بالأفكار... سوف لن يستقر على خمارة إلّا بعد حين من الزمان حيث قادته ذات ليلة قدماه الملتويتان إلى خمارة تحت الأرض. ليست بعيدة عن بيته المسكون بالأرواح والأشباح... إذاً إلى هناك إلى خمارة «التنين الطاهر»، إلى ذاك المكان...

خمارة التنين الطاهر

لا أفهم كيف وجدت نفسي في الداخل وكيف وصلت. ما قصدت أن أكون هنا بالذات. كان يمكن أي محل آخر. فأنا لا أختار الأمكنة من خلال

أسمائها أو إشهار أسعارها. كلُّ شيء بلغة لا أعرفها ولا أعرف القراءة والكتابة بها. بعض كلمات فقط. أعاين المكان من الخارج، أعاين الموقع، أحاول رؤية الزبائن، من لباسهم أخمّن أعمارهم ومستوى الخمارة فأقرر الدخول أو عدمه. وقلّما أخطأت. لا أميل إلى محلات يرتادها شباب وشابات، فالضجيج فيها لا يطاق، وطعامها محضَّرٌ سلفاً ومثلّج داخل البرادات... يُسَخَّنُ ويُقدَّم للزبون. وهي رخيصة بشكل عام. أميل بالأحرى إلى خمارات ذات طابع تقليدي، حيث كلّ شيء طازج يُعدّه طباخون محترفون من أجل زبائن محترفين هم أيضاً... أولاد الكار يعرف بعضهم بعضاً... كنت في الطريق إلى الاحتراف... لحد ذاك الوقت لم أكن أكثر من هاوٍ يشرب ليزيل تجاعيد الضجر من على الوجه والدماغ... وسوف لن أصل إلى مرتبة محترف أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. ليس سهلاً أن تبلغ تلك المرتبة وذاك المقام. يحتاج الأمر، على ما سمعته من خبراء يابانيين، إلى تعطيل الرأس والتحول إلى جندي فوق رقعة شطرنج.

في ذلك اليوم لم أكن بعد قد شربت قطرة واحدة. وفي الطريق إلى البيت، على الجهة اليسرى من شارع مقبي كأسواق الحميدية في ديارنا، وقرب المخرج الشمالي تماماً، شدّني درج هابط إلى الأسفل. على المدخل علقت قناديل حمراء تحت إحداها قائمة بالأسعار... لا بدَّ أن هناك وكراً مليئاً بأشباهك... هيا. نزلت الدرج وأنا أحاول فهم طنين خارج من تحت. أصوات تتداخل في أصوات. ونداءات كراصين تتعالى بأسماء مشروبات وأسماء طلبات. إذاً هو ذا. لا بدَّ أن هذا المكان يشبه ذاك الذي دُعيت إليه منذ عدة أشهر. لكن لا. هنا طاولات وكراسٍ كثيرة. والفضاء واسع وفسيح ووجوه الزبائن مريحة وأليفة... ضوضاء وقرع كؤوس. دخان سجائر. روائح الخمور والأطعمة... هو ذا. إنه جو خمارة مثالي. في الوسط كونتوار واسع هو الآخر. ويطلّ على القسم الياباني حيث يوجد صفّان من طاولات خفيضة تجاورها المساند والأرائك الوثيرة. ويطل على القسم الآخر حيث الأشياء على الطريقة الأوروبية... وراءه يتموضع المطبخ والطباخون. من أي مكان على هذا الكونتوار يستطيع المرء مشاهدة الزبائن الأخرين أو أغلبهم.

هذا التجاور بين الأسلوبين، الياباني والأوروبي، في الخمارات والمطاعم وغيرها هو جزء من فهم اليابانيين للحداثة التي يعيشونها منذ قرن وبعض. تجاور يطال جميع نواحي الحياة العامة والخاصة. حتى داخل البيت التقليدي يوجد ركن صغير للطابع الأوروبي. والملاحظ أن هذا الأخير يحتل شيئاً فشيئاً مكان الطابع الياباني، لكن لا نستطيع القول إن المعركة حسمت لصالحه. فالخوف على الهوية الوطنية يطيل الصراع إلى ما لا نهاية. ولا يزال جزء كبير من اليابانيين يحترس احتراساً شديداً من غربنة أو أمركة الحياة اليومية... لكن لا أحد يراهن على الأجيال الجديدة التي تبحث عن العملي وعما يناسب السرعة والنجاح.

الطابق الأول تحت الأرض. أقترب من الباب السّحاب وينفتح لوحده. شاب أسمر مدوّر الوجه تعلو وجهه ابتسامة مختلفة عن الابتسامة اليابانية المعروفة. تنمُّ عن قدر كبير من الوضوح. ليست غامضة، وليست لغزاً. لم تتغير ملامح وجهه ولم ينظر إليَّ باندهاش. ترحيب عادي كما لو أنني واحد من المداومين. إلفةٌ سرت إلى داخلي... لا أزال أذكر تلك اللحظة الأنيقة... كم كنت غريباً وقتها وكم كنت أبحث عن بيت... وحدكَ؟ وأشار بسبابته. نعم. إذاً هيا إلى الكونتوار. لا عيون ولا نظرت مع أن المحلّ مليء بالزبائن. اجتزت القسم الأوروبي وأصوات الترحيب تتعالى من بقية العاملين والعاملات. جلست ولا أحد يستغرب حضرتي... لا أحد يفاجأ بشواربي ولا بشكلي الأجنبي... جلست وكأني أعرف المكان منذ الولادة... سعادة أن يشعر المرء بالإلفة في بعض الأحيان وسعادة ألّا يكون مفاجأة ومحلّ استغراب على الدوام. عاينت المحل كما أريد من جميع الجهات وازدادت الإلفة... لم يغب عني الشّاب نفسه طويلاً... انتظر حتى أرتاح بعض الوقت، وأمسح وجهي ويديَّ بتلك القطعة القماشية البيضاء الساخنة والتي تُقدم أثناء جلوس الزبون على الطاولة... لا يعرف كلمة إنكليزية واحدة وأنا لا أعرف سوى بعض كلمات يابانية متفرقة... أسماء المشروب وأسماء بعض الوجبات. وقف إلى جانبي وأخذ يتحدث باليابانية وكأنني أفهمها... لم يطحش ولم يتغير ولم يستغرب أنني لا

أفهم ما يقول... أعطني بيرة أولاً. ثم نظرت إلى جاري، إلى ما أمامه وأشرت... هذا أيضاً... من مكاني أستطيع رؤية ما يحضّر وما يشوى... إذاً بالسبابة سوف نتكلم يا صديقي، وبها سوف تفهم عني وأفهم عنك. أعجبته هذه اللغة على ما يبدو وصار هو يباشرني بها... أتريد هذا... ذاك... يقول ويشير بسبابته.

فهمت فيما بعد أنه من جزيرة أوكيناوا. وسكان تلك الجزر يختلفون في طباعهم وفي كثير من عاداتهم عن سكان جزيرة هونشو الرئيسية... إنه رئيس المحل (تينشو) والمسؤول عن نجاحه... وفهمت فيما بعد أيضاً أنّ المحل جزء من سلسلة خمارات موزعة في أحياء طوكيو تحمل الاسم نفسه: «خمارة التّنين الطّاهر».

لا أذكر أنني غبت عن التنين الطاهر أسبوعاً كاملاً خلال إقامتي في الحي، ولا أذكر أنني ذهبت إلى طبيب هضمية طوال فترة ترددي على ذلك المكان.

توازن حقيقي في الشراب والطعام... بين الروح والجسم.

دوماً لوحدي هارباً من بيت الأشباح ذاك ومن أصدقاء بلا معنى.

ويوماً بعد يوم صار الأصدقاء في الداخل ينتظرون وصولي. وإذا غبت يسأل عني أكثر من واحد. متعة أن يكون لك أصدقاء يسألون عنك بصدق.

هناك فقط أصدقاء.

من الكتب والمكتبات لم يأتني غير العداوة والأعداء.

كلّما شربت كأساً أجد صديقاً.

وكلّما قرأت كتاباً أجد خصماً أو عدواً.

ثم كلّما كتبت قصيدة أو أصدرت ديواناً تنبت لي قبيلة من الخصوم والأعداء.

هكذا صرت أبحث عن أسباب للشراب وملاحقة النساء.

في تلك الخمارة كانت توجد ساقيتان حلمت بهما وليس أكثر.

سوف يبقى الـ: تينشو صديقي، وذاك المحل سوف أزوره دوماً من حين إلى آخر عندما أعود إلى اليابان من جديد. ففيه لم أشعر مرة واحدة بهويتي... الشعور بالهوية عبء لا يحده وزن.

إلى تلك الخمارة كنت أدعو صديقات الحميمية وأصدقاء الدفء.

يوماً بعد يوم صار الـ: تينشو يهتم بطعامي وشرابي... اليوم يجب أن تأكل كذا وتشرب كذا... لم أعد أفكر ماذا أطلب. صار هو ولي أمري. وإذا غاب تحلُّ محله امرأة أوكيناوية في العقد الرابع من العمر تخدم كساقية.

أثناء الخدمة يمنع الشراب على جميع السقاة والساقيات.

هوذا قانون صديقي الـ: تينشو في خمارته.

فوق قطعة من خشب الزّان خمس قطع من سمك التونة النيء يحيط بها فجل مفروم، أو بالأحرى وضعت فوقه.

في صحن آخر أقدام أخطبوط مقلية.

بعد قليل سيجيء سمك السردين النيء أيضاً فوق قطعة من خشب الزان.

وبعد قليل أيضاً أعشاب بحرية.

ثم البطحة تلو البطحة، لا تفرغ أخرى حتى يجيء بديل.

أسماكٌ نيئةٌ من كلِّ الأنواعِ، أصدافٌ أيضاً.

جميع الساقيات والسقاة صاروا يعرفون طبعي وذوقي، ويعرفون أن شيئاً واحداً من أنواع هذا الطعام لا أنفر منه.

ألستُ في جوف التنين الطاهر... إذاً لم النفور.

دوماً وحيداً، لكن بين الجميع.

جميع المحيطين بي ـ وهم كثر ـ أصدقاء أو تقريباً أصدقاء.

أصدقاءُ قرعِ كؤوس لا غير، أصدقاء بالتحية من على بعد ورفع الكأس لا غير.

الجميع يعرف من أنا، من أين أنا، وأين أعمل أنا. هويةٌ، لكن من بعيد.

في هذه الخمارة لم يستغرب أحد أنني عربي وأشرب... متعةٌ غياب الهوية.

ويعرفون أية لغة أتكلم.

وجدت مكاني، وجدت خمارتي ووكري، ولم أعد أغامر.

استقرَّ الذئب على هذا المطرح الهادىء الوديع الذي يغلي كقدرٍ بأشيائه.

زحمة أمكنة باستمرار وضوضاء عالية، لكنه هادىء ووديع.

الجميع يحيط بك ولا أحد... لغة قاسية.

ومع ذلك شعور بأني نتوء غريب... في كلِّ مكان أظل نتوءاً.

حارس الجرار وأمين الخمور شاب صيني سيكون صديقاً.

والموزعون كُثُرٌ: ماليزية حيناً، وصينية حيناً، وحيناً آخر يابانية...

عين الـ: تينشو على الجميع... وعين كلٍّ واحد على كأسه.

الزبونات أكثر من الزبائن في غالب الأوقات ولا أحد يزعج أو يضايق.

عندما تشرب اليابانية تعلو الحمرة وجهها بشكل مثير... وردة حمراء في قعر نبيذ.

كان لي أصدقاء من الفوج الأول وأصدقاء من الأفواج التالية. الفوج الأول يبدأ الرابعة والنصف وينتهي التاسعة أو التاسعة والنصف، وجلّه من المتقاعدين. الأفواج التالية، وغالبها موظفون، تبدأ بالهبوط الساعة التاسعة وما بعد. أفواج وأجيال تتالى وتتلاحق مثل مقطورات السكك الحديدية.

لم أستخدم خمارة التنين الطاهر للثمالة والسكر حقاً.

بل صادقتها للتمتع بالجو الدافىء الذي مُنحتُه، وللتمتع بأنواع الخمور والأطعمة التقليدية.

يراقب الياباني نديمه، أو جاره، كيف يشرب وكيف يأكل. ثم يطلق حكماً. إذا انتفت الأناقة في الطريقة، لا تكون صداقة. وإذا كانت فهي عابرة.

واستخدام العودين واحد من معايير التقييم. والأجنبي تحت المجهر والعيون الرّاصدة.

أقول العودين وأنا غير مقتنع بهذه الترجمة للملعقة اليابانية أو الآسيوية عموماً.. عبارة عن عودين من الخشب أو من مادة أخرى راقية جداً بطول قلم الرصاص، باليابانية يقال لهما: أُوهَاشِي.

واقتراحي أن تنقل الكلمة كما هي إلى العربية، أو أن تُنحَتَ كلمة أخرى انطلاقاً من الأصل. فترجمتها بعودين أو بعصوين أو بما شابه غير موفقة لأن ذلك يوحي بأنها من الخشب فقط، والأمر ليس كذلك... اليابانيون نقلوا كلمة ملعقة الإنكليزية كما هي ولم يترجموا...

لذا أقترح «مِهَشَّةٌ» القريبة الوزن من ملعقة... أهشُّ بها طعامي أو على طعامي.

صعبة الاستخدام. وبسببها تحاشيت في بداية الأمر الدخول إلى المطاعم اليابانية التقليدية، وكنت إذا دخلت أطلب ملعقة أو شوكة.

معرفة استخدامها مفتاح إلى ثقافة الطعام الياباني والصيني والآسيوي... أرأيتَ أيها الذئب... ما معنى أن تكون شاعراً أو أستاذاً جامعياً أو مثقفاً ميتافيزيقياً وأنت لا تعرف كيف تأكل بهذه المهشّة التي يجيد استخدامها أكثر من ربع سكان الكرة الأرضية من الغلام إلى العجوز...

مربكة هذه الأشياء «الصغيرة»... لكن هل هي صغيرة حقاً... أشياء يومية يعيشها أصحابها بشكل آلي كجزءٍ منهم، كتقليد مقدّس وصلاة... وأنتَ مقفل مثل صندوق علاه الصدأ الميتافيزيقي... إذاً افتح كوة في رأسك.

وانفتح الرأس بالكامل إلى أخمص القدمين.

صرت سماء مفتوحة على جميع الرياح. في اليابان لا يوجد خيار، إمّا أن تهضمك معدة النظام والحياة اليومية، وإمّا أن تظلَّ على هامش الهوامش فتعيش هناك سنوات وسنوات دون أن تعي شيئاً. والخيار الثالث معدوم أو شبه مستحيل... اخترت أن أكون حصاة قابلة للتفتت أثناء الهضم والدخول وقابلة

للتكوّن والاجتماع من جديد أثناء التبول والخروج. فلا أنا قادر على الانغراس والانصهار والذوبان تماماً في النسيج، ولا أنا قادر على البقاء في هامش الهوامش كالأطرش أو كالأعمى.

في باريس لم أكن مجبراً على هذا الخيار. تقول لك المدينة: كن من أنت، وأنا سوف أظل من أنا، باريس تتيح الاحتفاظ بالهوية إلى حد كبير. لا تطالب بالانصهار... لك هويتك ولي هويتي وليحترم بعضنا بعضاً على أساس هذا الفرق وهذا الاختلاف.

أما طوكيو فلا تقبل بغير الذوبان، أو لا مكان لك. أي شعور بهويتك الفردية أو الوطنية يسبب مشكلات لا حصر لها من النفسية إلى الجسمية. تقول لك المدينة: أنتبه لا فروق ولا اختلافات في أحشائي، فنحن جماعة واحدة بلسان واحد وقلب واحد ورئة واحدة، وإياك أن تفكر بشكل آخر ومتميز.

هناك معامل لإنتاج الأجوبة الواحدة والتقاليد الواحدة، والعادات الواحدة والمشية الواحدة، والابتسامة الواحدة، والانحناءة الواحدة، وطريقة الأكل الواحدة... هناك برنامج وطني دائم للاحتفاظ بهذه السمات الواحدية، للاحتفاظ بكتلة بشرية من الأفراد المتطابقين على جميع الأصعدة السلوكية والثقافية إلى حد لا يصدق وذلك على امتداد الأرخبيل الياباني بكامله... أن تقابل يابانياً واحداً، كأنك قابلت مئات أو آلاف اليابانيين. سوف لن تجد اختلافاً يذكر بين ياباني وآخر... وعلى أي سؤال سوف يأتيك الجواب نفسه من جميع الأفواه.

لذا يشعر الأجنبي بأجنبيته إلى أقصاها... ويشعر الغريب بغربته إلى حد الرعب... إنه الرعب في نظري ولا غير... لذا لا يفهم الياباني أنك عربي ولا تعرف العادات والتقاليد من المغرب الأقصى إلى المشرق العربيين، ولا يفهم أن تقول له هناك فروقات كبيرة بين عادات منطقة وأخرى، وبين بلد عربي وآخر.

وفي الخمارات أو غيرها من الأماكن قد تصادف من سافر إلى هذا البلد أو ذاك من البلدان العربية ولا تستطيع الإجابة على سؤال بسيط خاصٍ بمنطقة

كان هو فيها عاملاً أو زائراً أو سائحاً. الأوروبي كان يفهم على الفور عندما تجيب لا أعرف. فهو أليف الاختلاف ويدرك ضرورة التعدد والتنوع داخل الثقافة الواحدة.

لم يكن صديقي ناكادا ـ سان قد سافر إلى أي بلد عربي، ولم يحدث له أن التقى بعربي من قبل (ناكادا ـ سان: تضاف اللاحقة «سان» إلى جميع الأسماء وتستخدم كثيراً أثناء الكلام ومعناها سيّد أو سيدة وتتضمن نوعاً من الاحترام) وربما لم يلتق بأجنبي من قبل أيضاً. كان يجلس على الكونتوار باستمرار رغم كثرة الأصدقاء داخل خمارة التنين الطاهر. دائماً وحده. دائماً رفقة كأسه لا غير.

نظر إليّ وأنا أجلس إلى جواره نظرة عادية خالية من أي تساؤل ومن أية دهشة. كانت المرة الثانية أو الثالثة التي أروح فيها إلى ذاك المكان. راقب حركاتي وأنا آكل بالمهشّة قطع السمك النيء. آخذ القطعة وأغمسها بالصلصة السمراء (صلصلة الصوجة) المالحة ثم أسلمها لأسناني لتمضغها بمتعة وهدوء. لاحظ أنني أحب ما آكل وأتمتع به. فهزَّ رأسه وقال لي: «أو جوزو» أي جيد جداً. فهمت أنه يقصد طريقة استخدامي للمهشّة... من هنا سوف ينطلق جميع الذين تعرّفت عليهم في الخمارات والمطاعم... من المهشّة سوف يبدأ الحديث والأسئلة. ومنها أيضاًسوف أبدأ أنا الآخر حديثي مع جار أو جارة، لكن من قبيل المزح حيناً والغمز أحياناً... أُوجوزو، أُوجوزو، أقولها لجاري أو لجارتي وأنا أشير إلى مهشته (ها) وجودة استخدامها... فتُفْهَمُ ملاحظتي بتمامها ويأتي الجواب: طبعاً، طبعاً لأنني ياباني... وتبدأ صداقة ساعة أو أكثر أو أقل... كأنني أقول له (ها) هكذا أنتم تباشرون الحديث فلنبدأ...

هكذا بدأت صداقتي مع ناكادا ـ سان. صداقة لم تخرج من خمارة التنين الطاهر ولم تتزحزح عن الكونتوار. لكنها كانت شبه يومية حاضرة. بدأها ناكادا ـ سان بتقديم كأس من السّاوا (نوع آخر من أنواع الخمر الياباني) لي بعد أن لاحظ دقتي في تطبيق قواعد وقوانين الأكل في الأرخبيل الياباني، ولا سيما جمال استخدامي للمهشّة... لهذه الأخيرة أعراف وتقاليد لا بدَّ من

التقيد بالحد الأدنى منها على الأقل كي يقال: تجيد استخدامها. وإلّا سوف تجرحك نظرات الجالسين. حتى أنا أصبت بهذه العدوى وصرت أراقب طريقة استخدام الآخرين لها. وعندما أشاهد من لا يحسن استخدامها، أو من يخرق بعض قوانين ذلك الاستخدام، أشعر بالضيق والانزعاج وبأنَّ شيئاً ما يدفعني لتوجيه ملاحظة... حتى أنت أيها الذئب أصبت بداء المراقبة وعدوى تطبيق القواعد والأنظمة، ولم تعد عاشقاً للقفز فوقها أو تحتها، هاقد أصبحت مروّضاً... وهل تروّض الذئاب؟ نعم، في الأرخبيل الياباني الذئاب يروّض بعضها بعضاً، والسكارى بعضهم بعضاً.

قدّم لي ناكادا ـ سان كأساً من السّاوا وقدم نفسه أيضاً. فعلت ما يقتضيه أدب الموقف. فقدمت نفسي واسمي ومن أين. لم يندهش صديقي وتابع شرابه كأن الأمر طبيعي جداً. أراحني هذا التصرف ومنحني تأشيرة دخول إلى النسيج الموجود... لست غريباً في هذا المكان، ولستُ عجيباً. ها أنا مثل الآخرين. وها هو صديقي ناكادا ـ سان يناديني من الآن فصاعداً يا أخي، «ماي براظر، يو آر ماي براظر». كان يعرف بعض الجمل الإنكليزية البسيطة، وكان يعرف أنني لا أتكلم اليابانية، فكان يكتفي بالتحية والجلوس وإشباع رغبة الحديث مع جار آخر. زبائن الكونتوار يعرف بعضهم بعضاً. جميعهم أصدقاء. وجميعهم يحبون ناكادا ـ سان ويتبادلون تقديم الكؤوس فيما بينهم. ولذا كنت أحياناً أرى أمام صديقي أربع كؤوس من السَّاوا أو أكثر دفعة واحدة. هذه من فلان، وهذه الأخرى من فلان، وهذه من محمدو... سان. صرت واحداً من جمعية أصدقاء الكونتوار، وصرت أتبادل تقديم الكؤوس مع الآخرين. لا بدَّ أن ناكادا ـ سان قدّمني إلى كل واحد منهم أثناء غيابي، فهم يعرفون الآن جميعاً من أنا، ويعرفون أنني أحب اليابان وإلّا لما كنت معهم في هذه الخمارة. كانوا في غالبيتهم من جماعة الفوج الأول... متقاعدون لا يعملون إلّا عدة أيام خلال الأسبوع... أما صديقي ناكادا ـ سان فكان يعمل كلَّ يوم، لكنه كان قريباً من حدود الستين وبالتالي من التقاعد أيضاً.

لا يغيب عن عمله يوماً واحداً ولا عن مكانه في الخمارة أيضاً. ولم

يحدث أن نزلت مرة إلى هناك ولم أجده... جالس على شكل شبح. يشرب ولا يأكل إلّا قليلاً جداً. نحيل إلى درجة الغياب... مولع بخمرة السّاوا لحد العبادة. وكلّ ما أعرف عنه أنه موظف في السكك الحديدية وأنه مطلّق وله ابنة واحدة. ويسكن وحيداً. مطلّق منذ زمن طويل ورفض أن يتزوج بعد ذلك.

عندما انتهى عقدي مع الجامعة وتركت اليابان سنة ١٩٩٣ ، لم أودّع أخي ناكادا ـ سان ولم أخبره أنني قد أعود. غبت قرابة العام ثم عدت سنة ١٩٩٤ . ذهبت إلى التنين الطاهر ودهشت عندما لم تقع عيناي على أخي ناكادا ـ سان. انتظرت ساعة وأكثر وأنا أشرب كالعادة أيام زمان، ولكنه لم يطل بجسده الباهت وابتسامته الوديعة... لم يطل ولن يطلّ... قالها الـ: تينشو، عندما سألته عن أخي ناكادا ـ سان. مات أخوك ناكادا ـ سان منذ عدة أشهر وجاءت ابنته إلى هنا واجتمع الأصدقاء من جميع الأفواج وأقمنا حفلة وداع احتفاء بصعود روحه الطاهرة. لماذا لم تأتِ أنتَ؟ وأين كنت؟ لقد شرب جميع الأصدقاء حتى الثمالة يومها...

لم أصدق أنني حزين إلى هذا الحد. شعرت أنا لمكان خواء فظيع، شعرت بفراغ لا حدود له في هذا المكان الذي أحببته... ألهذا الحد كان ناكادا ـ سان صديقاً وأخاً؟ ألهذا الحد قوية صداقة الكونتوار الصامتة؟ ألهذا الحد تحزن ذئاب الخمور على بعضها؟ لا معنى لهذه الخمارة اللعينة، ولا معنى للتنين الطاهر بعد موت أخي ناكادا ـ سان، ولا معنى لعبارات الترحيب التي يطلقها الـ: تينشو والعاملون بشكل آلي... أنا الآخر قد أنتهي في هذه الخمارة التي سمعت صوت ناكادا ـ سان وهو يناديني... «ماي براظر، يو آر ماي براظر» لكم كنت أشعر بهذه العبارة من الأعماق. لقد محت عني غربة المكان القاتلة، وعوّضتني عن كثير من الصداقات الكاذبة داخل أجواء الجامعة. «يا أخي، أنت أخي»، كانت هذه العبارة عائلة حميمة بالنسبة إليّ، عائلة وحيدة تحميني من كلّ دهشة أو استغراب... إذاً وليكن، فلأشرب اليوم احتفاء بصعود روح أخي ناكادا ـ سان إلى بارئها.

في المآتم وحفلات التأبين تُقدَّم الخمور كغيرها من الأطعمة، لا بل قد

تقدم أجمل أنواع الساكي. المآتم مناسبة كغيرها من المناسبات لتعاطي أنواع الخمور. إذاً لا بأس أن أشرب اليوم كتحية لروح أخي ناكادا ـ سان.

لا بدَّ أن التنين الطاهر سوف يرعى تلك الروح ويعيذها من الشرور.

لا بدَّ أن الله سوف لن يحاسب ناكادا ـ سان وسوف يغفر له.

ولكن ماذا يغفر له... لم يخطيء، ولم يؤذِ أحداً، فقط شرب وأحب الشراب، والله البوذي لا يحاسب عباده على تعاطي الخمر.

أنا وحدي الذي ينتظرني إله جبّار، إله قهّار يبدِّل جلدي بجلد آخر كلّما استوى... ولكن لماذا ينتظر ويعذّب نفسه، فالنّار تبدِّله وحدها، ولا بد أن جلدي سوف يسقط من على عظامي قبل أن يصل إلى حالة الاستواء، سوف يسقط ويسقط معه كلُّ شيء بحكمة عباده من الكتّاب والفقهاء القدامى والمعاصرين.

في الطريق إلى الشعراء...



ومع ذلك بقيتَ أيها الذئب تائهاً تعوي وحدك ولا أحد يفهم هذا العواء... لن يفهم أحد صوتك سواك... ولن يردد الصدى سواك، أنت صدى صوتك لا غير. ولن تعشق سوى الصحراء. الرمال سماؤك والكثبان ثيابك الممزقة... كشِّر عن أنيابك كلّها وافتح الحنجرة إلى الأقاصي ونادِ على أولاد دمك... فلن تعرف هذا الأرخبيل إلّا بعد أن تجد حبل سرّتك... لن تعرف هذه البلاد، بلاد الواق الواق، إلّا إذا التقيت بجروحها... جروحُ البلادِ، هم الشعراء... والجروح، جميع الجروح، هي غاية الإفصاح والوضوح... وبلاد الواق واق تلال من الإبهام والغموض، وأكوام من الحجب السميكة.

لكن والشعراء أين هم... لا شعراء في هذا الأرخبيل... هل يُعقل هذا... مضت قرابة العشرة أشهر على وصولي ولم ألتق شاعراً واحداً، وكأنني ذهبت إلى اليابان من أجلهم فقط.. وصارت تضيق عليَّ البلاد، وتضيق عليَّ حتى خمارة التنين الطاهر، وحتى بيت الأشباح ذاك. وأسأل الأصدقاء من المستعربين، لكن لا أحد يجيب، ولا أحد يعرف الإجابة... لا علاقة لهؤلاء باليابان!!... في الاستعراب لا يفقهون وفي اليابان أيضاً!!.

في ذلك الحين صرت أسأل الطلاب إذا كانوا يعرفون أسماء شعراء معاصرين، أو إذا كانو يحبون الشعر والشعراء، أو إذا كان بينهم شعراء شباب... قلت لعلَّ الأمر هنا كما عندنا في البلدان العربية حيث يفصح الشعراء والكتاب عن أنفسهم منذ دخولهم إلى الجامعة، أو لعلّ هناك أمسيات أدبية يحييها، كما عندنا، شباب من مختلف السنوات والأقسام... لكن شيئاً من هذا غير موجود في الجامعة التي كنت فيها... وسوف أعرف أيضاً أنه غير

موجود في الجامعات الأخرى... بل هناك نشاطات أخرى مختلفة لا علاقة لها بما أريد. وإذا وجد بين الطلاب من يكتب شعراً لا يعلن عن نفسه جداً، لأن الشعر في نظر الياباني حالة خاصة جداً ولا يمكن أن تكون عامة... ثم أخذ بعض الطلاب يردد من حين إلى آخر اسم «تاوارا ـ ماتشي». وعندما سألت عنها قيل لي هي شاعرة معروفة جداً، ولا سيما بعد أن نشرت مجموعة «عيد ميلاد السلطة».

سوف أعرف فيما بعد أن هذه الشاعرة تمارس كتابة قصيدة التانكا التقليدية ذات الإيقاع، ٥ ـ ٧ ـ ٥ ـ ٧ ـ ٧ ، وقد نشرت مجموعتها المذكورة أعلاه سنة ١٩٨٥ ولاقت رواجاً منقطع النظير، إذ بلغت المبيعات خلال سنة نشرها حوالي خمس ملايين نسخة... ذهلتُ تماماً، ولم أصدِّق لو لم يؤكد لي ذلك شعراء سوف ألتقي بهم لاحقاً وسوف أروي هذه الحكاية ـ الطرفة لكثير من الأصدقاء في العالم العربي. ربما طريقة الترويج للكتاب كانت بارعة، ربما النّاشر كان بارع التوزيع، وآلاف من ربّما ولعلَّ... لكن يبقى أن الكتاب مجموعة شعرية وقد ضرب رقماً قياسياً بين المبيعات في زمن يقال إنه ليس زمن الشعر، بل موت الشعر... إذاً هناك شعراء في اليابان، وهناك خمسة ملايين قارىء على الأقل وأنا لا أعرف هذا... لا بأس. سوف أبحث عن أولاد دمي وسوف أعوي معهم في الشوارع والخمارات والملاهي... سوف أجد طرف خيط يوصلني إليهم، سوف أعرف أين أوكارهم.

سؤال واحد وأساسي كان يلازمني ويطرح نفسه بإلحاح: كيف تلقى الشاعر الياباني المعاصر الحداثة الغربية وكيف فهمها وهو ذو تراث شعري تقليدي عريق... كيف تعامل مع هذا الموضوع... كيف يكتب الآن الشعر. في الواقع هذه أسئلة وليست سؤالاً واحداً. لكنها كانت تدور في رأسي ولا أعرف جواباً لها. في هذا البحث حول الشعر الياباني الحديث، كنت أبحث عن بعض الروح التي نقلت التقدم التكنولوجي الغربي وأوصلته إلى أقصاه... وأسأل هل انطبق هذا على الشعر أيضاً؟ هل أخذوا الشعر الحديث عن الغرب وأوصلوه أيضاً إلى أقصاه؟ هل فعل الشاعر الياباني مثل مواطنه رجل العلم،

وهل يمكن للشعر أن يكون مثل العلم؟ ثم في بلد متقدم هكذا ما حاجة النّاس إلى الشعر، فهذا الأخير خبز الفقراء فقط، واليابانيون أصبحوا أثرياء وبالتالي هجروا الشعر أو بالأحرى هاجر الشعر من بلادهم، فالشعر والتقدم لا يلتقيان... سوف أفهم فيما بعد كيف أن فهم الياباني للإبداع، وللإبداع الشعري تحديداً، يقف وراء تقدم اليابان. الإبداع بالنسبة إليه ليس إلهاماً أو وحياً، بل هو محاكاة وتقليد، هو أخذ عن مثالٍ موجود، هو إعادة إنتاج نص موجود بصيغة أخرى، هو ترجمة نص من لغة إلى أخرى بتصرف... وسأعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

قادني البحث والسؤال في النهاية إلى طرف الخيط... قالت لي: هناك شاعرة تهتم بالشعر الآسيوي وقد ترجمت عن الفرنسية أو الإنكليزية عدة قصائد لأدونيس ومحمود درويش وغيرهما... اسم الشاعرة: «كورا ـ روميكو» ـ وهي الآن صديقة ـ ولها باع طويل في حركة الشعر الياباني الحديث، وتحاول الانفتاح الشعري على البلدان غير المتقدمة... ألم أقل أيها الذئب إن المرأة اوسع من الرجال... ألم أقل لك إننا نحن معشر الرجال ضيقون ضيقون إذا صحونا ولا نتسع إلّا بالخراب والدمار... لماذا دوماً في البداية، كلّ بداية، امرأة تدفع لك سفنك إلى عرض البحار... إليها أيها الذئب، وإلى مينائها الصخري حيث لا رياح ولا عواصف... مياه وديعة وصافية فقط... وها أنت قد اقتربت من الولادة وكشف الحجاب.

كان ذلك في خريف سنة ١٩٩٠ ... اتفقنا على الموعد وحددنا المكان. هي التي سوف تنتقل وتتحرك باتجاهي. عندما عرفت أنني شاعر عربي لم تتأخر في الإجابة. على طريقة «المفكرين الكبار» و «الفلاسفة المشغولين»... سيدة تجاوزت الخمسين من العمر ـ مواليد ١٩٣٢ ـ ترتدي هنداماً أنيقاً، ممتلئة قليلاً، تنتظر قبالة المخرج الجنوبي من المحطة، تعرف الإنكليزية جيداً، وتعرف الفرنسية معرفة بسيطة تتيح لها تحديد المواعيد وأمكنتها. لا بدَّ أنها هي تلك الواقفة هناك... للشعراء حركات خاصة ووقفات خاصة لا يفهمها غير أولاد الدم ذاته... وما إن اقتربت منها حتى فهمت أنني هو... نعم أنا هو... وأنتِ، أنتِ

هي... الابتسامة اليابانية المعروفة على وجهها لكن بشكل آخر تماماً... ابتسامة واضحة هذه المرة ولا تخفي ما قد تقول. ليست الابتسامة الغامضة تلك التي تشاهد على وجوه العابرين، ليست الابتسامة اليابانية الرسمية. ليست سوى نفسها... ابتسامة شاعرة.

جلسنا في بيت الأشباح ذاك ومعنا مترجمة للاحتياط... فوجئت يومها كيف تعرف حقاً أسماء شعراء عرب، وفوجئت أكثر عندما عبّرت عن حبّها لإحدى قصائد أدونيس التي نقلتها إلى اليابانية. تحدثت عن بدايات شعرنا العربي وذكرت جيداً اسم بدر شاكر السيّاب، لكنها ذكرت بشكل أجود اسم نازك الملائكة... لكن هل حضّرتِ نفسك لهذا اللقاء، فقرأتِ شيئاً حول هذه المواضيع...، كلا... فأنا منذ زمان أعرف اسم نازك الملائكة وأعرف أنها أم الشعر العربي الحديث... لكن ليس الأمر هكذا... أعرف، أعرف أنّ الرجال لا يقبلون امرأة في المقدمة... ثم ابتسمتْ وهي تحاول قراءة تعابير وجهي آنذاك. فهمتُ فيما بعد أن كورا ـ روميكو ليست شاعرة فقط بل هي جزء من حركة نسائية كبيرة للدفاع عن حقوق المرأة في اليابان وخارجها، وفهمت أيضاً أنها ناقدة معروفة في هذا المجال وفي المجال الأدبي، وأنها روائية أيضاً، (راجع حواري معها في: سفينة الموت. ديوان الشعر الياباني الحديث. حوارات وقصائد، دار المواقف، ط ١ ، ١٩٩٣). وهي عندما تذكر اسم نازك الملائكة، تذكره كشاهد من بين شواهد كثيرة على أهمية الإبداع النسوي في شتى المجالات وفي مختلف البلدان... سوف أعرف فيما بعد أن عدد الشاعرات في الأرخبيل الياباني أكثر من عدد الشعراء، أو يساويه على أقل تقدير... سوف أعرف أيضاً وألمس أن الإحساس الشعري لدى الشاعرة اليابانية أقوى منه لدى الشاعر الياباني. ويعود هذا إلى تقليد قديم حيث كان للمرأة الوقت الكافي للانصراف إلى الأمور الأدبية وإلى ترهيف ذوقها وإحساسها الجماليين، بينما كان الرّجل مأخوذاً بالحياة اليومية وتأمين لقمة العيش. ففي عصر هييان، وهو العصر الذهبي والتأسيسي للأدب الياباني، كانت الشاعرات على قمة الهرم الأدبي في الكم والنّوع، كنَّ سيدات الشعر والنثر، وكن ـ ولا زلن ـ يثرن

غيرة الرجل الأدبية وغيرها... أرأيت أيها الذئب كيف وجدت نفسك تدافع عنهن في كلِّ مكان وزمان... أمكتوب عليك الدفاع عن الجمال وأولاده... وليكن إنك الذئب ولا غير.

المرأة اليابانية أغنى من الياباني روحياً وأوضح منه بكثير.. الياباني غامض لا يوضح ما يريد، ربّما لا يعرف، لكنه غامض... هكذا تقول لك أية يابانية. ومعاناتها من هذه النقطة بلا حدود... يريد ولا يريد، يفصح ولا يفصح بغير الهمهمة والغمغمة وعلك الصوت.

لا تصير اليابانية «مقدّسة» إلّا عندما تصبح أماً.

علاقة الياباني بأمه معقدة وشبه مرضية، لكنه «يقدسها».

اليابانية تعمل أكثر من الياباني بأضعاف، وهي أذكى منه بمسافات.

الياباني يفوق اليابانية بالجمال الفيزيقي، هو أجمل منها بمسافات.

عندما يحب الياباني، بشكل عام، يبحث في حبيبته أولاً عن الأم.

الياباني لا يريد أن يترك مرحلة الطفولة، ولذلك فإن علم نفس الأطفال قد يفسّر أكثر من أي علم آخر سلوكات وتصرفات الياباني. فكما أن الطفل لا يفهم نفسه كذلك الياباني، وكما أن الطفل يخطيء بسرعة ويعتذر بسرعة، كذلك الياباني (لنتذكر عدد الحروب التي شنتها اليابان على جيرانها وعلى غيرهم خلال نصف قرن فقط بعد الانفتاح سنة ١٨٦٨ ، ولنتذكر اعتذارات اليابان لجيرانها ولغيرهم مؤخراً) وكما أن الطفل لا يحتمل النقد ولا يعرف نقد نفسه، كذلك الياباني، وكما أن سلوكات الطفل غريزية، كذلك سلوكات الياباني... لذلك لا تعرف متى يكون معك ومتى يكون ضدك. وكما أن الطفل يحب الأشياء البسيطة غير المعقدة واللاتحتاج إلى إعمال الذهن، كذلك الياباني، وكما أن الطفل يحب تقليد الكبار وينجح في كثير من الأحيان كذلك الياباني، وكما أن الطفل لا يفهم المنطق ولغته وأدواته، كذلك الياباني، لذلك لم تدخل الفلسفة بمعناها الإغريقي ثم الأوروبي إلى الثقافة اليابانية. واليابانيون الذين حاولوا إدخالها، لم ينجحوا وظلّت محاولاتهم في إطار

أكاديمي ضيق جداً. وهذا ما يؤكده واحد من كبار «مفكري» عصر ميجي، عصر الانفتاح والنهضة، «ناكاي ـ تشومين» (١٨٤٧ ـ ١٩٠١): «منذ القِدم إلى اليوم لا ولم توجد فلسفة في اليابان»، ولن توجد في نظري. هذا لا يعني أن وجودها خير وانعدامها شر. ولأن الأمر كذلك، ستبدو اليابان وتقدمها وحداثتها كتلة من التناقضات في نظر مراقب خارجي، والقضية ليست كذلك بالنسبة إلى الياباني، لأن التناقض غير موجود في ثقافته. وهذه حكاية طويلة تحتاج وحدها إلى مجلدات مستقلة. خلاصة الموضوع أنني لم أجد سلوكاً يشبه سلوك الياباني سوى سلوك الأطفال. هكذا يبدو لي أن الياباني طفل ناضج في ثياب رجل. ولائحة المقارنة يمكن أن تطول إلى حد كتاب، لكن أختمها بمعاينة عجيبة ومتناقضة هي أن المرأة اليابانية أقرب بكثير إلى النضوج المنطقي من الرجل الياباني، والشيء نفسه سوف ألاحظه عند الشعراء... ربما لأن داخل كلٍّ شاعر امرأة... عد إلى طفولتك أيها الذئب الناضج، والمنطقي، عد إلى الاقتراب من سلالتك، فها أنت شبه ضائع في مملكة الأطفال... مملكة أطفال تحرسها النساء والشعراء، وترويها سواقٍ من الخمور الساخنة، وأنهار من الكؤوس الناضجة في أرخبيل الواق واق...

لم نطل يومها اللقاء الأول، واكتفينا بتعارف بسيط. أوضحت لها رغبتي في التواصل معها ما دمت في اليابان، وتمنيت عليها أن تقدِّمني إلى شعراء الحداثة اليابانيين معلناً عن نيتي إجراء حوارات معهم وتقديمهم إلى القارىء العربي عبر جريدة «الحياة». كما تمنيت عليها أن تساعدني في إعداد مختارات من الشعر الياباني الحديث، قد تكون تلك الحوارات مدخلاً ومقدمة لها. وهذا ما سوف يحدث بالضبط. حاورت الشعراء، ونشرت ديوان الشعر الياباني الحديث بعد أن عملت عليه مدة ثلاثة سنوات بالتعاون مع كورا ـ روميكو التي قامت باختيار القصائد، وبالتعاون مع المستعربة كاورو ـ ياماموتو التي ترجمتْ وإياها القصائد كلمة كلمة عن اليابانية مباشرة... والآن بعد أن نفدت الطبعة الأولى (١٩٩٣) أستعدُّ لإصدار الطبعة الثانية... ليس هنا كلُّ بيت القصيد، بل لقائي مع الشعراء هو المقصود أيضاً.

منذ ذلك اللقاء بدأ شعور الغربة القاتلة يخفُّ. وأحسست أنني عدتُ إلى توازني بعد أن فقدته فترة من الزمن... وأي عاقل لا يجن في مملكة الأطفال!! كنت أحسد أصدقائي الذين يعيشون في أوروبا... حياتهم هناك ليست غربة، فهم بين أولاد ثقافتهم في نهاية المطاف. ولكن نحن الأجانب القاطنين في الأرخبيل الياباني نشعر بالغربة وبالقرابة. عندما ألتقي أوروبياً كأنني ــ وكأنه أولاد قرية واحدة... نفهم إشارات ورموز بعضنا دون إطالة حديث، نكتشف كم نحن أقرباء ولم ندرِ... نأخذ بنقد عادات وتقاليد المجتمع الياباني، وكثيراً ما نتفق في وجهات النظر. نتفق هنا ونلتقي، ونختلف هناك ونتحارب... حركاتنا متشابهة، مفاهيمنا من فضاء واحد. ألهذا الحد نحن أقرباء، ولذا يجيد بعضُنا قتل البعض الآخر إذا دبَّ خلاف ونشأ صراع... أهكذا هو ظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضة... هدأ نعيق الغربة هدأ قليلاً، وشعرت لأول مرة بعد أشهر طويلة بلحظة طمأنينة وأمان. وشعرت أكثر بأنه صار لوجودي معنى في بلاد الواق واق. لأنني كنت حينها مأخوذاً بالبحث عن معنى الحداثة في الشعر وفي الحياة، وبالبحث أكثر عن طريقي الخاص في الشعر.

وفي ذات يوم أخبرتني الشاعرة كورا ــ روميكو أنها رتبت لي لقاءً جماعياً مع من تعتقد أنهم يمثلون الشعر الياباني الحديث. وأخبرتني أنني، أنا، سأكون موضوع اللقاء وضيف الأمسية. بعبارة أخرى، دعتني إلى إحياء أمسية شعرية. وأرسلت بهذا الصدد رسالة إلى الشعراء المعنيين ــ حوالي خمسة عشر شاعراً ــ فحواها أن شاعراً عربياً من سوريا موجود الآن في اليابان وندعوكم إلى حضور لقاء معه. وصلتني الرسالة نفسها وبدأت بترتيب ترجمات النصوص مع بعض المستعربين. هو ذا قطارك ولا بدَّ من صعوده... شعرت بالرهبة في بداية الأمر، وتخيلت نفسي أمام أهم شعراء العربية المعاصرين، فماذا يمكن أن أقول... لا بأس، لا بأس، فهؤلاء لا يعرفون عن الشعر العربي الحديث ــ والقديم أيضاً ــ شيئاً كثيراً، ولذا كلُّ ما ستقوله سيكون مهماً بالنسبة إليهم... هو ذا الصوت الذي خرج من الأعماق ليخفف من تلك الرهبة بعض الشيء.

كان اللقاء بتاريخ ٧ ــ ١٢ ــ ١٩٩٠ في مقرّ جمعية الكتاب الآسيويين

التي تنتمي إليها كورا ـ روميكو. ارتأيتُ يومها على المترجم أن نذهب باكراً. كنت أريد رؤية وصول كلِّ شاعر... على باب مقر الجمعية إعلان عن الأمسية... صعدنا إلى الطابق الأول حيث مكان الاجتماعات واللقاءات... وإذا بكورا ـ روميكو ومعها امرأة أخرى سأعرف أنها شاعرة أيضاً ترتبان طاولة امتلأت بالمشروبات والمأكولات الجافة الخفيفة... أين أنا؟ أدعوة إلى السكر أم دعوة إلى أمسية شعرية؟ سوف أفهم فيما بعد أن لقاءً حميمياً هكذا لا بدَّ أن يرافقه كأس بسيط وحميم... خفت أن يستيقظ ذلك الذئب اللعين فيشرب ثم لا أعرف الإلقاء ولا الكلام... هناك من يشرب ليحسن الإلقاء، لكنني لا أستطيع إلقاء نص واحد بعد أي كأس من الخمور مهما كان صغيراً... ومع ذلك استيقظ اللعين لحظة في البداية وتجرّع كأس بيرة سوف تسبب لي مشكلة تبول أثناء الإلقاء والحديث... أيُّ خجل أصابني وقتها... قطعت الحديث وذهبت إلى المرحاض الموجود داخل القاعة تقريباً... ماذا قال كلُّ شاعر آنذاك... لا بدَّ أنني أعطيت أسوأ صورة عن الشاعر العربي... لا بدّ أن كلَّ واحد منهم سوف يقول: هكذا إذاً، الشاعر العربي يقطع حديثه ليذهب إلى التبول... لكن لا... صدقوني ليس شعراؤنا كذلك، امرؤ القيس ليس كذلك، والمتنبي ليس كذلك، والمعري ليس كذلك، وأدونيس ليس كذلك، وغيرهم كثرٌ ليسوا كذلك، لا أحد من هؤلاء يقطع حديثه ويذهب إلى التبول... فأنا الحفيد الوحيد العجيب الغريب لأجدادي هؤلاء...ثم ماذا قال كلُّ شاعر آنذاك بنظراته إلى كورا ـ روميكو. صاحبة الدعوة... أهكذا دعوتنا إذاً إلى لقاء مع شاعر يقطع الحوار معه ويذهب إلى التبول... ثم لا بدّ أن كورا ـ روميكو ابتسمت بلطف وانحنت تعتذر وكأنها تقول: لم أكن أعلم أنه سيقطع الحوار ويذهب إلى التبول... جميع هذه الأفكار خطرت لي وأنا داخل المرحاض أتبول بكل جدية وصدق وخجل... أعلمت أيها الذئب كم أنتَ مربكٌ أحياناً، وكم يزعجني صوتك الأعمى...

بدأ الشعراء يأتون الواحد تلو الآخر، وأنا أتفحص وجه كلّ منهم أثناء الدخول... لا أعرف الأسماء، لكن هؤلاء هم الشعراء... وعلى غير العادة،

وجوه مختلفة... لا يوجد وجه يشبه آخر... وجوه اليابانيين متشابهة جداً... لكن من أين هؤلاء... هل هم يابانيون حقاً.. لعلّهم من أصول غير يابانية. وما أدهشني ثانياً، أن كلاً منهم يدفع مبلغاً عند الدخول... سوف أعرف فيما بعد أن الأمسيات الشعرية واللقاءات الأدبية غير مفتوحة للعموم، فقط لأصحاب الدعوة ولمن هو جزء أو عضو في هذه الجمعية أو تلك، وكل عضو أو صاحب دعوة يجب أن يدفع رسم الدخول. وهذا لا علاقة له برسم العضوية الذي يدفع دورياً... هكذا تتكون ميزانية كل جمعية أدبية، وبفضل هذه الميزانية تنشر المجموعات الشعرية وتصدر مجلة دورية تكون صوت الجمعية وصداها... وتشكلت شبه دائرة حول الطاولة، وأنا لا أزال واقفاً حائراً أين أجلس... جوٌّ القاعة الصغيرة امتلأ بالشعر... وجوهٌ ناضجةٌ جداً لا علاقة لها بوجوه الأطفال، وجوه اليابانيين الذين أصادفهم في الأماكن العامة وفي الشوارع وفي كلِّ مكان خارج هذه القاعة... ومن الواضح أنهم ليسوا شباباً، فهم جميعاً من جيل رواد الشعر العربي الحديث، وهم من الجيل الثاني بعد جيل روّاد الشعر الياباني الحديث الذي بدأ في أواخر القرن الماضي (١٩) وبداية القرن العشرين... لاحظت كورا ـ روميكو حيرتي فأشارت لي بالجلوس على مقعد وثير في الصدارة مخصص للضيف المدعو... ولا أعرف كيف التفتُّ إلى شاعر واقف بجانبي ودعوته إلى الجلوس في هذا المكان عوضاً عني... تردد ونظر إليَّ فوجدني صادقاً... جلس وجلست على كرسي عادي إلى جواره... لا أحبُّ أن أكون أكثر مِنْ أنا، ولا أحبُّ أن أكون أكبر من حجمي، فحجمي جميل وأعشق حجمي... عرفت فيما بعد أنه الشّاعر الكبير تانيكاوا ـ شونتارو الذي لا يوجد ياباني إلّا ويحفظ من شعره شيئاً... إنّه أشبه بنزار قباني في شعرنا المعاصر... لكن هل كان سيأتي نزار أو غيره من معاصريه إذا دعي إلى أمسية شاعر ياباني شاب تقام في دمشق أو بيروت أو لندن... لا أعتقد. كنت سعيداً جداً بهذا الموقف من جهتي وشعرتُ أنني لا أحب المنفخة في غير زمانها ومكانها... وهكذا منحت نفسي طاقة وجرأة للحديث أكثر... لطيفة سلالة الذئاب أحياناً، إذ تشمُّ روائح اللباقة من بعيد بعيد...

بعد تقديم بسيط وقصير قامت به كورا ـ روميكو، أخذتُ بقراءة نصوصي الشعرية التي ترجمت إلى اليابانية... أقرأ النص بالعربية، ويقرأ الترجمة بعدي شاعر من الشعراء... كلّ نص جديد يقرأه شاعر جديد... والمترجم لم يقرأ شيئاً. لاحظت انتباهاً خاصاً يُولى للإلقاء بالعربية... يريدون فهم النص من خلال الإلقاء... ثم بعد أن انتهيت من نصوصي، اقترحت عليهم، وقبل البدء بالحوار، أن أقرأ قصيدة «البهلول» لأدونيس بالتناوب بين المترجم وبيني... أقرأ مقطعاً بالعربية ويتلوني هو باليابانية... انتهت القراءات وشعرت أن كثيراً من التواصل موجود الآن بينهم وبيني... أصغوا بطريقة مدهشة دون تململٍ خلال ساعة ونصف وأكثر، وبدت على وجوههم علامات الجدية والارتياح... لم تكن قصائدي التي قرأتها قد نشرت في مجموعة شعرية بعد. لم أقرأ من مجموعتي الأولى والوحيدة لحد ذاك الوقت «الميامر والتساعات التابعة» أي نص... قرأت بعض ما نشر في مجلة «مواقف» من مجموعة كانت جاهزة للنشر، ونشرتها بعد ذلك بسنوات، أقصد «متون القول»... لعلّي كنت أبحث عن تأشيرة خروج لها... ثم جاء وقت الأسئلة... لا أذكر أنه كانت هناك أسئلة كثيرة... ثلاثة أو أربعة، أهمها سؤال لا يزال عالقاً في ذهني حتى الآن: ما هو الفرق، أو هل هناك فرق، بين الشعر الذي يكتب في دمشق أو الشعر الذي يكتب في حلب، ما هو الفرق بين شعر شعراء المناطق والبلدان المختلفة في العالم العربي؟ وبسرعة أعدت صياغة السؤال في داخلي: ما هو الفرق بين الشعر اللبناني والشعر المصري مثلاً، أو بين اللبناني والسوري، أو بين العراقي والمغربي... سؤال لم أطرحه على نفسي من قبل، وفاجأني إلى حد ما. طرحه شاعر كان يغمض عينيه عندما ألقيت قصائدي، واعتقدت أنه كان ينام، لكن يبدو أنه كان يصغي بكامله دون غياب أي جزء منه... إنه الشّاعر غوزو ـ يوشيماتسو الذي سوف ألتقيه وأحاوره فيما بعد... أجبت: ربّما هناك فروق، لكن لا أعرفها ولا أعتقد بوجودها. لأن الشعراء يكتبون بلغة واحدة هي العربية، ويفترق الواحد عن الآخر، أي يتميز بأسلوبه الذاتي، ولا أظن أنه يتميز لأنه من منطقة كذا أو بلد كذا... صحيح أننا بلدان عربية متعددة، لكننا نعيش

على الصعيد الثقافي والأدبي إشكالات تكاد تكون واحدة... قد تكون هناك فروقات ناتجة عن الانتماء إلى البلد، لكن لا أعرفها وقد تحتاج إلى دراسة النصوص ميدانياً... أقفل الحوار وانتهت الأمسية والتقطت الصور التذكارية... وعوى الذئب بعدها مستيقظاً كأنّ له آلاف الحناجر... ومن حرشة إلى حرشة في غابة الخمور اليابانية، صار له أصدقاء من جميع الأنواع والأصناف يفهمون عواءه تارة، وتارة لا يفهمون...

سوف أعرف فيما بعد أن هؤلاء الشعراء هم من أهم رموز الحركة الشعرية في اليابان... فكيف جاؤوا إلى أمسية عربي لم يثبت بعد أنه جزء مهمّ في خارطة الشعر العربي الكبيرة... هو ذا السؤال في نظري.

الياباني يهتم بالأطراف والأجزاء والتفاصيل أكثر من اهتمامه بالكليات والمتون... ومن المؤكد أنني من تفاصيل حركة الشعر العربي الحديث وأحد أطرافها القادر على المشاغبة بامتياز... منذ اللحظات الأولى للأمسية أدركوا هذا جيداً. لأنني سرعان ما سخرت من شعراء العقائد والإيديولوجيات عندما سئلت عن علاقة الشعر بالسياسة في العالم العربي... منذ زمان تنهش السياسة صورنا الشعرية وجملنا وقوافينا، ولا نعرف الجمال إلّا من خلال المعايير السياسية... لكلٍّ زعيم شاعره المفضّل، ولكل معارض شاعره أيضاً... هو ذا أيها الأصدقاء الشعراء اليابانيون، فشعراؤنا العرب أبواق سياسية لا غير... أبواق ثورات، وثورات مضادة، طبول لغوية تدوي من المحيط إلى الخليج، مدّاحون، ندابون، بكاؤون... ومن يقرأ أشعارهم يصاب بالكآبة والسوداوية والعصاب والهذيان... شعراؤنا يكرهون الحياة يا أصدقاء، ولا يكرهون غيرها... هل تنفّست الآن أيها الذئب، هل تثاءبت جيداً، لا بأس، ولا بأس... فهم هكذا.

واخترت بعد ذلك أن أحاور ثلاثة شعراء إضافة إلى كورا ـ روميكو. ثلاثة شعراء طرح كلٌّ منهم سؤالاً أثناء اللقاء... وأعتقد أن كلّاً منهم يمثل اتجاهاً داخل الشعر الياباني الحديث... الأمر الذي سوف أفهمه فيما بعد أيضاً.

الياباني غامض... لكن لِمَ هؤلاء الشعراء واضحون هكذا... اليابانيون

سحب مبهمة تمشي على الأرض... وهؤلاء الشعراء لماذا يريدون أن يكونوا الرّياح...

لم أعتبر أن ذلك اللقاء أعطاني الكثير، إذ كنت بحاجة إلى المقارعة سؤال بسؤال وجواب بجواب وفي جو أكثر إلفة وقرابة...

هكذا ارتأيت أن أدعوهم إلى بيت الأشباح ذاك واحداً واحداً، وفي كلّ مرّة اعتذر للمدعو عن وضاعة الأثاث الموجود... فيبتسم ويقول: لا، لا، لا بأس إنني أفهم...

كان لقائي الأول بعد تلك الأمسية بشهر وأكثر بالشاعر غوزو ـ يوشيماتسو... عندما جاء إلى الأمسية كانت معه آلة تصوير من النوع الممتاز على ما يبدو. فاعتقدت أنه المصوّر الذي لا بدَّ أنَّ كورا ـ روميكو قد دعته لالتقاط بعض الصور ثم الذهاب في حال سبيله... لكنه بقي ففهمت أنه واحد منهم... في لقاءات مماثلة حول موضوعات حميمية هكذا يؤثر الشاعر أن يتكلم لغته. ولذا كان معنا مترجم بين العربية واليابانية... قرب المخرج الشمالي لمحطتي كان ينتظر بقامته النحيفة ولباسه المتواضع... تجاوز الخمسين من العمر... ينظر إلى الأشياء المحيطة وكأنه يسائلها وهو ماشٍ لا ترتفع عيناه عن الأرض أو وهو واقف يراقب... تبادلنا الانحناءة اليابانية المعروفة واتجهنا إلى البيت... يمشي وكأنه يخاف على الدرب أن تنكسر تحت أقدامه ـ لماذا نراقب حركات الشعراء عندما نلتقي بهم، ولماذا نحبُّ أن نسألهم أسئلة خاصة جداً.. ألأنهم أحجيات وألغاز هكذا... كلّا، فقط لأننا نريد كشف أسرار ما يقولون... عندما فتحت له الباب ودعوته إلى الدخول، أحسست أنه ارتبك أو أنه شمّ رائحة العاهرات تلك التي شممتها عندما دخلت هذا البيت لأول مرّة منذ سنة تقريباً... جلس وكأنه يجلس على بيض أو زجاج... لحركاته قرابة مع حركات التصوير البطيء... يريد إظهار كلّ حركة بشكل مستقل تماماً... وابتسامة تعلو وجهه، لكنها مختلفة هي الأخرى عن ابتسامة اليابانيين الرسمية... صامتاً ينتظر الأسئلة مثل نمرٍ ينتظر الفريسة... ثم كان الحوار طويلاً. لم أطرح عليه أسئلة من داخل شعره، بل أسئلة عامة حول الشعر الياباني

الحديث. وهي الأسئلة نفسها تقريباً التي وجهتها إلى بقية الشعراء الآخرين... وعندما أخذ بالإجابة بدا لي إلى أي حد يمكن أن يكون عميقاً.. طريقة الحديث نوع من الكتابة بالنسبة إليه، هي إنتاج نص مستقل... انتهى الحوار وأخذنا الصور التذكارية وبقيت اتصالاتنا مستمرة... سوف أعرف فيما بعد أنه قد زار سوريا ولم يقل لي ذلك أثناء الحوار... وأنه كتب هناك قصيدته المشهورة «سفينة الموت» في رثاء زوجة صديقه المصور المشهور «أراكي – نوبويوشي»، وهي القصيدة التي سيكون عنوانها عنوان «ديوان الشعر الياباني الحديث» الذي نشرته سنة ١٩٩٣ والذي يحتوي على حواراتي مع الشعراء... وسوف أعرف فيما بعد أيضاً أنه يشكل واحداً من أهم تيارات الشعر الياباني الحديث الذي يرتكز على التقاط أصوات ونبرات الكون والوجود وتسجيلها كما هي في أصالتها، والإصغاء إلى القوى الخصبة، قوى الأرض ـ الأم... وعن هذا الإصغاء سوف يقول لي صديقه الشاعر، الكبير هو الآخر، تانيكاوا ـ شونتارو، مازحاً: ما الذي يحدث له، ينبطح ويلصق أذنه بالأرض ويأخذ بالإصغاء ويقول لي اسمع اسمع... والواقع إن يوشيماتسو مأخوذ جداً بمحاولة المطابقة بين الكلمات والأشياء، مأخوذ بتسجيل أدنى الاهتزازات في الكون ونقلها إلى عالم اللغة... وأنت أيها الذئب مأخوذ بالإصغاء إلى ما توحيه السماء حيناً وإلى ما توحيه الخمور أحياناً... لِمَ لا تصغي إلى عوائك عندما ينام النّاس وتقرع الأجراس ويُعلن الآذان...

الشعراء هم المفاتيح السريّة لفهم الشعوب.

ثم أخذت بالتحضير للقاء بالشاعر تانيكاوا ـ شونتارو... عندما لمحته لأول مرّة في الأمسية، فهمت فوراً أنه شاعر ويستحيل أن يكون صحافياً أو روائياً أو شيئاً آخر غير شاعر، إنه بالتأكيد قصيدة متحركة... واتفقنا على اللقاء في المحطة نفسها... وصلتُ وكان ينتظر بقامته النحيفة القصيرة... إنه أشبه بقصيدة هايكو... كان بيده كتاب ويلبس هو الآخر بطريقة متواضعة... لكن أنت معروف جداً باليابان وتقف وحدك بالمحطة ولا أحد يقترب منك ليسلّم عليك أو ليحصل على توقيعك كأي نجم... ابتسم وقال... لحسن الحظ ليست

لي صور ملصقة فوق الجدران والمحلات العامة ولا أحد يعرف أنني تانيكاوا، الآن، أنا معروف فقط بالكتب ولم نصل بعد إلى ما تقول وأرجو ألا نصل... دخل إلى البيت، دون تردد ودون ارتباك. جلس متربعاً على الكنبة وكأنه أليف المكان... حرّ في حركاته وطبيعي جداً في نظراته وأجوبته... لا يوحي بأنه من فوق فوق، بل من هنا، حيث نحن على الأرض... أسأله فلا يتردد في الإجابة... يجيب وكأنه كان ينتظر هذا السؤال أو ذاك... يتحدث وكأنه يقول: الشعر أمر طبيعي، عالم عادي، وليس بالصعوبة التي يتصورها الآخرون فهؤلاء يضخمون الأمور جداً... الشعر مثل الماء والهواء ولا أحد يستغرب الماء والهواء... لم يتردد أيضاً في تذوق الحمص والمتبل بالباذنجان، بل أخذ منهما لزوجته الجديدة والثالثة... هو الآخر رمز أحد التيارات الشعرية في اليابان، رمز تيار يدين بشدة وجوداً مرصوداً فقط للحظة الراهنة وللآن... لم يعد بإمكانك التوقف أيها الذئب، ولم يعد عندك وقت للعواء أو العويل، صار وقتك كلّه لهؤلاء الكاشفين عن الحجاب...

ولأنني كنت أريد لهذه اللقاءات والحوارات أن تكون مقدمة للمختارات المشار إليها سابقاً، فقد حصرت الأسئلة بما يمكن أن يساعد على إيضاح معنى الحداثة الشعرية في اليابان، ومن يقرأ الكتاب فسوف يكتشف ذلك.

وجاء أخيراً دور الشاعر هاسيكاوا ـ ريوسيه... هذا الكائن العجيب الغريب الذي يمشي وكأنه يقول أنا لست من هذا العالم، ولا علاقة لي بهؤلاء المحيطين بي... لستُ يابانياً ولا أريد أن أكون... يذكرني بمشهد جندي هارب من المعركة. دهشة وخوف مرتسمان على وجهه... نظارات سميكة... سمين وأكثر من مربوع... دخل إلى البيت وكأنه يقول: ماذا يريد هذا الأجنبي مني... جلس في المكان نفسه حيث جلس زملاؤه الآخرون... أجاب على الأسئلة بكثير من الوضوح. هاجم المجتمع الياباني بلا تردد، واتهمه بالانغلاق والسكونية وبأنه تقليدي ومتعصب لأشيائه جداً... من هذا الشاعر فهمت أكثر أني داخل ثكنة عسكرية كبيرة تديرها قوة باطنية لا أحد يعرفها أو يعرف طبيعتها... وبعد أن انتهى الحوار معه حول الشعر خرجنا إلى خمارة في

الحي... لم أستطع أن أترك الذئب يستيقظ جيداً، لذا شربنا يومها بهدوء لمدة ساعة ونصف ثم راح واختفى بين الجموع كأنه لم يكن... وعدت، عدت وأنا مسربل بالهواجس والأفكار، عدت إلى ثكنتي ذات الرائحة تلك... لم يعد للغربة معنى، ولم تعد قادرة على الهجوم، فأنا الآن لست وحيداً وإلى جانبي هؤلاء...

وتتالت اللقاءات مع شعراء آخرين أذكر منهم الصديق الشاعر أوكا ـ ماكوتو الذي ترجمت له كتابين إلى العربية، كما أذكر شعراء «تجمع الأرض» وعلى رأسهم الشاعر الصديق آكيا ـ يوتاكا الذي أقام حفلاً خاصاً للاحتفاء بصدور ديوان الشعر الياباني الحديث باللغة العربية، والذي يعتبر من رموز شعر البساطة والممثل للإحساس الشعري الياباني بامتياز.

في اليابان كل تيار شعري له جمعية ومجلة دورية... اجتماعات سنوية أو نصف سنوية... روح الجماعة أيضاً داخل الحركة الشعرية اليابانية هي التي تحرك كلّ شيء، لكن أيضاً بطريقة مختلفة عما نجده داخل مجموعات أخرى من طبيعة أخرى.

في اليابان لا وجود للفرد مهما كان مبدعاً وخلّاقاً إلّا داخل جماعة.

كلُّ اثنين قد يشكلان جماعة أو جمعية رسمية.

الياباني يعبد أن يكون مرؤوساً من قبل آخر أقوى منه.

الياباني يضيع وحده ويحتاج إلى آخر يدلّه.

لا دليل للياباني إلا الياباني وإلّا فإنه يكفر بالدليل أو يعبده.

لعلَّ روح الجماعة هي التي تقود العالم في المستقبل... وفي الماضي؟! لا؟

كانت لقاءاتي بالشعراء الهامش الأكيد الذي أتاح الصمود أكثر وأعطى لإقامتي هناك معنى. ولعلّي قد أجبت على جزء من أسئلتي الخاصة بالحداثة اليابانية من خلال تلك اللقاءات. كنت من خلالها أستدعي لقاءاتي بالشعراء العرب الرواد، وأتذكر مثلاً بلند الحيدري وأول لقاء به، أدونيس وأول لقاء به، أحمد عبد المعطي حجازي وأوّل لقاء، سعدي يوسف والآخرين وأول لقاء بكل

واحد... الياباني يستقبل بحرارة ويودع بحرارة، لكن حياته اليومية معك كصديق باردة لحد الجفاف.

لا أفهم لماذا يتمتع الياباني بمشاهدة الكوارث وهي تهبط على الآخرين. هل هذا جزء من تراثه القديم، أم هو حدث جديد في حياته الشعورية...

من الوثنية الرّوحية إلى ما بعد الحداثة

مقدمة ذاتية وغيرها...

ـ المرآة المقدسة.

ـ قانون الجدار الخفي.

ـ دورة الفراغ والعدم.

ـ الثوب المستعار.

ـ إلهان في إله واحد.

ـ «المؤتمر الملعون» تجاوز الحداثة.

أ ـ وقائعه.

ب ـ خلاصة نصوصه.

جـ ـ مقدمة للتساؤلات والتعقيبات.



المرآة المقدسة

من الأسئلة التي أخذت بطرحها بعد معرفتي النسبية بالمحيط الذي أنا فيه من الجامعة إلى الشارع إلى الأماكن الأخرى، هو كيف ولماذا وصل اليابانيون إلى مجتمع «حديث» بهذه السرعة. لن أصل إلى جواب نهائي. كلُّ جواب ينقض الآخر. لا تبدو على القامات صفاتُ الانطلاق، ولا ترشح الأقنعة بما وراءها، ولا يظهر السرّ. لا تزال مظاهر التخلف تدلُّ على نفسها تحت الثياب لتذكّر بالعصور السحيقة. ويمكن أن تُرى في علاقاتهم مع بعضهم حيث قانون السيد والعبد يرتّل أقواله مع كل الحركات. تراتبية دينية. وفوق الوجوه ملامح الجدع. غياب كلي للوعي الحداثي لدى الأفراد، بشر في أقفاص الحداثة... وبصعوبة بدأت أدرك أن كلّ ما في الأرخبيل معكوس عن بلد آخر. سوى أن اللّون محلي. لا يوجد شيء باليابان مثلاً لا علاقة له بالصين من قريب أو بعيد. الصين هي الأب القديم لليابان، ولا بدَّ من قتله مرات ومرات خلال التاريخ كي تتشكل الدّولة اليابانية. الابن يقتل الأب كي يحلّ محله. عقدة لن تحلّها سوى الحروب المتكررة على الصين وسوى التقدم أخيراً. ومع ذلك لا تزال موجودة بشكل أو بآخر. تلمس وتعاش على أكثر من صعيد. اللّغة صينية، والثقافة صينية، وكذلك الدّين والمطبخ. لا يوجد شيء في اليابان إلّا ويقال إن أصله غير ياباني. بدءاً من الحضارة الصينية التي صاغت اليابان تاريخياً، وإلى الحضارة الغربية التي صاغت ولا تزال تصوغ الأرخبيل منذ قرن وأكثر. الغرب هو الأب الجديد لليابان.

ما دور الياباني في كلِّ هذا؟ يأخذ ويطوّر. يعدّل. يضيف. في عينه عزم هائل على التنفيذ. عقله في عينيه ومن عقله في عينيه لا يخسر أبداً. شيء

غامض، مبهم يدفعه بقوة إلى الفعل. لا يهمه أن يكون هو الأصل. مع وجود عقدة من هذا الموضوع تظهر وتختفي، على صعيد الفرد، وعلى صعيد الأمة. بعد كلِّ ظهور من ظهوراتها كانت حرب وكان غزو. له عينان قادرتان على عكس كلِّ شيء. إنّهما كالمرآة. وللمرآة أسطورة. فهي من الأشياء الثلاثة المقدسة التي يعتقد أنها مكان العزة الإمبراطوية. المرآة. السيف. الجوهرة أو الحلية أو العقد. أشياء رمزية مقدّسة لعلاقتها التاريخية الأسطورية بالأصل الإلهي الأول لأباطرة اليابان. يحكى أن: الإلهة الكبيرة أخذت المرآة الثمينة بيديها وأعطتها لابنها قائلة: يا بني إذا نظرت إلى هذه المرآة. فكأنك تنظر إليّ أنا. احفظها معك في السرير نفسه، وتحت السقف نفسه، إنّها مرآتك المقدسة. ثم أضافت عقد النجاح الدائم والمستمر وسيف النجوم المتكدسة، فأكملت هكذا الكنوز الثلاثة، وقالت له: أضيء العالم ببريقٍ يشبه بريق هذه المرآة. وسِدِ العالم بقوة هذا العقد الخارقة. أخضع من لا يطيعونك بسل هذا السيف الإلهي... انتهى كلام الإلهة. إنّها الرموز الإمبراطورية الثلاثة... للمرآة شكل الشمس. في العقد جوهر القمر. وفي السيف جوهر النجوم... سيف بسبعة فروع... المرآة لا تملك شيئاً بذاتها، لكنها تعكس، ودون رغبة أنانية، جميع الأشياء وتكشف عن خصالها. فضيلة المرآة في ردة فعلها على خصال الأشياء. ولذا هي مصدر العزة والشرف. فضيلة العقد في وداعته ونعومته وتواضعه. فضيلة السيف في قوته وحزمه، لذا هو مصدر الحكمة... «كيتاباتاكي ـ تشيكاموسا» (١٢٩٣ ـ ١٣٥٤)... الإمبراطور سليل الآلهة التي خلقت اليابان... أسلافه الشمس والنجوم والقمر...المرآة، العقد، السيف، أفضل شواهد لعصر ما قبل التاريخ... للمرآة سحرها السري. وللسيف قوة دون نظير، وللعقد قدرة جذب هائلة...

العيون، المرآة، آلة التصوير. أشياء من عائلة واحدة. عائلة العكس والقلب والإعادة. آلة التصوير المقدسة. هي مرآة. لا ينبغي للمرآة أن تعكس سوى الآلهة، سوى الأقوياء، سوى الخصال دون العيوب. ولا تستطيع في الأساس أن تعكس سوى هذا. الإلهة الكبيرة في الداخل. وإذاً، لن تعكس هذه المرآة غير الآلهة وغير أولادهم...

هل أحمل مرآة لأرى ما فيها، لأراني، وأرى التاريخ المعوج قليلاً، لأرى طيات نهودٍ وخفايا ثيابٍ، هل أحمل مرآة في الصحراء وأمشي. لا أعلمُ، لا أدري. لم أفهم شيئاً. عَبَثٌ يتراءى من خلف مرايا. ويبدو المعكوس أنا منذ دخولي. أحتاج لمرآةٍ تعكس ربي وسلالة أشيائي...

كلماتٌ تعكس أخرى. وذئاب تعوي، الصَّوتُ مرايا وصداي هو المعكوس. عَبَثٌ في أطرافِ المرآةِ. ورياحٌ برياحٍ لا تُعكَسُ في مرآةٍ. صوتي يعكسه صوتي. وإلهي يسكن في فنجانٍ أو مرآة. عَدَمٌ هذا اللَّغوُ. عَدَمٌ هذا الآتي من جهة العقد. جهة السّيف أو جهة المرآة. «أماتيراسو» أعطته الأشياء، الأوّلَ والثاني والثالثَ بعد قليل...

هل أحمل مرآة لأرى ما فيها، لأراني وأكسرَها...

أكسر ذاتي وأعود إلى مرآتي...

قانون الجدار الخفي

لعلَّ أسلم درب إلى مقاربة الذهن الياباني هي كلمات مثل: تقليد، محاكاة، إعادة، وإعادة إنتاج، عكس، قلب، وفي هذه الكلمات يوجد الكثير من عناصر الحداثة اليابانية. منذ أكثر من قرن، أي منذ عصر ميجي ١٨٦٨ ـ لا عمل لليابان إلّا الأخذ عن الغرب وتقليده في شتى المجالات. لقد نقل الغرب إلى الشرق الأقصى بحذافيره وأكثر، نقل الغرب الحديث، غرب ما بعد الثورة الاجتماعية والصناعية، أما غرب القرون الوسطى فلا أحد يقدّم عنه الكثير في اليابان. لم يهتم الياباني بذلك الغرب ولا يعنيه. ولم يكن بحاجة إلى فهمه وبالتالي إلى تقليده. ومن نافل القول أن الثورة المعرفية في الغرب سبقت الثورة الصناعية، ولولا تلك لما حدثت هذه وحدث التقدم. كانت ضرورة لا بدَّ منها بالنسبة إلى المجتمع الغربي... فلا تقدم ولا حرية مع القيم الثقافية الغيبية التي كانت تحكم المجتمع... وجاءت الثورات المعرفية واحدة تلو الأُخرى لتنهار الكنيسة وقيمها انهياراً شبه تام... لم يعد للكنيسة ذلك الدّور، ولم يعد الرّاهب هو مختار الحارة... وجاءت القوانين والدساتير المدنية لتحل محلَّ القوانين الإلهية... حكاية الثورة المعرفية وما تلاها في الغرب لا تحتاج إلى إعادة، فهي

أشهر من أن تعاد... المقصود هو أن المجتمع الياباني بقيمه الثقافية والدينية الموجودة لم يكن بحاجة إلى مثل تلك الثورة، لم يكن للرّاهب البوذي وللمعبد ذلك الدور الذي لعبته الكنيسة في الغرب... والقيم الثقافية اليابانية «الدينية» (بين قوسين لأن كلمة دين يجب ألّا تأخذ معناها التوحيدي كما في الديانات السماوية) لم تشكل عائقاً في وجه القيم الثقافية الغربية الحديثة الواردة إلى المجتمع الياباني، وبالتالي وجدت هذه الأخيرة مكاناً شبه محجوز لها في كلّ بيت ياباني... لذلك لم تكن هناك حاجة إلى ثورة معرفية بالمعنى الذي حدث في أوروبا... وفي الأساس لم تكن هناك معرفة متجذرة في ذهن الياباني تقوده، وتقود سلوكه. كما هي الحال بالنسبة إلى المعرفة الدينية التي كانت وراء كلّ سلوك في أوروبا القرون الوسطى... هناك أفكار غير معقدة تفهم الكون والعالم فهماً خاصاً هو أقرب إلى الفهم العدمي الحديث منه إلى الفهم الديني الذي يربط كلَّ شيء بإله متعالٍ... لا معنى للكون خارج الكون، ولا معنى للوجود خارج الوجود، ولا معنى للإنسان خارج الإنسان، وفي الإنسان حقيقة الإنسان والكون... هكذا يرى الياباني البداية والنهاية دفعة واحدة في هذا العالم، لكن بطرق خاصة لا علاقة لها بالطرق التوحيدية المعروفة في اليهودية والمسيحية والإسلام.

البوذية «ديانة» واردة إلى اليابان، من الصين، من الهند. لكنها كُيِّفت مع الواقع الياباني دون نقض الجوهر والأساسيات. جميع «التيولوجيات» البوذية نسّقها الياباني جانباً. بحث عن البسيط والمتواضع فيها. عما يمكن أن تعكسه المرآة بخصاله الظاهرة دون الغوص. دون اللّف والدوران. هكذا، وفق تقاليد بوذية يابانية تعود إلى القرن الثالث عشر أو إلى ما قبل ذلك بسبعة قرون، بإمكان كلِّ إنسان بلوغ الخير المطلق، أو الشر المطلق، الجنة أو النّار، وذلك حسب ما يريد ويرغب. يستطيع كلّ إنسان أن يصير بوذا، وإذاً أن يسلك سلوك رحمة ونكران ذات مع جميع الأشياء. بوذا هو الحقيقة الخالدة. ويمكن لهذه أن تكون فينا كما هي فيه... وإذاً لا معنى للبحث عن عالم آخر، أو للبحث عن جنة، أية جنة... بالانسجام مع الطبيعة الواقعية الحقيقية للعالم،

يستطيع كلُّ إنسان أن يشعر بالوحدة مع بوذا. وبالتالي يصير العالم، ليس مجموعة آلام، بل كتلة من السعادة التامة. في كلٍّ واحد منّا إمكانية أن يعيش في هذا العالم جنة أو جحيماً... إن تفكيراً بوذياً مماثلاً يتطلب تطابقاً وتماهياً بين الحياة الدينية والحياة اليومية، ومن ثم الحياة الوطنية... هذا بعض، وبعض أساسي، مما يعيشه الياباني المعاصر... كلُّ شيء يجب أن يعاش، أن يفهم، بالحدس، بالتجربة... لا يتردد المؤمن البوذي في أن يضرم النّار في تمثال خشبي لبوذا من أجل أن يتدفأ عليه خلال ليلة باردة... لذا عندما يعيش الياباني المعاصر التقدم والحضارة، ويحقق لنفسه السعادة من خلال ما توفره الحياة المعاصرة، فهو يمارس قواعد دينه ويطبق أركانه. بالوصول إلى الحداثة، يتم الوصول إلى حالة البوذانية العليا... فأية معجزة في أن يمارس الإنسان دينه ويطبق تعاليم ذلك الدين!! بهذا تبدو اليابان أعمق بؤرة دينية في العالم المعاصر...

الكونفوشيوسية هي الأخرى «ديانة» واردة إلى اليابان من الصين. وكيّفت مع الواقع الياباني أيضاً دون نقض الجوهر والأساسيات. غايتها حياة عائلية واجتماعية مثالية. يعني خلق جنة على الأرض. ووفق التعاليم الكونفوشيوسية، يستطيع كلُّ إنسان أن يوحِّد بين المعرفة والفعل، ويصبح إنساناً عظيماً. وحدة تلج كلَّ شيء. فتصبح السماء والأرض وجميع الكائنات شيئاً واحداً، كلّاً واحداً. الوجود هو روحي وروحي هي الوجود. لقد ظلّت تعاليم الكونفوشيوسية تُدرَّس في مناهج التعليم اليابانية إلى ما قبيل الهزيمة سنة ١٩٤٥ . ثم حذفت بعدها. يبدو أن هذه «الديانة» قد أثرت تأثيراً كبيراً على جميع طبقات المجتمع في القرن التاسع عشر. صيغت المذاهب من أجل كلِّ طبقة، وحسب درجة ترتيبها. لكن المذهب الخاص بطبقة الساموراي، أي طبقة المحاربين هو الذي عُرف أكثر وانتشر أكثر: كيف يجب على الساموراي أن يوحد بين سلوكه كمحارب وبين سلوك رجل المعرفة والعلم. على الساموراي أن يطيع سيده إطاعة عمياء ودون تفكير (مَنْ يتذكر حكاية الأربعين ساموراي الذين ثأروا لسيدهم ـ قائدهم المغدور به، ثم انتحروا. هذه هي ثقافة الـ بوشيدو، طريق المحاربين). المعرفة تقود الفعل، والفعل يدرِّب المعرفة ويعمقها.

التجربة الشخصية أهم من البحث المعرفي. المعرفة تأتي فجأة، لأن علينا أن نتعلم بأنفسنا المبدأ، والنظام الشمولي الدائم. الساموراي وفيٌّ لأصدقائه، مخلص لعمله ومهنته قبل أي شيء آخر. خارجياً، يجب أن يكون مستعداً لتلبية أي نداء، داخلياً عليه أن يتصرف حسب العلاقات التي تحكم بين السيد والعبد، بين الصديق والصديق، بين الأب والابن، بين الأخ الكبير والأخ الصغير، بين الزوج والزوجة... وجّهت الكونفوشيوسية في اليابان توجيهاً نفعياً، عملياً ــ لم تعد التعاليم تعنى بخلاص كلّ واحد وحسب، بل وبخلاص ورفاهية العالم. من الفرد إلى العائلة إلى المجتمع... حذفت من المناهج بعد الحرب. لأنها استخدمت كغطاء روحي للجنون العسكري الذي جاء بالهزيمة... لا تزال في العادات والممارسات اليومية اليابانية آثار واضحة وقوية لتعاليم الكونفوشيوسية ولتعاليم البوذية.

... سوف لن تستطيع أية ديانة توحيدية، مهما بلغت أدواتها من الدقة والطاقة، اختراق المجتمع الياباني بشكل جدي وعميق. ولا حتى بأي شكل آخر. هناك جدار غير مرئي دون ذلك. إنه جدار «الدّين» الوطني المحلي.والدين الوطني الياباني، غير القابل للتصدير قطعاً، هو الشنتوية. أي «طريق الآلهة». هذا هو معنى كلمة «شينتو». طريق الآلهة. طريق الآلهة. طريق خاص بالياباني. يمكن أن تصير بوذياً، أو أن تصير كونفوشيوسياً، لكن لا يمكن أن تصير شينتوياً، فقط لأنك لست من السلالة اليابانية الخالصة. ولا يمكن أن تكون يابانياً إلا إذا خلقت يابانياً. الشنتوي ياباني بالضرورة، والياباني شينتوي بالضرورة، أيضاً. أنت ياباني، إذاً، أنت شينتوي، والعكس صحيح. كلُّ ياباني بوذي أو غير بوذي هو شينتوي في العمق والأساس. الشينتوية هي الهوية الوطنية الوحيدة لكل ياباني. في اليابان وجدت منذ أقدم العصور، وسوف تبقى باليابان إلى آخر الدهور. هكذا، تبدو اليابان ــ لنكرر القول ــ أعمق بؤرة دينية في العالم.

لكن ما هي هذه «الديانة» الشينتوية؟ ليست ديناً سماوياً موحى، وهي في هذا كالبوذية والكونفوشيوسية، ولذلك لم تصطدم معهما عندما دخلتا إلى

منطقتها، لا بل رحبت بهما، لأن تعاليمهما تدعم وتكرّس جوهرها. لا نبي لها ولا مؤسس. ولا ترتكز على أي نص. إنّها قبل كلِّ شيء موقف من الحياة: تمجيد احترامي للطبيعة في قوتها وجمالها، تعبير عن احترام الطبيعة في شدتها وبهائها. المعبد الحقيقي للشينتوية هو الطبيعة، سواء كانت وحشية عذراء أو اصطناعية امتدت إليها يد البشر. الآلهة حاضرون فيها موجودون، حاضرون في الإزهار، وفي النمو، وفي الإيراق، في مياه الجداول والسواقي، في موجة مجنونة أو هادئة،في نار العواصف، في فوهة البراكين، أو في مياه حقول الرز الوديعة. بعيداً عن ضجيج العالم والبشر، يحمي أماكن العبادة، أو المعابد، حاجز نباتي تخترقه طرق مُعَلَّمة بأروقةٍ تشير إلى القداسة... إذا كان للشينتوية مكانة مميزة على الدّوام، فذلك لأنها الدّين الوحيد الذي يرتكز على ميثولوجيا وطنية ضخمة، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأصل الأول للعائلة الإمبراطورية. أقدم النصوص ــ كوجيكي، نيهون غي ــ تعود إلى القرن الثامن. وهي عبارة عن سرد أسطوري أو ميثولوجي، للتسلسل التاريخي الإمبراطوري. والشخصية المركزية في هذا التسلسل هي الإلهية «أماتيراسو»: الشمس التي ينير وجودها السماء... هي التي أعطت لابنها المرآة والعقد والسيف.

على الرّغم من أن جميع الديانات الواردة إلى اليابان، تمتعت ببركة الأباطرة والحكام، إلّا أن الشينتوية ظلّت، وتظل، من خلال نزوعها المطلق إلى الطبيعة، إلى النقاء، إلى عظمة وحبّ الوطن داخل قلب كلِّ ياباني. «إنها، كما يقول مؤسس اليابان التاريخية وحامي البوذية الكبير الأمير «شوتوكو ــ تايشي» (٥٧٤ ــ ٦٢٢) م الجذور والكونفوشيوسية هي الجذع والأغصان، والبوذية هي الأوراق». هي العمق الوطني الخالص الذي يحكم أي موقف. للبوذية وللكونفوشيوسية مجلدات في الفقه والتعاليم، لكن لافلسفة للشينتوية، ولا قوانين في علم الأخلاق والسلوك، ولا ميتافيزيقيا. وعندها قدرة هائلة على مقاومة الأديان السماوية التوحيدية. لكن استقبلت ولا تزال جميع العلوم والمعارف الحديثة. إنها دين شفوي، وحقيقتها ليست في الكتب، ولا في الطقوس ولا في التعاليم، بل في القلب الوطني الذي هي تعبيره الأرقى عن الشعور الديني... هي الخالدة والفتية على الدوام.

دورة الفراغ والعدم

لا توحيد في اليابان ولا غيبية، ولا أي شيء من هذا القبيل. المعارف الميتافيزيقية غير موجودة. لم توجد ولن توجد. ولهذا فإنَّ الياباني لا يستخدم الخيال. لا يستطيع أن يتخيل. لا يقدر على التذهين والتجريد. لا يستطيع أن يرى إلّا ما هو مطروح أمامه، كما قال في حواره معي الشاعر هاسيكاوا ـ ريوسيه ولذا فهو قوي جداً في التقليد... ولا أحد يجاريه. جاءه أمرٌ امبراطوري (إلهي سنة ١٨٦٧) بضرورة اللحاق بالغرب، بضرورة نقل الغرب إلى الشرق... وها هو الغرب بين أيديكم في الشرق الأقصى... لقد تحقق الأمر الإلهي بأقل من نصف قرن...

بالنسبة إلى الياباني، لا فرق بين إبداع وتقليد... لا وجود للأصل. الأصل هو تقليد لشيء آخر، لأصل آخر، وهذا بدوره تقليد لأصل أقدم، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية داخل دائرة مفرغة، هكذا تصل مع الياباني إلى حالة عدم... لكنه العدم الإيجابي لا العدم السلبي الذي وصلت إليه الحضارة الأوروبية عندما انهالت على الله وعلى القيم الروحية ففرّغت الوجود من معانيه السابقة لتجد نفسها أمام معانٍ أخرى، لكن مادية بحتة... وجاءت عبادة المادة والتقدم والاستهلاك، وجاء شعور الفرد بالفراغ والخواء والعدم، وجاء الياباني ليدفع هذه العبادة إلى أقاصيها لحد أن يذوب في النيرفانا المادية... هكذا يعود إلى نفسه وإلى أصله... إنه العود الأبدي للعدم، إنه الحاضر الأبدي... لا بدَّ للتقاليد اليابانية أن تذوب وتضيع كي تجد نفسها وتعود إلى جذورها.

لم يكن للياباني، وليس له الآن، إله ينهال عليه لأنه يعرقل مسيرة المجتمع. بالعكس، جاء الأمر الإلهي ـ الإمبراطوري بالانفتاح على الغرب وأمريكا بلا حدود، وبتقليد أوروبا وأمريكا بلا حدود وللتقدم المادي بلا حدود... إنها «فلسفة» العدم المادي...

لا توجد لدى الياباني عقدة أنه ليس أصلاً، وأنّ ما عنده مأخوذ من الغرب. يعتز بقدرته على الأخذ والتقليد مع الحتفاظ بنكهة المنقول عنه والمقلّد.

فهو بذلك يطبق مبدأ شعرياً، وروحياً، معروفاً ومتجذراً في تراثه، يعيشه ويطبقه بشكل غريزي: إنه مبدأ الـ: «هونكا ـ دوري»، أي الأخذ من الأغنية الأصلية... عندما وصل الشعر الياباني القديم إلى حالة الأزمة، حالة المأزق، أوجدوا هذا المبدأ: لا بأس، لا يوجد جديد!! إذاً يمكن الاستناد إلى قصيدة تانكا قديمة معروفة لكتابة قصيدة تانكا جديدة بشرط أن يحافظ على ما يشير إلى القصيدة الأصل... عملية تهجين واضحة... والشيء نفسه ينطبق على النقل الحضاري، حضارة أوروبية متقدمة وجاهزة تمنح السلطة والقوة وتحكم العالم، إذاً إلى هناك، وفي ذاك الاتجاه أيها اليابانيون المتخلفون ودون تردد ودون حسابات، وهكذا سوف تكون لدينا أغنية حضارية متقدمة ومختلفة عن الأوروبية في الوقت نفسه، وفي الوقت نفسه نحافظ على نكهة المأخوذ عنه، وهذا ما حدث... لم يكن هناك معبد بوذي أو شنتوي يقف في وجه هذه الخطوة... بالعكس، باركت المعابد وبارك الرهبان من جميع المذاهب هذه الخطوة طالما أن الأمر جاء من الإمبراطور ذي الصبغة الإلهية وطالما أن «المثقفين» جميع «المثقفين» يلتفون حوله.

هناك بعض الأصوات التي ارتفعت من حين إلى أخر لتقول أن التقاليد اليابانية في خطر، وربّما تزول مع الوقت، ولا بدَّ من الحفاظ عليها، لكن بقيت مجرد أصوات اعتزلت الحياة العامة وانتهت في عزلتها.

في البداية أرادوا نقل التكنولوجيا فقط من دون الثقافة الأوروبية ولكن سرعان ما فهموا أن الأمر شبه مستحيل... نحافظ على الروح اليابانية القديمة، على القيم والتقاليد، ونأخذ التكنولوجيا لا غير... لكن هذه الأخيرة تحتاج إلى روح حديثة من الطبيعة ذاتها كي تتماشى معها... لم يتأخروا... أدركوا الأمر، فسارعوا إلى نقل الثقافة أيضاً... وأخذت ورشات الترجمة بالعمل... ورشات حقيقية للترجمة والنقل عن جميع اللّغات الأوروبية... عن الفرنسية والإنكليزية والألمانية والإيطالية وغيرها... لا يوجد عمل أدبي منذ عصر الأنوار حتى اليوم لم يترجم ترجمة كاملة... القوانين المدنية... العقود الاجتماعية، طرق التدريس والتربية، العلوم الاجتماعية والنفسية، كلُّ هذا نقل نقلاً أميناً وعُمِّم تعميماً أميناً

داخل المجتمع الياباني... لم تكن هناك ثقافة يابانية بحجم المنقول تستطيع الصراخ ها أنا في خطر، كانت هناك ثقافة محصورة بفئة اجتماعية صغيرة جداً، هي الفئة الغنية، أو هي جزء من هذه الفئة، في حين كانت الغالبية الساحقة من اليابانيين أميّة لا تقرأ ولا تكتب وهمّها الوحيد العيش والحياة... لم يكن هناك دين أو ثقافة دينية، بالمعنى الغربي والإسلامي، تحكم سلوكات هذه الغالبية في العمق، كما هي الحال مثلاً في المجتمعات الإسلامية حيث الغالبية الساحقة لا تقرأ ولا تكتب لكنها محكومة بوعي ديني يحرّم عليها حتى مجرّد الاتصال بأي «كافر» مهما كان متقدماً؛ أو كما كانت الحال أيام القرون الوسطى في المجتمعات الأوروبية حيث كانت الكنسية المسيحية تحتكر القراءة والكتابة وبالتالي المعرفة وحيث كانت الغالبية الساحقة من الأوروبيين آنذاك أمية لا تقرأ ولا تكتب ويحكمها وعي ديني يُحرّم عليها القول إن الأرض كروية أو إنها تدور حول الشمس، يُحرّم عليها كلَّ ما يناقض أو يخالف تعاليم الكنيسة والرّاهب جملة وتفصيلاً... لم يكن الدين بالنسبة إلى تلك الغالبية من اليابانيين خبزاً يومياً أو ذريعة لإثبات الوجود وإقصاء الآخر... كيف يجب أن أعمل لكي أعيش بشكل أفضل، هذا ما كانت تحلم به تلك الغالبية...

الأمر ليس بعيداً، فقط في سنة ١٨٦٨ وبعد الإطاحة بنظام، حَكَمَ اليابان قرنين ونيفاً، كان أوّل أعمال نظام الإمبراطور ميجي هو وضع حد نهائي لإغلاق البلد أمام العالم الخارجي، ذلك الإغلاق الذي بدأ سنة ١٦٣٥ ... واندفع الإمبراطور يحيط به حكام جدد إلى غربنة اليابان... طاقات خام... طاقات لم تستخدم مدة قرنين... أفواه جائعة ومستعدة للموت من أجل حياة أفضل... أفواه جائعة لن تخسر شيئاً إذا لم تربح... وإذا لم نشبعها نحن لتستمر في خضوعها التاريخي لنا، فإن السفن الغربية على شواطئنا وفي محيطنا سوف تأكلنا وتأكلها... وكانت الخطوة الأولى محوّ الأمية... إقامة مدارس، نشر التعليم، إنشاء الجامعات والمعاهد، إرسال البعثات التعليمية إلى جميع أنحاء أوروبا... قرنان ونصف من الخضوع للسّجّان حتى نسينا تماماً ما معنى اللا خضوع... وانفتح الباب لهذه النمور المسجونة المكبوتة المذلولة منذ قرنين

ونصف... لا شيء يوقفها الآن إذ اعطي الأمر لها بالانقضاض... الياباني ينتظر الأوامر فقط... بارع في تنفيذها وعبقري في إنجازها... لا توجد طوائف ومذاهب دينية تهدد الوحدة الوطنية بالانهيار... قرنان ونصف من الصهر داخل الفرن الوطني... قرنان ونصف من التوحيد والقولبة... قرنان ونصف داخل هذه الجزر الضيقة الصغيرة... فكيف لا يعبدها الياباني ويعبد أشجارها وأنهارها وجبالها... إلى عهد قريب جداً كان جبل فوجي لا يزال يُسمّى «الجبل المقدّس» وكيف لا يعيش بالتساوق معها وعلى إيقاعها... لا يرى غيرها فكيف لا يعبدها... وكيف لا يجعل من كلّ شيء فيها إلهاً معبوداً... قرنان ونصف في هذه الجزر البديعة ولم يخطر على بال ياباني واحد أن يجعل من نفسه نبياً مرسلاً يدعو إلى ما دعا إليه الأنبياء عندنا منذ آلاف السنين... ألم يسمعوا بهم... قرنان ونصف، وقبلهما الله والمؤرخون أعلم، لم يشرب الخمرة اليابانية الساخنة أجنبي مثلي فوق أرض هذا الأرخبيل...

على أية حال لا يوجد يابانيون كثيرون يحنون إلى ذينك القرنين والنصف، أو يتمنون عودة روحهما، فهما علامة تساؤل كبير في تاريخ اليابان المعاصر. لكن من المؤكد أنهما لعبا دوراً كبيراً في تكوين الياباني النفسي والعقلي وفي تمتين علاقته بجزره... ولا يكاد يفهم كيف حدثت هذه النقلة: من التخلف إلى قمة التقدم عاشها ويعيشها بشكل آلي ودون أي تفكير جدي وعميق بكيف ولماذا... يسير فقط، هناك من يدفعه فيسير. لا يهمه لماذا وكيف. هذه الـ: لماذا وهذه الـ: كيف يفكر بهما غيره، وهذا الغير قد يكون أوروبياً أو أمريكياً... أولاد الشمس المشرقة لا يعذبون أنفسهم بالتفكير والتحليل والاستنتاج. فقط يراقبون الفعل ثم يقومون بردة فعل مماثلة. ولا غضاضة في الأمر ولا هم يحزنون.

لم ينته القرن التاسع عشر ويبدأ القرن العشرون عقده الأوّل حتى كانت الأمية قد شارفت على الانتهاء. سرعة مذهلة في الوصول إلى الهدف وسرعة مذهلة في تنفيذ الخطط والبرامج... وصيغت النّمور كما أريد لها أن تكون... نمور تقرأ وتكتب الآن وأكثر... نمور شيدت مصانع الأسلحة من كلّ نوع

آنذاك... وصار النظام يحلم باكتساح الجيران واستعمارهم... ولِمَ لا، أليست أوروبا هي النموذج للتقدم والحداثة، والاستعمار أيضاً. هكذا ولدت في اليابان الحداثة ونزعة استعمار الجيران في وقت واحد... خليط انفجاري، كما يقول أوكا ـ ماكوتو، من المحاكاة السريعة للنماذج الأوروبية ومن النزعة الوطنية الرجعية...

أفواه جائعة لا تخسر شيئاً إذا لم تربح، استخدمها الحكام الجدد، بعد اللّقمة الأولى وبعد محو أميتها، في السيطرة والغزو... أفواه جائعة رضعت حليب الخضوع للسادة والأقوياء مدة قرنين ونصف. الياباني لا يقاوم إذا لم يأته أمر بالمقاومة، وإذا جاءه الأمر فدونه الهدف أو الموت... لا يوجد دين بوذي يدعو إلى المقاومة، ولا دين شنتوي يدعو إلى المقاومة... أفكار هذين الدينين، وهما السائدان باليابان، تعنى بالدعوى إلى التساوق والانسجام مع قوانين الطبيعة، إلى تقليد الطبيعة وظواهر الطبيعة، وبالدعوة إلى الامتثال لكلِّ ما لا قدرة لنا عليه، والامتثال بالنسبة إلى مفاهيم هذين الدينين متبادل بين القوي والضعيف: كلاهما تابع للآخر. والقول أو الظن بالاستقلال المحض والذاتي لا معنى له. إن هو إلّا وهم خالص وسراب يلاحقه المؤمنون... الحقيقة تابعة للوهم والوهم تابع لها... تبعية متبادلة بين الأشياء في هذا العالم ولا مخرج ولا حلَّ... دائرة مفرغة يعيشها الإنسان منذ ملايين السنين وسوف يعيشها إلى ما لا نهاية... الظلمة تابعة للنور وهذا تابع لها، النصر تابع للهزيمة وهذه تابعة له، لا يوجد تناقض، بل تبعية وامتثال متبادلان بين جميع الأشياء... الفراغ والامتلاء لا يتناقضان بل هما تابعان الواحد للآخر، الوجود والعدم لا يتناقضان، بل يتبع واحدهما الآخر لحد العدم... عدم وسديم يعيشهما الإنسان منذ ملايين السنين وسوف يعيشهما إلى ما لا نهاية... عاش وسوف يعيش العود الأبدي للعدم إلى ما لا نهاية أيضاً. هذه الأفكار وغيرها كثير ومشابه مغروسة في دم الياباني، وهي الحليب الذي يرضعه منذ الولادة لا بل وهو جنين، هي المكوِّن الأساسي له... تبعية إذاً، وليكن... فلندفع هذه التبعية إلى أقصاها... والحداثة ظاهرة من ظواهر الطبيعة، وظاهرة قوية تستحق التقليد،

وتستحق أن نتبع قوانينها ونعيش بالتساوق معها... ولنكن تابعين لحد الذوبان إذاً... امتثالنا لها بلا حدود... وفعلاً لم يخطىء الياباني، امتثل للحداثة وخضع لها وطبّق قوانينها وأوامرها حتى صارت الحداثة تابعة له وجزءاً من شخصيته اليوم. كي تكون الشيء لا تقاومه، امتثل له خاضعاً وتابعاً ناكراً ذاتك نكراناً مطلقاً... تلكم هي عبادة الياباني للحداثة.

الثوب المستعار

لا يعبد الياباني شيئاً لا يراه. استعار من الحداثة جميع مفاصلها النفعية، وجميع مظاهرها العمرانية والتقدمية والتكنولوجية. تعلّق بالظاهر وعبده. أما الفلسفة والفكر اللّذان وقفا وراء تلك الحداثة، فلم يستطع تمثلهما بعمق وبقي على الأطراف، فهم النتيجة وتعلق بها وعاشها ولا يزال، لكنه لم يستوعب المنطق الذي قاد إليها. الفلسفة والمنطق من ألدّ أعداء الياباني، لا يحبهما ولا يفهمهما ولا يدخلان في مناهج تربيته إلّا من قبيل الذكر لا أكثر. وفي هذا يبدو التناقض الكبير بالنسبة إلى ذهن منطقي: كيف تحدثت اليابان إذاً. طبعاً ترجمت كتب الفلسفة الغربية بالكامل، وظلّ استخدامها محصوراً في إطار ضيق جداً. لا يستطيع الياباني استيعاب وتمثل الأشياء المجردة، النظريات الغيبية، الفرضيات كما تطرحها الثقافات الميتافيزيقية، ولا يهمه استيعابها أو تمثلها طالما أنه لا يحتاج إليها في الحياة اليومية وفي العلاقات الاجتماعية، وطالما أنّها لا تؤدي له أية خدمة أو اية منفعة مادية واضحة. ولهذه الأسباب وغيرها لم تستطع المسيحية دخول المجتمع الياباني بشكل جدّي وعميق. هناك كنائس متعددة تحاول نشر الدين المسيحي، لكن لا يتعدى ذلك القول: أنا أصبحت مسيحياً... ولي على هذا الصعيد تجارب متعددة مع يابانيين مسيحيين أو يقولون عن أنفسهم إنهم كذلك... يبدأ الحور وأسأل ببساطة: لماذا أنت مسيحي، ثم ما معنى مسيحي، هل تعتقد أن المسيح هو الله، ما هي طبيعة المسيح... ثم يأتي الجواب بعد علكٍ للصوت وبعد تردد: أنا مسيحي لأنني أومن بالمسيح... لا يعرف كيف يداول الجواب، أو كيف يفلسف القضية كما

قد يفلسفها مسيحي من الغرب أو من الشرق العربي... وعندما أشرح له وأفلسف الموضوع وأقول إن طبيعة المسيح كانت ولا تزال محلّ نقاشات فلسفية عمرها قرون وأن الفكر المسيحي الغربي تناولها بدعم أدوات فلسفية وأن هناك علاقة متبادلة بين الفلسفة والمسيحية وأننا نتعلم هذه الأشياء وغيرها كثير في المدرسة المتوسطة وربما قبل ذلك في البيت... تجحظ عيناه دهشة ولا يفهم... فيذكرني إيمانه المسيحي بإيمان أوروبي من القرون الوسطى، مع فارق واحد هو ان ذاك الأوروبي كانت تجري المسيحية في دمه وتحكم سلوكه اليومي ولم يعش الحداثة، في حين أن هذا الأستاذ الجامعي الياباني لا يتجاوز إيمانه عبارة: أنا مسيحي ويعيش الحداثة بكامل أناقتها دون تناقض في نظره. من المؤكد أنني أفهم الإيمان البسيط غير المعقد في القرون الوسطى، كما أفهم إيمان مسلم بسيط في البادية مثلاً، لكن أفهم أيضاً لماذا دهش هذا الياباني... يصعب عليه الدخول في قضايا مجرّدة ولا يستطيع فلسفة الأمور ومداولتها منطقياً ولو بشكل بسيط. وهو مسيحي لسبب من الأسباب: إمّا نكايةً بالإمبراطور ونظامه وإمّا لأن المسيحية على الموضة في الشارع الياباني، وإمّا بسبب علاقة معقدة مع الأم... الياباني يقدّس أمه بشكل عام، ويجد بعضهم في مريم العذراء مثالاً للأم... ولي تجارب كثيرة مع مبشرين يابانيين شباب ينتقلون من بيت إلى آخر ومعهم كتيبات بكلّ اللغات العالمية تقريباً، ويريدون هدايتي إلى المسيحية... وعندما أسأل أحدهم: منذ متى أنت مسيحي؟ يجيب مثلاً منذ سنة أو نصف سنة أو سنتين، لكن لا يعرف من المسيحية سوى الاسم، على عكس مبشرين شباب في باريس يستخدمون الطريقة نفسها... كنت أبقى في حوار معهم لساعة أو أكثر من قبيل ممارسة اللغة الفرنسية على الأقل... هؤلاء يباشرونك بالأدلة الفلسفية فوراً ويستخدمون الحجج المنطقية المعروفة في تاريخ الفكر المسيحي... عدد غير قليل من اليابانيين يجرّب المسيحية ـ طبعاً على طريقته ـ فترة من الزمن، ثم يكتشف أنها غير عملية وضياع لوقته يوم الأحد، فيعود إلى ما كان عليه... كيف لو جرّب الإسلام شهراً واحداً أو أسبوعاً واحداً!! ولي تجربة أخرى مع الشعراء اليابانيين عندما سألت عن انعدام الميتافيزيقيا في الشعر

الياباني الحديث وأسبابه ولا سيما بعد انفتاح اليابان وترجمة الأعمال الشعرية الغربية بالكامل إلى اليابانية. وها هي أجوبة الشعراء الأربعة بالتتالي:

كورا ـ روميكو: «من المؤكد أن الشعر الياباني حسي جداً... حسيته حادة جداً، وليست فيه ميتافيزيقيا. وأعتقد أن ذلك له علاقة بالدين وبالثقافة السائدة. هناك بوذيون عندهم نوع من الميتافيزيقيا المنظمة، لكنها على مستوى شفهي وليست على مستوى ثقافة ككل، كما هي الحال في الإسلام. ربما هناك بوذيون ميتافيزيقيون، ولكن إذا فكّرت بما حولي وبنفسي فقد أجد نظرة إلى ما فوق الواقع، ولكنها ليست منتظمة... أعتقد أن غالبيتنا تهتم بالمنفعة العملية...».

غوزو ـ يوشيماتسو: «يقودني خيالي إلى عالم جمالي وميتافيزيقي، ولكن ليس له أو فيه نظام فلسفي، بل هو أشبه بالعالم الذي يحلم به راهب الزّن أو بالعالم الذي تدركه شامانة العجوز (الشامانة: دين يمتاز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السّلف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلّا للشامان) أو بالعالم الذي يستوعبه شعب الأينو الذي لا حروف للغة التي يتكلّمها. إذاً، الميتافيزيقيا التي أميل إليها تختلف عن الفلسفة أو عن مفهوم الميتافيزيقيا العام...».

تانيكاوا ـ شونتارو: «أعتقد أن الميتافيزيقيا موجودة في شعرنا الحديث، وهذا سبب من أسباب ابتعاد القرّاء عنه، وإليها يُرجعون صعوبة فهمه. أما التانكا والهايكو فلا وجود للميتافيزيقيا فيهما».

هاسيكاوا ـ ريوسيه: «... مشكلة الشعر الياباني هي عدم وجود فلسفة للحياة في أساسه، باستثناء أفكار سطحية. وهذه إحدى خصائص اليابانيين... تُختَصَرُ العقلية اليابانية بكلمة «كُو . أو شيبورو»، أي تركيز الاهتمام على موضوع موجود أمام العين فقط لا غير، وهكذا ليست لديهم نظرة شمولية... ولكن مهما درسنا ودرّسنا الاتجاهات الغربية الميتافيزيقية، يظل إبداع العالم الميتافيزيقي باللغة اليابانية صعباً للغاية... الشعر الحديث صعب وغير مفهوم

بالنسبة إلى غالبية اليابانيين، ويعود ذلك إلى عدم تدريس الفكر الميتافيزيقي في المؤسسة التعليمية اليابانية من المدارس إلى الجامعات. إنهم يدرسون المعارف العملية فقط...».

وهناك تجارب كثيرة ومتعددة عشتها، وجميعها يؤكد على أن الياباني لا يستطيع حقاً تمثل الفلسفة بمعناها الإغريقي وكما هي معروفة لدينا وفي الغرب. وهذا لا يعني، لنكرر القول، أن وجودها خير وغيابها شر. إنَّ غيابها وغياب مشتقاتها من الثقافة اليابانية بشكل عام، جعل الياباني عملياً وتجريبياً ولا يعتمد إلّا على حواسّه ولا يؤمن إلّا ما تقدمه له هذه الحواس. ولذلك رفض ويرفض كلَّ معرفة نظرية سابقة على الفعل. جميع المعارف والعلوم التي أنتجتها الحداثة الأوروبية نقلها الياباني لأنه استوعبها، ولأنها أقرب إلى مفهومه عن الحياة.

إلهان في إله واحد

عودة الإمبراطور الأزلي القديم وولادة الحداثة توأمان. في سنة ١٨٦٨ أعيد تنصيب الإمبراطور وفتحت أبواب اليابان على العالم الخارجي.

إلهان في إله واحد: الإمبراطور والحداثة، ولادة واحدة.

أعيد الإمبراطور إلى عرشه، ولا بدَّ من الحفاظ على هذا العرش. وبالتالي على اليابان، لذا لا بدَّ من القوة... فالأساطيل الغربية على شواطى آسيا بلا خجل أو خوف... لحماية السيادة اليابانية لا بدَّ من تحرير آسيا... وكان ما كان... فالحقوق الوطنية لا بدَّ أن تقود إلى إنشاء أمة مستقلة لها دساتيرها وسلطاتها الخاصة التي تتيح لها الوقوف في وجه السيطرة الغربية... وعلى هذه الأمة أن تعيد بناء نفسها وفق نموذج الأمم التي سوف تواجهها، دون أن تنسى سماتها الخاصة الموجودة منذ القدم... ولكي تظل هي هي، أي الحفاظ على السلطات والأنظمة القائمة، لا بدَّ للأمة اليابانية أن تتحول وأن تُدخل إليها المعارف الخارجية والقوانين التي تواجه ثم تطورها... لا بد للأمة اليابانية أن تتمثل الأجنبي، أن تهضمه وأن تستملكه كي تظل هي هي... وحقوق

الشعب؟! وإذا حدث وتسللت من خلال هذا الانفتاح أفكار خارجية تهدد النظام الموجود... لا بأس سيكون هناك نظام اجتماعي جديد، دستور جديد، ومواقف فردية وجماعية جديدة... لا بأس سوف نطوّر الأشياء... ثم في النهاية ما الفرق بين حقوق الشعب والحقوق الوطنية... لا فرق أبداً... وانتصرت الحقوق الوطنية... فجاء دستور من فوق ونظام برلماني من فوق... أليست هذه هي اليابان منذ القدم... والشعب؟ للتنفيذ... وبهذا بقيت اليابان هي نفسها رغم تحولها المختلف وأعادت اكتشاف جوهرها التاريخي... عودة الإمبراطور الأزلي القديم... والآن لا بدَّ من الحفاظ على هذه المكتسبات... ولا ضمان لبقائها فترة طويلة إلّا باستعمار واحتلال آسيا كاملة وتخليصها من الاستعمار الغربي... وكان ما كان... من حروب وانتصارات وهزائم وإنجازات وطنية خارجية... هكذا هي الحداثة: أمُّ الفاشيات الوطنية، من أوروبا إلى اليابان... يبدو أن هذه الأم لم تفكر بالعرب حتى اليوم... حينما نبتت هذه الحداثة نبت معها حبُّ الغزو والسيطرة والاستغلال، الحداثة والعدوانية توأمان... لن ينهي القرن العشرون عقده الأول حتى تكون اليابان قد صارت حديثة، ومع ذلك بقي النظام الاجتماعي هو هو، والسياسي هو هو... بقي الجوهر وتغير الشكل... في العمق العمق، الياباني لا يؤمن إلّا بتغير الشكل، أما الجوهر فثابت... الباطن لا يتغير، بل الظاهر... ذابت اليابان في الحداثة وضاعت فوجدت نفسها كما كانت... أي عدم، وأي سديم... لا تجد نفسك إلّا عندما تضيع... وتابعت اليابان في العشرينات والثلاثينات تعزيز حداثتها أكثر فأكثر... لمواجهة الغرب لا بدَّ من السير على خطاه وتقليده والذوبان فيه كي نحرر آسيا ونحمي أنفسنا... لكن لن نسمح بأفكار قد تهدد النظام القائم: وحدة وطنية رمزها الإمبراطور... فالإمبراطور هو ملهم الشعب، هو واجده، وهو موحده، في الزمان والمكان، إذاً هو مؤسس الأمة التي ينتمي إليها الأفراد وفيها متأصلون متجذرون، هو المؤسس والأساس في آن... هذا هو الخط الأحمر الذي لا ينبغي تجاوزه أو الاقتراب منه... هنا روح اليابان وجوهرها... من أجل هذه الروح خيضت الحروب المقدسة... كلُّ حرب لإثبات روحانية

اليابان... والحداثة هي حرب ربحتها اليابان ولعلّها الحرب الوحيدة التي ربحتها... ألا يكفي. ربحتها بفضل قلب وفي للإمبراطور، كما يقول هاياشي ـ فوساؤو (روائي وناقد أدبي ١٩٠٣ ـ ١٩٧٥)، ذلك القلب الوفي فطريٌّ لدى جميع اليابانيين وأثّر على عدد كبير من المحاربين الشّباب، أولاد الطبقة الدنيا، وعلى الشعب العادي أثناء الأزمة وانهيار حكومة الشوكونال سنة ١٨٦٨ .

إلهان في إله واحد: الإمبراطور والحداثة ولادة واحدة.

الحداثة جاءت بالإمبراطور...

والإمبراطور جاء بالحداثة... هو الروح وهي الجسد...

لولا الحداثة لم يعد الإمبراطور، ولولا الإمبراطور لم تأتِ الحداثة...

هو الباطن وهي الظاهر...

الياباني يعيش هذه الأشياء دون أن يعبر عنها بوضوح. ولدى كلّ ياباني قناعة بأن الإمبراطور هو الشعب وسيادة اليابان لا تنفصل عن سيادة الإمبراطور وعن وحدة الشعب التي يجسّدها الإمبراطور... الحقوق الوطنية هي حقوق الإمبراطور، وبما أن الإمبراطور هو الشعب فلا فرق بين الحقوق الوطنية وحقوق الشعب... لولا وجود الحداثة في أوروبا، ربّما كانت اليابان بقيت على وضعها السابق مدة قرون أخرى: أولاد توكوكاوا في طوكيو الحكام الحقيقيون، والإمبراطور يعيش بمدينة كيوتو، ولا أحد يجرؤ على الوقوف معه... لكن الحداثة تعيد الحقوق إلى أصحابها، وها هي تعيد جلالته إلى العرش في طوكيو... أعادته وفتحت لها الأبواب... لكنها لا تقبل آلهة إلى جانبها... هذا هو الشيء الذي لم يدركه أولئك الذين فتحوا لها الأبواب دون حساب... لم تستطع الاستقرار في أوروبا إلّا بعد أن قتلت الله... الحداثة هي قاتلة الله في أوروبا... قتلت الله الكبير فمات... ثم بدأت بالآلهة الآخرين فلم يبق إلّا هي... وهي لا تستطيع أن تكون إلّا مع الإنسان... هي الأخرى تحتاج إلى عباد، لذلك تعبد اليوم حيث تسود، وعبيدها متساوون في الحقوق والواجبات،

ولا فضل لعبد على آخر إلّا بالعمل... والحداثة تميز جيداً بين الحقوق الوطنية وحقوق الشعب... وهي مع: حقوق الشعب أولاً، لا حقوق وطنية خارج حقوق الشعب... وإلّا فإن الثمن باهظ وفاتورة الدفع طويلة طويلة... والجميع سيدفع، عبيدها وغيرهم... جاءت الحداثة بهتلر فأساء استخدامها، فأودت به... لكن بعد ان دفع الألمان أولاً، والشعوب الأخرى ثانياً، أثماناً باهظة... الحداثة تحتاج إلى رؤوس تستوعبها، لأنها ثقيلة وخفيفة في آن... إنّها سيف قاطع ذو حدين ولا ترحم من يسيء استخدامها. لا ترحم حتى الآلهة، أليست هي قاتلة ممثلي الله، والله نفسه، في فرنسا من أجل الشعب وحقوق الشعب... وها هي أخيراً في الأرخبيل الياباني، في بلاد الشمس المشرقة... وها هم يعيدون الخطأ نفسه: فهموا أنَّ الحداثة للغزو والاحتلال تحت عناوين مختلفة... فماذا حدث: حروب ضد الصين، حروب ضد روسيا، حروب مع الجيران تحت راية سوف نحميكم... نحن أولاد الشمس المشرقة سوف نحمي آسيا... ومن يدفع الفاتورة: اليابانيون أولاً... أتيت وأنصفتكم من أولاد توكوكاوا، فما لكم تركبونَ رؤوسكم وتظلمون العباد... قلة قليلة سمعت ذلك الصوت الخفي فرددته على مسامع أولي الأمر ففتحت أبواب السجون وبدأ السحل... وانتفخت رؤوس أولاد الشمس المشرقة، أولادُ الله، انتفخت بحداثتها الجديدة والقوية، حداثتها التي تفوق الحداثة الأوروبية، وصارت تنتقل من حرب إلى أخرى، ومن نصر إلى آخر دون هزيمة واحدة... نحن أولاد الشمس المشرقة، اولاد الله، ننتقل من نصر إلى آخر كما ننتقل من خمارة إلى أخرى... وها نحن سنهدد أوروبا بسلاحها نفسه وبأمضى... لكن لا تنسوا أنني، أنا الحداثة، قدمت إليكم من هناك بشحمي ولحمي، وأعرف ماذا هناك وكم دفع ثمني لحد الآن... اصمتي، نحن أولاد الله، أولاد الشمس المشرقة، نداولك كما نريد، تبعناكِ وآن الأوان كي تكوني تابعة... لا شمس إلّا شمسنا، ولا شروق إلا شروقنا...

وانتفخت رؤوس أولاد الشمس المشرقة بحداثة فتية جاءتهم بأبخس الأثمان، حداثة دفعت الشعوب الأوروبية معتقداتها جميعاً ثمناً لها، وقدّمت

الله نفسه قرباناً على محرابها، لكن الرؤوس الحمراء من أولاد الشمس المشرقة، أصرّت على أن الحداثة، هذه الحداثة، للغزو والاحتلال، لذا لا بدّ من الحرب ضد صانعيها إلى أن يدحروا... كانت الحداثة قد دخلت جيداً في العشرينات والثلاثينات بقوانينها ودساتيرها الديمقراطية... حقوق الشعب أولاً، وكانت قد أخذت بإيقاظ الكثير من الأذهان المثقفة التي بدأت بالنقد والمعارضة، ولا سيما معارضة نظام الإمبراطور، الأمر الذي دفع ـ ومن بين أمور أخرى كثيرة ـ بالرؤوس الحمراء إلى تقليد هتلر في مغامرته المجنونة تلك... حانت ساعة الدّفع واقترب الحساب... وأعلن أولاد الشمس المشرقة الحرب على الولايات المتحدة وعلى من معها... فهاجمت حداثتهم العسكرية الأساطيل والبواخر الأمريكية على جميع الجبهات... وتورّط اليابانيون بحرب لا ناقة لهم بها ولا جمل... حتى ذلك الحين لم يهزموا أبداً... وهذه المرّة أيضاً لن نُهزَمَ فالنصر قادم لا محالة... أمة الشمس المشرقة، أمة الله، لا تُهزم... والله لن يتخلّى عن أمته ولا عن أولاده، فهو هم، وهم هو... لكن الحداثة لا تقبل آلهة في نواحيها وفي مناطقها... ولا تقبل أن تحلّ بأرض قومٍ لا يدفعون ثمنها... وكانت القنبلة النووية الأولى، وكانت الثانية بعد آلاف من أطنان القنابل والصواريخ التي ألقيت على كلّ مدينة وقرية في نواحي الأرخبيل، أرخبيل أولاد الشمس المشرقة... ونزل الله عن عرشه، نزل الإمبراطور الأزلي القديم ليعلن بصوت إنسان خبر الهزيمة... ها هي الحداثة تكشف الحجاب عن المولى العظيم وتجبره على الكلام والنطق بقميصه البشري... واستسلم أولاد الشمس المشرقة للحداثة وقوانينها، وصار يحرر بعضهم بعضاً من ربقة ما حدث... فهموا الدّرس جيداً وأدركوا أن الحداثة والله لا يمشيان... إمّا الحداثة وإمّا الله... لا بأس فلنعبدها في الظاهر ولنعبده في الباطن، وعبادتها من عبادته، فنحن لنا تاريخ طويل في تعدد الآلهة... وهكذا راح الياباني يعبد الحداثة ويقدسها ولا فرق بينها وبين الإمبراطور الأزلي القديم سوى أنه صار الإمبراطور الحديث... اكتفت الحداثة بإنزاله عن عرش الأزلية وإجلاسه على كرسي من وقت وأودت بمن أساء استخدامها من أولاد الشمس المشرقة... وأخذت حقوق الشعب ترفع

الرأس شيئاً فشيئاً... غير أن غصّة مما حدث تظلُّ في الصدر: ماذا لو انتصرنا وبقي التوأمان توأمين: الحداثة والإمبراطور الأزلي القديم... الأجيال الجديدة لا تفهم ما حدث، ولا تريد أن تفهم، ولا يراد لها أن تفهم... عليها أن تعيش الحداثة هكذا كما وصلتها... عليها أن تنسى التاريخ وتلك الحداثة الغازية، عليها أن تدفع الحداثة الجديدة، حداثة ما بعد الحرب والهزيمة إلى أقاصيها، عليها أن تصل قبل الآخرين إلى ما بعد ـ الحداثة.

إلى هنا قادتهم عبقرية التقليد. وصلت الحداثة على أيديهم إلى ذروتها. الإبداع تقليد، والتقليد إبداع ولا فرق. النفي إثبات، والإثبات نفي ولا فرق. للياباني عين لا تنسى جزءاً مهما كان صغيراً وبسيطاً في الشيء الذي يقلّده: يبدع الشيءَ المقلَّد من جديد وعلى طريقته. لكي ينطلق الياباني يحتاج إلى مثال يراه. وإلّا فإنه يلوك صوته ويحك خلف رأسِه ورأسَه حتى مغيب الشّمس.

المؤتمر الملعون

منذ البداية كانوا يريدون من الحداثة الأوروبية تقدمها التكنولوجي فقط... نقل التقنيات الأوروبية والاحتفاظ بالروح اليابانية... هذا هو حلم رواد الانفتاح سنة ١٨٦٨ . وهو الحلم الذي سوف لن يتحقق، لأن الثقافة الأوروبية سوف تدخل إلى كلِّ معهد وجامعة، وسوف تفعل ثقافة الحداثة فعلها على جميع النّاس من مختلف الطبقات، بعد أن انتهت الأمية تماماً وأصبح اليابانيون جميعاً مدمني قراءة وكتابة... ولتحقيق ذلك الحلم الذي انكسر، أو الذي أخذ بالانكسار منذ بدأت الثقافة الأوروبية بالدخول مع تلك التقنيات، تداعى مثقفون يابانيون كبار ومن مختلف الاتجاهات إلى عقد مؤتمر سنة ١٩٤٢ تحت عنوان عريض: «تجاوز الحداثة»...

تداعوا إلى الاجتماع في عزّ المعارك والحرب حيث كان الجيش الياباني واثقاً من النصر... وحيث لم يكن هناك ياباني واحد ليس واثقاً من النصر... ما نقلناه من تقنيات سوف ينتصر ويتجاوز تقنيات الغرب على الجبهة وميدانياً...

ولم يبق لنا نحن المثقفين إلّا خوض المعركة الحقيقية، معركة تجاوز تلك الحداثة وتلك الثقافات التي مسَّت الروح اليابانية، إنّها معركتنا ولا بدَّ من ربحها، لا بدّ من حداثة خاصة بنا بعد النصر... والنصر آت لا ريب. لا بدَّ من إيجاد المبدأ الروحي الذي يشكِّل رهان الحرب. لا بدَّ من التفكير بتجاوز الحرب وإيجاد السلام الروحي. فبعد الحرب نحتاج إلى سلام روحي، إذاً لا بدَّ من التجاوز... و«الانقلاب»!!.

هي ذي أوراق ووقائع ذلك المؤتمر المشهور كما ينقلها آراكي ـ تورو. وسوف يتذكر القارىء، وهو يطالع هذه الوقائع، العديد من مؤتمرات المثقفين العرب حول الأصالة والمعاصرة... كيف نكون ـ نحن العرب معاصرين، بعبارة أخرى حديثين، دون أن نفقد أصالتنا... كيف نتعلم الثقافة الغربية ونتمثلها مع الحفاظ على أصالتنا. يطرح المثقف العربي هذه الأسئلة وهذه الإشكالية قبل أوانها، وقبل أن تدخل المعاصرة أو رائحة المعاصرة إلى المجتمع العربي أو إلى الثقافة العربية. يطرحها قبل أوانها بقرن ربما... لا نعرف متى تدخل الحداثة والمعاصرة إلى بيوتنا في العالم العربي... يفترض المثقف العربي ويتخيل دخولهما ثم يناقش شيئاً متخيلاً... دوماً يضع العربة أمام الحصان... إنه مستعجل. يريد استشراف المستقبل... يا أخي انتظر، وافهم الحاضر والموجود أولاً... وعندما تأتي الحداثة سيكون هناك مفكرون غيرك يعالجون الأمر... أليس لكل عصر رجاله! لكن المثقف العربي اليوم. يريد أن يكون رجل جميع العصور القادمة... لا أفهم كيف يكتب المثقفون العرب اليوم ويعيشون داخل كتبهم وأفكارهم وهم يعرفون جيداً نسبة الأمية العالية داخل مجتمعاتهم وداخل أسرهم بالذات، ولا أحد يتلقى أفكارهم إلّا هم فيما بينهم... يقرؤون لبعضهم بعضاً ويسبحون في أفكار بعضهم... لم تطرح مشكلة التعايش بين الثقافة الغربية والثقافة اليابانية إلّا بعد أن دخلت الأولى ومعها التقدم والتكنولوجيا، أي بعد أن طبخ الياباني بالحداثة والمعاصرة... عندها بدأت أسئلة كثيرة تطرح نفسها على أولاد الأرخبيل الياباني... أسئلة من نوع ما سنراه في هذه الأوراق والوقائع:

«تجاوز الحداثة»

تاريخ: ٢٣ ، ٢٤ ، تموز، ١٩٤٢

المكان: ميكرو ـ ساريو، طوكيو، اليابان.

المشاركون وانتماءاتهم:

١ ـ نيشي ـ تاني كيجي (مدرسة كيوتو الفلسفية).

٢ ـ سوزوكي ـ شي كيتاكي (مدرسة كيوتو الفلسفية).

٣ ـ شي مومورا ـ توزاتارو (مدرسة كيوتو الفلسفية).

٤ ـ كيكوتشي ـ سايشي (حيادي بلا انتماء).

٥ ـ يوشي ميتسو ـ يوشي هيكو (حيادي بلا انتماء).

٦ ـ كوباياشي ـ هيديو (عضو في مجلة «العالم الأدبي»).

٧ ـ كامي ـ كاتسو إتشيرو (عضو في مجلة «العالم الأدبي» + المدرسة اليابانية الرومانسية).

٨ ـ هاياشي ـ فوساؤو (عضو في مجلة «العالم الأدبي» + المدرسة اليابانية الرومانسية).

٩ ـ ميوشي ـ تاتسوجي (عضو في مجلة «العالم الأدبي» + المدرسة اليابانية الرومانسية).

١٠ ـ تسومورا ـ هيديو (حيادي بلا انتماء).

١١ ـ ناكامورا ـ ميتسؤو (عضو في مجلة «العالم الأدبي»).

١٢ ـ كاوا كامي ـ تيتسوتارو (عضو في مجلة «العالم الأدبي»).

١٣ ـ موروئي ـ سابورو (حيادي بلا انتماء).

١ ـ تجاوز الحداثة: المؤتمر الملعون وسياقه:

كتقديم لهذا العمل، لا بدَّ من سرد الوقائع الرئيسية التالية:

١٩٣٤ : حلّ الجمعية اليابانية للكتّاب البروليتاريين والارتداد المفاجىء لصاحب فكرة المؤتمر «كامي ــ كاتسو ــ إتشيرو». كانت غالبية المثقفين اليمينيين المتطرفين قد انتمت منذ فترة وجيزة إلى اليسار المتطرف.

آذار ١٩٣٤ ، آب ١٩٣٨ : إنشاء مجلة «المدرسة الرومانسية اليابانية» التي أسسها «ياسودا ــ يوجورو» الغائب الكبير عن المؤتمر وكامي وهاياشي... إلخ.

تموز ١٩٣٧ : غزو الصين.

كانون الأول ١٩٤١ : دخول اليابان الحرب ضد الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وقوى الحلفاء. يهاجم الجيش الياباني على جميع الجبهات تقريباً. الشعب، كلّ الشعب واثق من النصر.

بداية ١٩٤٢ : كامي ــ كاتسو ــ إتشيرو يقرر عقد مؤتمر للمثقفين ويبدأ مناقشة الموضوع مع هيديو ــ كوباياشي وكاوا ــ كامي ــ تيتسوتارو.

أيار ١٩٤٢ : تمَّ تحديد الإطار والموضوعات. والأشخاص الذين فُكِّرَ بهم قبلوا الدعوة جميعاً. ووافق كلٌّ منهم على الصيغة: يقدِّم كلٌّ مشارك نصاً قصيراً يحدد وجهة نظره، والموضوع الذي يرغب بطرحه للنقاش، وذلك قبل انعقاد الجلسات والاجتماع. هناك استثناءان: كيكوتشي وناكامورا لن يقدما نصيهما إلّا بعد الاجتماع. وقبل المؤتمر تماماً يعلن ياسودا ــ يوجورو غيابه دون سبب واضح.

٢٣ ، ٢٤ تموز ١٩٤٢ : ثماني ساعات من النقاش.

أيلول، تشرين أول ١٩٤٢ : نشر النصوص في مجلة «العالم الأدبي».

تموز ١٩٤٣ : صدور النصوص في كتاب تحت عنوان «تجاوز الحداثة» عن دار «سوكين ـ شا».

هذه الطاولة المستديرة «الملعونة» لم تُدرّس بشكل مناسب بعد، ولم يحلّل مضمونها تحليلاً موضوعياً لحد الآن. لماذا هي ملعونة؟ لأن صدى كبيراً للمؤتمر دوّى آنذاك بين المثقفين الشباب الذين سوف ينخرطون في الجيش ويذهبون إلى جبهات القتال حيث لن تعود غالبيتهم أبداً. وجاءت الهزيمة... بعد الهزيمة، قاد التقلّب الانتهازي، وهذا طبعٌ ياباني بامتياز، حول محور ظلَّ هو هو رغم كلِّ شي، إلى نزول اللّعنة على المشاركين في هذا المؤتمر سواء كانوا من مدرسة كيوتو الفلسفية، ممثلة النزعة الوطنية اليمينية، أو من المدرسة الرومانسية اليابانية. اليوم وبعد أكثر من نصف قرن على تلك الطاولة، ماتت غالبية الذين نجوا من ويلات الحرب ومات معهم حقد ممزوج بالحنين. أما الشباب اليوم، فلا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن الحرب، كما هي الحال في أوروبا: «هتلر!! لا أعرفه...».

بهدوء وبرودة أعصاب قدر الإمكان، سوف ألخص النصوص والنقاشات التي دارت على مدى ذينك اليومين. وسوف أهدف إلى الدقة والأمانة قدر الإمكان أيضاً. لأن ما حدث من نقاشات وما قدِّم من موضوعات لا يزال هو هو بالنسبة إلينا اليوم... لا تزال تلك الموضوعات موضوعاتنا اليوم، ولا تزال تلك النقاشات هي نقاشاتنا اليوم ولم تتغير. كانوا ثلاثة عشر كالحواريين وبينهم يهوذا الأسخريوطي، لكن لم يكن بينهم يسوع يُبحث عنه: كان الخيار موفقاً وجميلاً. ثلاثة ممثلين عن مدرسة كيوتو، واحد منهم غير واضح اللّون كثيراً «شي ـ مومورا»؛ وثلاثة أعضاء عن المدرسة الرومانسية اليابانية، وثلاثة أعضاء من مجلة «العالم الأدبي»، وأربعة يمكن وصفهم بالحياديين: فقيه كاثوليكي، مؤلف موسيقي، عالم فيزيائي، صحافي وناقد سينمائي.

٢ ـ خلاصات نصوص المشاركين:

النَّص الأول بعنوان: «بحث حول الرّوح المعاصرة» وهو للناقد الأدبي وصاحب فكرة عقد المؤتمر «كامي ـ كاتسو ـ إتشيرو» (١٩٠٧ ـ ١٩٦٦). كان في البداية ماركسياً وعضواً في «جمعية الإنسان الجديد». ثم انتسب إلى «حركة الأدب البروليتاري»، وأنشأ في الثلاثينات مجلة طليعية. خاب ظنه وفُجع بآماله، فأسس مع آخرين «المدرسة الرومانسية اليابانية»، وبدأ اهتمامه بالثقافة اليابانية التقليدية. ومنذ سنة ١٩٤٣ أخذ بنشر سلسلة تحت عنوانك «العودة إلى اليابان» (١٩٤٣ : الحج إلى معابد الياماتو «الشعب الياباني» القديمة؛ ١٩٤٥ : شين ـ ران؛ ١٩٤٦ : الأمير تشو ـ توكو. وفي سنة ١٩٥٠ نشر كتاب «دراسة الإنسان الحديث»؛ وفي سنة ١٩٦٥ نشر عمله الكبير: دراسة التاريخ الروحي لدى الشعب الياباني.

يتناول نصه ذاك، النقاط التالية وبالتتابع: عدو الروح، أزمة اللغة، انحطاط الحساسية، تأثير السرعة على الرّوح؛ أوهام الذين يعتقدون أنهم منتصرون، يقصد اليابانيين لا الغربيين كما يظن... من وما هو عدو الروح في نظره؟ هو الميل، ميل منتشر ومعمم جداً، إلى الحكم وفق الشعارات والنماذج المقولبة، وعدم التفكير بطريقة ذاتية. وأزمة اللغة سببها ولادة كلمات تقنية وفلسفية، أو كلمات آنية من الراهن لا تنتمي إلى اللغة الإنسانية، بل هي رطانة مصطنعة ومؤذية. يقلق كامي لتدهور العناية الدقيقة باللغة ولتدهور الحساسية الحادة بكلّ ما يتعلق بها. لم يعد اليابانيون، مثلاً، يتذوقون جمال الكتابة والخط.

الشعارات، الدعايات، هذه المنتوجات السياسية التي انتشرت باليابان عندما انتشرت الأفكار الليبرالية أو الشيوعية أيام العشرينات وما قبلها، هي بضاعة غربية مستوردة ومن أسوأ الأنواع، وهي التي تضعف القوة الأساسية للغة. لقد أصبح اليابانيون المعاصرون ثرثارين جداً، ونسوا الصمت، ذلك المسكن الوحيد لكلّ كلام سوي وسليم. تكمن أدلة انحطاط هذه الحساسية، في الميل إلى الإفصاح عن كلّ شيء وإلى تعميم كلّ شيء. انتصار الجنود على

جبهات القتال أو موتهم البطولي، يُصوَّر بسرعة ويذاع، وتنقل تفاصيله الصحف والمجلات، ويخرج أفلاماً سينمائية أو مسرحيات، ثم يُصفَّق له ويُنسى بسرعة.

منذ الانتفاح واليابان مستعجلة دوماً للحاق بالقوى الغربية وتجاوزها بأسرع ما يمكن. لكن ألا تقود الإصابة بسُمّ السرعة إلى سقوط الروح؟ إذاً، لا بدَّ من الانتباه إلى السّلام القادم بعد النصر، لأن سُمَّ الحضارة موجود تحت قناع السلام. وهكذا يُفضِّلُ كامي حرباً مشرفة على سلام عبيد.

النص الثاني بعنوان: «بحث خاص في تجاوز الحداثة»، وهو للمفكر المعروف نيشي ـ تاني ـ كيجي (١٩٠٠ ـ ١٩٩٠)... واحد من كبار فلاسفة اليابان. متخصص بالفكر الألماني. سعى إلى مقاربة مفاهيم العدم والتجدد في فكر الصوفي الألماني إيكهارت مع المفهوم البوذي للفراغ، وذلك بقصد إيجاد صيغة متعالية قد تكون مشتركة بينهما. طوّر «فلسفة العدم المطلق كتحقق ديني للذات في لُجّ دون قاع»... كانت تهدف هذه العدمية إلى تجاوز الاختلاف بين الفكر الغربي والفكر الآسيوي.

يتكوّن نصه من:

١ ـ مشكلات الحداثة: أ) الدّين، العلم والثقافة؛ ب) العالم، الدولة والفرد.

٢ ـ الطابع الدّيني للعدم الإيجابي والمستقل.

٢ ـ التدين العالمي المفرط وأخلاق الدولة.

٤ ـ معنى الروح اليابانية التقليدية.

٥ ـ موقع اليابان في الواقع التاريخي العالمي.

٦ ـ تجاوز الحداثة والرؤية اليابانية للعالم.

منذ البداية، وبلا تأخر، يعلن نيشي ـ تاني أن الحديث هو أوروبي بالكامل. ونحن الآن في نهاية العصر الحديث حيث العالم الأوروبي يتمدد

سياسياً واقتصادياً وثقافياً على كامل الكرة الأرضية. والطابع الأساسي لتحديث اليابان، لحداثة اليابان، منذ عصر ميجي هو التنافر، التفكك الظاهر، انعدام الترابط والانسجام. وذلك على خلاف استيرادنا للثقافة الصينية أيام حكم الأمير تشو توكو (٥٩٣ ـ ٦٢١). لقد أُدْخِلَت الأفكار والأشياء الأوروبية إلى عندنا مشتتة، منفصل بعضها عن بعض ودون أي رابط بينها. لعلّ سبب ذلك هو التخصص المتقدم جداً في مختلف قطاعات الثقافة الغربية في القرن التاسع عشر. لكن لا ينبغي لهذا التخصص أن يمنع من إيجاد خيط قادر على جمع ودمج هذه العناصر المختلفة في كلٍّ مترابط ومنسجم. ألا يجب البحث عن هذا الانحلال والتفكك في عدم انسجام وترابط الثقافة الغربية نفسها أساساً، وليس البحث في مكوناتها؟.

يقال إن الغرب الحديث بدأ بـ: الإصلاح، ثم النهضة، ثم علوم الطبيعة. في هذه المكونات الثلاثة تكمن علة التفكك. الإصلاح يقول، وبشكل جوهري، لا للعالم، لا للإنسان. إنّه مركّز حول الله، حول غيريته أو تعاليه المطلق. علوم الطبيعة تريد اختزال العالم إلى مستوى الرياضيات أو الفيزياء، واختزال الإنسان نفسه إلى أدنى مستوى من التراتبية الأنطولوجية، العلوم التجريبية لا تبالي أساساً بالعلم وبالإنسانية، في حين أن النهضة والنزعة الإنسانية تزعمان إقرارهما والقدرة على مصالحتهما. قامت حضارة العصور الوسطى بشكل منسجم على بناء له ثلاثة أركان: الله، العالم، النّفس، كما قامت الحضارة الشرقية على الفعاليات الثلاث: للسماء وللأرض وللإنسان. الحداثة الغربية أهملت الترابط بين هذه الأركان، فبدأ البناء نفسه مهدداً بالتدريج.

هناك أيضاً عنصر سياسي هو الليبرالية. إذا حددنا الليبرالية بأنها المطالبة بالحق الفردي، عازلة هكذا الفرد عن العالم، فإنَّ الناتج سيكون بالضرورة صراعات دون مخرج أو نهاية بين الفرد والمجتمع، بين الدولة والعالم. ولاكتشاف الوحدة المفقودة والعثور عليها، لا بدَّ من اللجوء إلى طابع ديني مطلق يستعلي جذرياً الثقافة والتاريخ وعلم الأخلاق الإنسانية، وينكر على هذه الوحدات إمكانية التحقق بشكل مستقل عن بعضها البعض، لكن يتيح لها في

الوقت نفسه، ولعلوم الطبيعة أيضاً، أن تظلَّ فاعلة إذ يترك لها إمكانية النشاط والعمل بشكل حر. ما هو هذا الطابع الديني وتلك الأخلاق التي تقوم على أساسه؟ كيف يمكنهما عبور العالم والدولة والفرد من أجل إعادة الوحدة المفقودة إلى هذه الأشياء؟

لنضع أنفسنا شخصياً أمام عين العلم التحليلية. تستطيع هذه العين حرماننا من هذا الجسم الذي يختزله العلم إلى مستوى الغبار، إلى مستوى فيروس، إلى مستوى حشرة أو أبسط من حشرة. ويستطيع علم النفس التجريبي أيضاً سلبنا الوعي الذي لا يكون شيئاً أثناء اختفاء الجسم. لكن يظلُّ على الدوام شيء لا يمكن توضيعه (جعله موضوعياً). إنه الذاتية المطلقة. والذاتية المطلقة هي العدم الإيجابي والمستقل (شوتاي ـ تيكي ـ مو). هي ما يسميه رهبان الزن أو الرّاهب دوكين مثلاً، «فناء الشعور البدني ـ النفساني» (شين ـ شين ـ تو ـ تسوراكو). وعندما يطرح هذا العدم الإيجابي والمستقل أساساً للكائن، سوف يكون النفي المطلق لكلِّ شيء (للثقافة والعلم) إثباتاً مباشراً ومطلقاً لكلِّ شيء.

إنَّ مأزق المسيحية المتعلق بالثقافة والعلم، لا يمكن تجاوزه وحلُّه إلّا من خلال هذا الطابع الديني للعدم الإيجابي والمستقل. وهو طابع شرق أقصوي للغاية. يصعب استيعاء هذه الذاتية المطلقة وإدراكها، لكن يبقى أنها تتوافق جداً مع المطلب الجوهري للدولة وهو: إلغاء الأنا وخدمة العام. على الدّولة أن تكبح الحرية الفردية تماماً، لا سيما خلال فترة استثنائية كالحرب. هذا هو سبب الصعوبة الدائمة للعلاقات بين الفرد والدولة في أوروبا الحديثة. والمبدأ الأساسي المخصوص هنا يحتوي في ذاته عنصراً دينياً بعمق. وإلغاء الأنا الفردية الصغيرة من خلال هذا العنصر ، سوف يتيح إمكانية تركيز طاقة الوطن المعنوية وتشييد أخلاقية وطنية دون صدوع أو عيوب. على صعيد الفرد، لا بدَّ من محو الأنا الصغيرة لدى كلِّ واحد، من أجل خدمة العام، أي خدمة الدولة، خدمة مثلى.

لكن هذا ليس كلَّ شيء، ولا يمكن التوقف هنا. لأننا إذا بقينا في هذا المستوى وعند هذه المرحلة، فلن نستطيع الإفلات من إغراء أنانية وطنية، أو من الرغبة باستعمار ظالم. إنَّ الطاقة المعنوية التي تقف وراء أخلاقية البلد يجب أن

تكون قادرة على التحول إلى أخلاقية عالمية. وإذا كان الأمر لا يتعلق إلا بتوسع البلد دون توقف أو نهاية، فإننا سنعود إلى مبدأ الاستعمار الشبيه بمبدأ النظام الإنكلوسكسوني القديم. إذاً، لا بدَّ من محو الأنا الوطنية الصغيرة على الصعيد الوطني بالكامل، من أجل انفتاح أفضل على المجموعة البشرية كاملة. على اليابان امتلاك قلب كقلب إلهة السماء ـ أَمَاتيراسو ـ الشبيه بمرآة لا تُمْسِك بشيء، لكنها تعكس كلَّ شيء.

النص الثالث للمؤلف الموسيقي «موروئي ـ سابورو» (١٩٠٣ ـ ١٩٧٧). ولا يتعلق إلّا بالموسيقى. يعتقد موروئي أن المؤلف الموسيقي يبدع أفضل المقطوعات في بداية مهنته أكثر مما يبدع في مرحلة نضوجه، لا سيما في أوروبا الحديثة. يمكن القول بشكل عام إن الموسيقى الكلاسيكية أو الرومانتيكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تفوق موسيقى القرن العشرين بكثير. لماذا؟ لأن الموسيقى الأوروبية الحديثة، في نظر موروئي، انحرفت خلال تاريخها إلى جهة غير معلومة. الرومانسية تحتوي على عناصر انهيارها، بسبب سيرها الاعتباطي خلف العواطف والفانتازيات الذاتية (فاكنر). جاءت بعدها الانطباعية (رافل): كلُّ علامة موسيقية، وكلُّ تساوق موسيقي كأنهما مزروعان بشكل عامودي ومنفصل؛ وهكذا لا علاقة لهما بنوع من الاستمرارية والسياق الزمانيين. هناك تيار آخر أكثر جدة، هو التعبيرية (مدرسة فيينا): ذات طابع ثقافي أكثر، وأكثر طغياناً من الإنطباعية، تريد إيجاد عالمها المطلق القائم على الطباق المحض (لحن يضاف إلى آخر على سبيل المصاحبة). لكن كردة فعل على النزعة الموضوعية والنزعة الثقافية المبالغ فيها لدى الحركتين الأخيرتين، ولد فرع ثالث هو النزعة الفطرية البدائية (سترانفسكي): موسيقى تبحث عن الإيقاع المحض، هكذا نجد بالضرورة أن الموسيقى الأوروبية هي الآن في حالة انحطاط، رغم وجود نزعة كلاسيكية جديدة، تسمي نفسها الكلاسيكية المحدثة.

لكن ماذا عن الموسيقى في اليابان؟ الموسيقى اليابانية التقليدية مختلفة تماماً. والتجربة السطحية للخلط أو للتواطؤ بين هذين النموذجين من الموسيقى، تجربة لا معنى لها. يجب أن يكون لكلٍّ منهما مكان محفوظ ومميز. إذاً،

الموسيقى الأوروبية باليابان هي الأخرى شيء مستورد هكذا دون تفحص أو حكم. بسرعة استوردت ككثير من الأشياء الأخرى. لحسن الحظ لا يوجد مؤلفون كثيرون، بل مؤدون فنيون كثيرون. والحلول الموجودة هنا عرجاء أيضاً. وفي النهاية، إن تجاوز الحداثة بالنسبة إلى مؤلف موسيقي ياباني، لا يمكن أن يكون إلّا بإبداع موسيقى مستقلة وأصيلة تماماً، ولا بد من استحضار كلمة بيتهوفن: «لا توجد قاعدة غير قابلة للخرق بالنسبة إلى الجمال».

النص الرّابع بعنوان: «الأساس التيولوجي لتجاوز الحداثة»، وهو للفيلسوف الرّاهب الكاثوليكي «يوشي ـ ميتسو، يوشي ـ هيكو» (١٩٠٤ ـ ١٩٤٥). تتلمذ على يد جاك ماريتان من سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠ . متخصص بالقديس توماس الأكويني. درس الفكر الوسيط من وجهة نظر تاريخية، لكن بقصد فهم وعرض تلك التجربة الوجودية التي يعبر عنها ذلك الفكر. هكذا، كانت غايته تأسيس مسيحية كاثوليكية تقوم على الدمج (إذاً التجاوز) بين الإلحادية والحلولية (مذهب وحدة الوجود: الله والطبيعة شيء واحد) والعدمية الشرق أقصوية. كان يدعو إلى «إنسانية كلّية» قوامها الغفران والرحمة.

يتكون النّص من: تمهيد: مرض الإنسان الحديث؛ مصير نزعة الإلحاد الحديثة؛ العلاقة الداخلية بين القرون الوسطى والحداثة؛ النظام الروحي الثقافي الجديد؛ خلاصة: مهمتنا، كلمتان للإضافة. يرى أن الروح المعاصرة هي روح النزعة الإلحادية. ويرى أن نيتشه ودوستوفسكي ـ هذان الرمزان النموذجيان ـ ليسا في أي شيء مثالاً للروح المعاصرة. بل هما اعتراضان جباران وبطوليان لنفس سعت وحاولت إنقاد الإنسانية بكاملها من الطوفان الكبير للعصر الحديث. وعلى الرغم من نظرة مشوّشة تبنت ووسعت رؤية للعالم الهيستيري، فإن الأوّل يرى النّاس الحديثين «مرضى»، في حين يراهم الثاني، بنظرته الأكثر روحانية وثيولوجية، «مهووسين، ممسوسين». وكما يقول نيقولا برديیف: إن الحداثة قتلت الله أولاً، ثم الإنسانية ثانياً زاعمة تحريرها.

في هاتين الرؤيتين، لا بدَّ أن نلمس حضور رابط داخلي خفي بين العصر الوسيط والعصر الحديث. إنهما تكشفان عن استمرارية جوهرية داخل حضارة

واحدة وفوق مساحة من الأرض واحدة. إنهما تتجاوزان التمزق والانفصال. وبالتالي، فإن العودة إلى الوحدة المفقودة ستكون نوعاً من انبعاث عصر وسيط جديد يقوم على «تقديس الدنيوي» كما يقول جاك ماريتان وشارل بيغي. إنَّ التوبة من الأخطاء، هي أوّل مهمة للإنسان المعاصر، ليس للأوروبي وحسب، بل وللياباني أيضاً، كي نتجاوز الحداثة.

النص الخامس بعنوان: «القلب الوفي للإمبراطور» وهو للناقد والروائي هاياشي ـ فوساؤو (١٩٠٣ ـ ١٩٧٥)... جذبته الماركسية، فانتسب إلى «حركة الأدب البروليتاري»، وفي الثلاثينات ١٩٣٠ ارتد ليصبح يمينياً متطرفاً. وبعد الحرب هجر السياسة وانتهى إلى إدانة نزعة اليسار السلمية في الستينات ١٩٦٠ . كانت معاهدة الأمن بين أمريكا واليابان في نهاية الخمسينات ١٩٥٠ موضوع حركات معارضة شقّت المثقفين اليابانيين. أصبح لحظة انعقاد المؤتمر كاتباً «تائباً» وجزءاً من اليمين المتطرف. يرى أن نجاح ميجي يعود إلى ذلك القلب. فذلك القلب فطري وغريزي لدى جميع اليابانيين وأثر تأثيراً كبيراً على عدد هائل من المحاربين الشباب من الطبقة الدنيا، وعلى عامة الشعب أثناء الأزمة وانهيار حكومة الشوكونال. لكن هذا القلب نُسي تماماً في العقد الثاني ١٩١٠ وفي العشرينات ١٩٢٠ مع أنَّ واجهة البلد والمجتمع والتعليم بقيت مزينة بالطريقة نفسها ـ عندما كان هاياشي طالباً، لم يكن يقرأ سوى الآداب الأجنبية المترجمة، مُهْمِلاً بشكل تام الآثار واللغة الكلاسيكية ـ إن النزعة الطبيعية والنزعة العالمية الشمولية خربتا المثقفين الشباب حتى النخاع، في حين كان رجال الدولة ورجال الأعمال لا يفكرون إلّا بالمال. إن روح الأدب هي القلب الباحث عن النقاء. وعلينا الآن أن نعود إلى ذلك النقاء القديم والياباني بامتياز.

النص السادس بعنوان: «اتجاه تجاوز الحداثة» وهو للأستاذ الجامعي المعروف «مومورا ـ توراتارو». يرى أن تجاوز الحداثة، بالنسبة إلينا نحن اليابانيين، يعني أولاً وقبل كلِّ شيء مواجهة أوروبا. ينبغي ودفعة واحدة تمييز موقفنا من الموقع الأوروبي، كي نحاول إيجاد حل جديد داخل الحداثة الأوروبية. لكن

يجب الاعتراف في الوقت نفسه أن الحداثة أصبحت جزءاً لا يتجزأ منّا، إنّها على الأقل، وبشكل جزئي، مكوّن مما صرناه خلال ٧٥ سنة من التحديث. لماذا نشعر بحاجة إلى تجاوز الحداثة في أوروبا كما في اليابان؟.

والجواب دوماً هو نفسه. لأن الثقافة الحديثة انحطت إلى حضارة ميكانيكية، آلية وخارجية لا علاقة لها بما يصنع الإنسان حقاً، وبما يكوّن سريرته لكن هل كانت الثقافة قبل العصر الحديث روحية فقط؟ هل كان الإنسان مكوّناً من السريرة فقط؟ حتى وإن كانت توجد حقاً، قبل العصر الحديث، روحانية وسريرة، هل كانت روحانيات وسرائر فقط؟ ألم تكونا إلّا معارضة للخارجانية والطبيعية دون تجاوزهما حقاً؟ إذا كان العصر الحديث ليس إلّا السقوط خارج القرون الوسطى، أليس هو صدع تلك القرون نفسها؟.

يقال غالباً إن الإنسان في العصر الحديث أصبح عبد الآلة. لكن الإنسان كان عبداً على الدوام قبل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حتى وإن كان بطريقة مختلفة. والذي يجعل الإنسان عبداً للآلة، ليست الآلة، بل المنظومة أو المؤسسة التي تستخدمها، وفي النهاية العقل البشري نفسه. ويقال إن الآلة لم تأتِ إلّا بحضارة متعلقة بالخارجانية (أي بالرفاهية المادية) وليس بثقافة السريرة. وليكن. لكن هل هناك ثقافة سرائرية محضة لا علاقة لها، أية علاقة، بالحضارة المادية؟ يتعلق الأمر، إذاً، بردم الهوة بين علوم الطبيعة ومعارف الروح. الطبيعة ضرورة، في حين أن الروح حرية. كان الحكيم الإغريقي أو الهندي أو الصيني، يعرف إيجاد هذه الحرية. لكن كانت حرية ذاتية، وثمرة طاعة الطبيعة والخضوع لها وتدريب النفس.

لمنهج العلوم الحديثة التجريبي شيء مشترك مع السحر، لأن ما يحاول إظهاره لا يوجد بشكل طبيعي. لم يعد الأمر حدساً بالجوهر / الصورة، بل تطويراً لإمكانية متضمنة في الطبيعة نفسها. الآليات الحديثة هي نتاج روح تلك العلوم الحديثة، التي تنزع إلى إعادة تكوين الطبيعة وإعادة صياغتها. لم تعد تلك الروح تكتفي باستخدام الطبيعة حسب نفعها ولما وجدت له، ولم تعد تطابق بين الطبيعة وحاجاتها هي. والمطروح للتساؤل هنا لم يعد استقلالاً وحرية ذاتيين

يخضعان للطبيعة مع الإيمان بأنهما خارج ضرورتها. يتعلق الأمر بحرية واستقلال موضوعيين. إذاً، نقطة انطلاق العلوم الحديثة ليست المادية، بل مثالية موضوعية ترفض مباشرية الكائنات، أو لا تعثر في النهاية على هذه المباشرية إلّا بواسطة الذاتية.

إذاً، تجب مناقشة مفهوم النّفس. نظرت إليها المسيحية دوماً لجهة السريرة، وبالتعارض مع جسد مختزل إلى خارجانيته فقط. لكن اليوم. لا يوجد جسد غير معمَّم وموسَّط بآلة من الآلات. هذه هي المأساة الحديثة: لم يعد بمقدور تلك النفس العتيقة مصاحبة هذا الجسد الجديد، الموسَّع، الممدَّد الذي يتطلب مفاهيم جديدة، سياسية، واجتماعية، ودولية (من دولة) وحتى تيولوجية. هي ذي الصعوبة: الحضارة تتقدم، أما الثقافة فلا. الطبيعة البشرية بقيت هي هي منذ ملايين السنين. لكن لا بدَّ من إيجاد وسائل لتحسين العقل البشري تحسيناً حقيقياً. لحد الآن، كان العقل الياباني مرناً، مرهفاً ومتساهلاً، لكنه نباتي وسلبي. كيف يمكن أن نحسِّن روحنا الوطنية والتقليدية؟ على هذا السؤال لا بدَّ للفلاسفة المعاصرين أن يحاولوا إيجاد الأجوبة.

النص السابع بعنوان: «ماذا يجب أن نحارب؟»، وهو للصحافي والناقد السينمائي «تسومورا ــ هيديو» (١٩٠٧ ــ ١٩٨٥)... نص على شكل حوار بين ثلاثة: A - B - C.

A: الثقافة المعاصرة مركزها أوروبا. وقد استطاعت، إضافة إلى تقاليدها، الاحتفاظ لحد الآن بقدرة شمولية على الانتشار. ولكنها لم تنتشر عالمياً إلّا بفضل النظام السياسي العالمي القديم، القائم على القوة العسكرية والاقتصادية. وتحت مظلة ذاك النظام الذي أوجدته معاهدة فرساي، سيطرت فرنسا وإنكلترا بالتعاون مع الولايات المتحدة على أوروبا والعالم. لكن وفيما يتكون الآن نظام عالمي ألماني ــ إيطالي جديد، يصعب التنبؤ بمستقبل أوروبا. إن النظام العالمي القديم الفرنسي ــ البريطاني يجب أن يقوَّض مرة واحدة وإلى الأبد.

ومع ذلك، حالة فرنسا ليست بسيطة. من أجل بناء أوروبا جديدة، لا بدَّ من التعاون الوثيق بين فرنسا وألمانيا. لقد تحارب هذان البلدان مراراً خلال

القرنين التاسع عشر والعشرين. لكن في عصر الزخرفة أو في نهاية القرن الثامن عشر، زمن غوته، تأثرت ألمانيا تأثراً كبيراً بفرنسا. ولا تزال ألمانيا تحترم فرنسا جداً لحد الآن، مع أن الثقافة الفرنسية ملوّثة جداً بالفكرين الديمقراطي والشيوعي. من المؤكد أن فرنسا تحتاج، كي تعيد بناءها، إلى مساعدة المحور الألماني ـ الإيطالي. مثلاً، لم تعد السينما الفرنسية موجودة، وغالبية كتابها يهاجرون إلى أمريكا أو إلى أي مكان آخر. ويبدو أنه لا بدَّ من عملية أكل ألمانية للمؤسسات الفرنسية السينمائية ودمجها. احتاجت السينما الفرنسية إلى عقد من الزمن كي تعيد بناء نفسها بسبب الأضرار التي سببتها رؤوس الأموال الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى.

سوف تحتاج أوروبا الجديدة، زيادة على التعاون الفرنسي ـ الألماني، إلى مقارعة الفكر الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. حتى وإن لحقت الهزيمة العسكرية بهذا البلد، سوف يبقى الفكر الشيوعي في أوروبا طويلاً. صحيح أنَّ الشيوعية أجدّ من الثقافتين الفرنسية والبريطانية التقليديتين، لكن شموليتها وقدرتها على التسلسل والتسرب بلا حدود. أعتقد أن بريطانيا، وهذا رأي شخصي، سوف تكون عاجلاً أو آجلاً ـ وبغض النظر عن ظروف هزيمتها العسكرية ـ إذا ليست شيوعية، فاشتراكية بالتأكيد. أقول ذلك لأن المعاهدة العسكرية الإنكليزية ـ السوفيتية المبرمة في حزيران من هذا العام ١٩٤٢ ، بين بلد رأسمالي وبلد شيوعي ـ وكلاهما قوة عالمية ـ ذات دلالة قوية جداً.

B: لا أوافق تماماً. إذ هل يمكن التفكير بمستقبل أوروبا الجديدة بمعزل عن التحول العالمي الجديد الآن؟ بالإضافة إلى الثقافة الأمريكية، نشهد اليوم ولادة حتمية للثقافة الآسيوية. يجب التوقف عند الترابط بين الفضاء الثقافي الأوروبي وهذا الفضاء الثقافي الآسيوي، لأنهما سيجدان نقطة مشتركة بينهما: هي الإرادة الثقافية لصنع الجديد.

A: نعم. معك حق ولا اعتراض لي. أردت فقط الدخول في القضية المطروحة من الباب الأوروبي. لأن أوروبا كانت الحضور العالمي الوحيد والفعال.

C: على عاتق ألمانيا تقع مسؤولية أوروبا الجديدة، وعلى عاتق اليابان مسؤولية آسيا الجديدة. كيف ستكون العلاقة بين هاتين الثقافتين الجديدتين؟ أن نجد في هذه وفي تلك الإرادة نفسها لخلق وصنع الجديد، لا بأس... لكن أليس هناك فرق كبير بين الديانات، بين روحي هذين الشعبين، بين عرقي ولغتي هذين البلدين؟ وبالتالي، لا بدَّ، كمرحلة أولى، من مناقشة مستجد الثقافة الأوروبية والمعنى الذي سوف تأخذه هذه الأخيرة. لكن كيف نضمن ارتباط وتعاون مناطق الثقافة بين الغرب والشرق؟ إنّه سؤال ملحٌّ بالنسبة إلى اليابان؟ والواقع، إن اليابان تمثّلت وهضمت بفعالية الثقافات الأوروبية والأمريكية، وفي الوقت نفسه حافظت على الروح التقليدية اليابانية. إن الموضة الأسطورية لكلمة «ثقافة»، لا سيما في عصر تايشو (١٩١٠ ــ ١٩٢٠)... ثقافة البيت، ثقافة لفافة الرز، ثقافة السروال القصير، ثقافة الموقد... إلخ تثبت بشكل مضحك، لكن أنيق، التأثير الهائل للحضارة المادية الأمريكية. أهتم كثيراً بموضة كلمة «ثقافة»، وأهتم أيضاً بهؤلاء الفتيات اللّواتي يردن بأية طريقة توقيع رياضي أجنبي أو صور النجمة السينمائية «ديانا دار بين» المعلقة على جدران جميع المقاهي وجميع صالونات التجميل.

منذ انفتاح ميجي واليابان تهضم الثقافة الأوروبية بفعالية، لكن بدءاً من سنوات ١٩١٠ ــ ١٩٢٠ غزتها الثقافة الأمريكية. فالشباب اليوم يظنون أنهم يعرفون تولستوي أو دستوفسكي بفضل الأفلام السينمائية الأمريكية المأخوذة من مؤلفاتهما. وهذه ليست حالة اليابان فقط: ٧٥٪ من الأفلام المستوردة في ماليزيا، والفيلبين، وهونغ كونغ، وشانغهاي، كانت أمريكية قبل الحرب. يجب أولاً التفكير بهذا التأثير الضّار من أجل نظام جديد في آسيا. لقد نشرت أمريكا على كلّ بقعة من هذا العالم الذي أرهقته الحرب العالمية الأولى، الجاز والإيروتيزم والتفاؤلية (هذا العالم خير العوالم). إن تجاوز الأمريكية بالنسبة إلينا أكثر إلحاحاً من تجاوز الأوروبية. قبل الحرب الأولى، كان يمكن إحصاء أربعة بلدان فقط تنتج أفلاماً سينمائية مهمة: ألمانيا، فرنسا، الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي. وفي المستقبل سوف تضمن ألمانيا توحيد السينما الغربية.

B: وأخيراً، إن المحور الألماني ـ الإيطالي ـ الياباني ليس شيئاً آخر سوى مثال جديد في مواجهة انحطاط الثقافة الغربية. وبما أن الأمر لا يتعلق بتجاوز الحداثة الأوروبية فقط، بل والأمريكية أيضاً، فلا بدَّ لنا من حربٍ عسكرية وثقافية مدتها مائة عام كي ننتهي من هذا الموضوع.

النص الثامن بعنوان: «تفكير وإبداع الروح اليابانية» وهو للشاعر ميوشي ـ تاتسوجي (١٩٠٠ ـ ١٩٦٤)... شاعر مشهور جداً وذو رهافة حادة. يدور عمله الشعري حول عزلة ووحدة الحياة الحديثة. كتابته عمل معقد جداً ومركب من لغة تستخدم أساليب وطرق الشعرية القديمة. متخصص بالأدب الفرنسي، ولا سيما ترجمة بودلير...

يتناول في نصه النقاط التالية: هل يكفي التفسير الفيلولوجي المفصَّل للأعمال الكلاسيكية من أجل اكتشاف وجهة بلدنا العامة؟.

٢ ـ هل الروح اليابانية وسماتها كما نجدها في تلك الأعمال الكلاسيكية وجدت حقاً في الماضي، أم أنَّ الأمر يتعلق بقيمٍ اكتشفت حديثاً ثمَّ أضيفت؟.

٣ ـ هل طريقة تحليل هذه الأعمال علمية حقاً أم أنها ببساطة نصف انطباعية؟.

٤ ـ إذا كانت تقنية التفسير والتعليق غير علمية بشكل كاف، ألا يوجد تناقض بين هذا الإبهام والغموض وبين الدعوة إلى صرامة الروح العلمية؟.

٥ ـ لماذا يقتصر البحث بشكل مقصود على الماضي، ولماذا نسعى إلى اكتشاف الروح اليابانية بالعودة إلى الماضي؟.

٦ ـ ألا ينبغي بالأحرى خلق الروح اليابانية من جديد، تلك الروح التي ستتيح لنا السير والتقدم نحو المستقبل منذ اليوم؟ لكن ما العلاقة بين هذا الخلق وتلك العودة الاستذكارية؟.

ثم يضيف: من نافل القول إنه لا يمكن معرفة الجديد إلّا بوعي القديم. لكن الموجود من الماضي ليس إلّا أجزاء وبقايا. ومن المؤكد أن الماضي جزء من

المؤلفات التي تستشار، لكنَّ قيمته تظلّ قيمة استشارية، وإذاً اختيارية. ميوشي ـ تاتسوجي لا يحب الهذيان المدّاح، ولا الأكاذيب البراقة. لا يمكنه أن يتفق مع متخصص بالأدب الياباني يجعل من الشاعر القديم «باشو» مواطناً وفياً للإمبراطورا.

المشاركون، التاسع، العاشر، الحادي عشر، هم بالتتالي:

ـ كيكوتشي ـ سايشي (١٩٠٢ ـ ١٩٧٤)، عالم فيزياء نووي لعب دوراً حاسماً في إدخال الفيزياء النووية إلى اليابان. سوف يظلّ تأثيره حاسماً أيضاً لوقت طويل بعد الحرب. لم يقدِّم نصه إلّا بعد الاجتماع ولذا لا نأتي عليه.

ـ ناكامورا ـ ميتسوؤ (١٩١١ ـ ١٩٨٨) ناقد أدبي اشتهر جداً، منذ الثلاثينات ١٩٣٠ بكتاباته وبحوثه... يأخذ على الأدب الياباني انحصاره بالسير الذاتية المتخيلة وميله إلى الاحتراس من أي نقد اجتماعي. لكنَّ أعماله هي في الغالب رصد السير الذاتية للكتاب ورصد مسيرتهم الثقافية. لم يقدم نصه إلّا بعد الاجتماع ولذا لا نورده.

ـ سوزوكي ـ شي كيتاكي (١٩٠٧ ـ ١٩٨٨) جامعي متخصص بالتاريخ الأوروبي وأحد المنظرين الإيديولوجيين من أجل آسيا شرقية متقدمة ومتطورة. عضو في مدرسة كيوتو. نصه بعنوام: «بحث في تجاوز الحداثة».

سياسياً يجب تجاوز الديمقراطية، اقتصادياً يجب تجاوز الرأسمالية، فلسفياً يجب تجاوز الليبرالية. هو الآخر يضيف أن هذه المشكلة مطروحة أولاً على الأوروبيين، وليس على اليابانيين أو الصينيين. لأنه بالنسبة إلى هؤلاء، لم يصل بعد محتوى فكرة الحداثة والتحديث. ومع ذلك، لا بدَّ من الاعتراف بأن اليابانيين شيدوا بلداً ديمقراطياً إلى حد ما، رأسمالياً وليبرالياً وفق النموذج الأوروبي الحديث طبق الأصل. ومن جهة أخرى إن معنى تجاوز الحداثة ليس واحداً حتى في أوروبا. فغالبية المفكرين الألمان تحدد مُسَاءلةَ الحداثة بتجاوز القرن التاسع عشر، في حين أن برديف وس. هـ. داوسون يعودان إلى النهضة للبحث عن سبب الانحطاط الأوروبي.

وبالنظر إلى هذا كلّه، يقترح سوزوكي التخطيطة التالية:

١ ــ إيضاح المعنى الأصلي، أي الأوروبي، لتجاوز الحداثة.

٢ ــ إيضاح معنى ذلك أيضاً بالنسبة إلى اليابان.

٣ ــ إيضاح ما إذا كان موضوع التجاوز، أي ما يجب تجاوزه، موجود في القرن التاسع عشر أو في النهضة.

٤ ــ إذا كان الأمر يتعلق بالنهضة، ينبغي أخذ مسألة الدين بعين الاعتبار، وينبغي أيضاً التفكير بمستقبل المسيحية.

٥ ــ يجب فحص مشكلة العلوم، دورها وحدودها من أجل حلّ الأزمة الحالية للحضارة.

٦ ــ أما فيما يخص علم التاريخ، يجب تجاوز فكرة التقدم، ثم التاريخانية نفسها. إن تجاوز التاريخانية (نظرية تذهب إلى أن كلّ حقيقة تتطور مع التاريخ) هو تجاوز الحداثة في علم التاريخ.

وأخيراً يأتي كاوا كامي ــ تيتسو تارو (١٩٠٢ ــ ١٩٨٠) ليقدم حوصلة اللقاء والمؤتمر... ناقد أدبي مشهور، تأثر بالرمزية كثيراً... كتب حول الدين والموسيقى، وترجم كثيراً عن الفرنسية... ألحقت تلك الحوصلة، لأهميتها البالغة، بكتاب أعمال المؤتمر... بعد أن شرح كاوا كامي بالتفصيل فكرة المؤتمر والتحضيرات التي سبقت، يضيف: «لا أستطيع القول إن هذه الطاولة المستديرة نجحت أم لا. لكنها بالتأكيد ولادة رعشة ثقافية أفرزها وجودنا الآن في وسط سنة من الحرب. كلٌّ منّا ممزق بين الدّم الياباني الذي يقف فعلياً وراء هذه النشاطات الثقافية وبين المعرفة الغربية التي تمنهج هذه النشاطات. جوّ غير عادي من الفوضى والقطيعة كان يسود أثناء المؤتمر. وهذا الكتاب ليس إلا ريبورتاجاً أميناً يصور صراعاً دموياً لا يزال مستمراً. ولا نستطيع رؤية النتيجة إلّا بعد انتهاء الحرب. أتذكر في «جمعية الأمم» اللقاءات حول التعاون الثقافي التي عقدت برئاسة بول فاليري. كان الموضوع: «كيف يكون الأوروبي ممكناً؟». كانت هذه الجوقة من المثقفين الأوروبيين الرفيعي المستوى، تدوي وتدوي بحيث امتنعوا عن الحديث المباشر في السياسة مع احترام بروتوكول صارم ودقيق.

معنى اجتماعنا كان مختلفاً.روح يابانية جديدة... هو ذا الشعار الذي رددته وأنشدته بالتساوق غالبية النّاس قبيل إعلان الحرب. تحت مظلّة هذا التساوق والتناغم، سوف تدفن جميع جهود الروح وقدراتها. قاومنا هذا الجمود وهذه السلبية وهذا الخمول، ليس لأننا نُمتَعُ من قول ما نريد، بل لأننا نريد فقط طرح السؤال: كيف يكون الياباني المعاصر ممكناً؟ منذ سنوات ونحن نتحدث عن عزلة كلِّ قطاع من ثقافتنا، وكثير من القراء سوف يتذكرون ذلك لدى قراءة هذا الكتاب. لقد ظهر الاختلاف بيننا حول كلّ شيء: حول المفردة، حول المنهج الثقافي، حول طريقة الإجابة على الوضع التاريخي الحاضر. تناقشنا كسجناء يتواصلون فيما بينهم بالقرع على حيطان زنزاناتهم. لم نَخَف من معارك غير مفيدة في الظاهر. وهذا دليل احترامنا لهدف هذه الطاولة المستديرة. الموضوع والمنهج ليسا سوى الحدود الانتقالية للبحوث المطروحة. بعض المشاركين تكلّم بابتسار على قلّة فائدة هذا المؤتمر أو على غياب وجهته. ومع ذلك، نكتفي الان بوضع حجر الأساس».

إنّ الاستشهاد بهذا النّص كافٍ، لأن القضايا التي يطرحها هي دوماً القضايا التي يبحث اليابانيون عن حلّ لها.

٣ ــ النقاشات خلال يومي ٢٣ ، ٢٤ تموز ١٩٤٢:

جرى الحديث في اليوم الأول حول معنى النهضة. أدار الجلسة المؤرخ سوزوكي وأشار إلى أنه لا بدَّ من الانتباه أكثر إلى الاستمرارية بين العصور الوسطى والعصر الحديث: إذا فهمنا الحداثة كثلاثي مكوّن من الديمقراطية والليبرالية والرأسمالية. فإن بدايتها الحقيقية قد تكون نهاية القرن الثالث عشر. أمّا المشكلة في نظر يوشي ــ ميتسو، هي كيفية العثور على الوحدة المفقودة بالنسبة إلى أوروبا واليابان على السواء. ليس الإنسان الحديث كائناً خرج لتوه من الطبيعة أو لا يزال في حضنها، ولذا يجهل الله في جوهره. الإنسان الحديث هو إنسان مأساوي فقد الإيمان. ويرى سوزوكي ضرورة تجاوز الحداثة لأن العصر الحديث يعتقد أنه نفي العصور الوسطى في حين هو وريثها المباشر.

وحول الأسئلة الخاصة بالعلم، يبدأ الحديث «شي مومورا» ويشرح التعارض بين الفكر الفلكي والفكر السحري خلال عصر النهضة. وراء علم الفلك توجد حتمية كليّة، قدرية تسيطر على العالم البشري كما تسيطر على العالم الفلكي. والسمة الرئيسية للنفس ـ أي حرية الروح ـ تقوم على معارضة هذه الضرورة من خلال سحر سوف يقود في القرن السابع عشر إلى مناهج العلم الحديث التجريبية. والسمة الرئيسة للعصر الحديث، حسب ديكارت أو غاليلة، لا توجد في حدس الشكل / الجوهر، بل في عملية استخراج بعض الطرق من الطبيعة... ليست تأملاً ولا حدساً ثابتاً، لكن عملية إجرائية أو تطوير ديناميكي. وهذا ما يجعل الطبيعة تتكلم تحت التعذيب.

هذه الروح المثالية تُظهرُ شيئاً غير موجود في الطبيعة بفضل وساطة الذاتية التي تكوّن بالطريقة نفسها روح عصر الإصلاح. ولا يمكن تبرير لوثر مثلاً إلّا بالإيمان: والإيمان ليس شيئاً آخر سوى ظهور الذاتية الحديثة. يتفق سوزوكي مع شي ـ مومورا حول هذه النقطة ويستشهد بـ: Troeltsch الذي يحدد المكوّنات الأربعة لأوروبا الحالية. الإغريق القدامى، المسيحية، الروح الألمانية، الروح العلمية. لكن تروليتش يرى أن الرّوح العلمية تختلف عن المكونات الثلاث الأخرى. لعلَّ ما يكون أصالة الحداثة هو الجانب السحري والتكنولوجي من العلم. ويتفق جميع المشاركين حول هذه النقطة ما عدا يوشي ـ ميتسو الذي يعتقد أنّ كلَّ شيء موجود في العصور الوسطى.

يمكن إيجاز النقاش بين يوشي ـ ميتسو ونيشي ـ تاني بالقول إنَّ هذا الأخير يستشهد بـ جيمس فريزر ويضع السحر والعلوم في معارضة الدين. لكن يوشي ـ ميتسو يريد إقامة استمرارية بين الروح الفلسفية الإغريقية والروح العلمية الحديثة، بين الميتافيزيقيا والفيزيقيا، ثم ينقد نيشي ـ تاني قائلاً إن العدم الإيجابي والمستقل (شوتاي تيكي ـ مو) لا يمكن أن يحلَّ تماماً الإشكالية التي، وفقها، تواجه النفس الطبيعة من خلال علاقتها بالعلم. لذا لا بدَّ من نظام يستطيع إعطاء النفس مكانها الحق. يرد نيشي ـ تاني بضرورة الإقرار بأنَّ المفاهيم المتعددة للنفس وللطبيعة لم تعد تتوافق مع النظرية الحالية للعلوم الحديثة،

ومع مسلّمات الدّين المسيحي كالقول مثلاً إنَّ الله خلق العالم. لكن يوجد في هذا الدين نوع من نفي الأنا، أي الاتجاهات الصوفية فيه: مثال المتصوف الألماني المعلم إيكهارت القريب في نظر نيشي ـ تاني من فلسفة مدرسة كيوتو. يوشي ـ ميتسو غيرّ موافق، لأن المشكلة الحقيقية ليست في تجاوز المنظومات الألوهية كما يقول ويكتب أعضاء مدرسة كيوتو؛ بل العكس، إن الأمر يتعلق على صعيد الدين المسيحي بتوليفه من الوجود الإنساني الديني ومن البحث العلمي... مرّة أخرى، يفضي النقاش الديني إلى مأزق وطريق مسدود.

في نهاية اليوم الأولَ عولجت نقطة واحدة مثيرة: متعلقة بالتصويت والتنغيم. كي تنشد أو تغني في اليابان أو في الصين لا بدَّ من كسر الصوت. وهذه ظاهرة غير موجودة في أوروبا. إلقاء «النّوّ» يعود إلى عصر موروماتشي (حوالي ١٤٠٠ م) إننا إذ نجد الأصل في إلقاء ميكّيو (بوذية باطنية)، يحق لنا الاعتقاد باستمرار الصوت المكسور في الموسيقى اليابانية والموسيقى الشرقية المتأثرة بالبوذية.

وجاء اليوم الثاني والأخير ليُكرَّس حول اليابان بشكل خاص. أدار النقاش كوباياشي ـ هيديو (١٩٠٢ ـ ١٩٨٣)... ناقد أدبي كبير، له تأثير هائل على الجميع بفضل إنتاج غزير وخصب. نشر سنة ١٩٣٥ بحثاً ينقد فيه أدب الأنا الذي سيطر على الأدب الياباني الحديث منذ سنة ١٩٠٠ . كتب سيرة ذاتية مذهلة عن دوستوفسكي. ومنذ دخول اليابان الحرب، أخذ يهتم بالفنون اليابانية التقليدية وبالأدب قبل ميجي... بفضله أصبح النقد الأدبي في اليابان جنساً مستقلاً.

هو الوحيد الذي لم يقدِّم أي نص لا قبل ولا بعد المرتمر، لأنه يتمتع بقدر كبير من الهيبة التي تحيط أي معلّم معروف... يعتقد كوباياشي أن ما يُسمّى بتأثير الأدب الأوروبي على الأدب الياباني ليس إلّا تاريخاً من تكدّس أسواء الفهم. ثم بدأ الحديث حول تجربته مع الأدب الأجنبي، لا سيما مع دوستوفسكي... ما تعلمه كوباياشي من دوستوفسكي هو أن هذا الكاتب الكبير لا يعبر أبداً عن المجتمع الروسي الحديث، ولا عن روسيا في القرن التاسع

عشر. بالعكس، ربح المعركة ضد زمنه وضد محيطه. مؤلفاته ليست سوى لحظات ذاك الرّبح والانتصار. يجب الانتباه إلى الخطأ الرئيسي في الدراسات الأدبية الوضعية والعلمية التي انتشرت عندنا في العشرينات والثلاثينات وكانت هي الموضة. ننقد الفردية والعقلانية الغربيتين، والأحرى بنا أن نفهم كيف استطاع الكتّاب الأوروبيون الكبار تجاوز جميع هذه المدارس. ما يحتاج إلى النقد، هو المفاهيم التاريخية السطحية التي تعتقد أن الأدب الفردي لا يوجد إلّا في عصر فردي.

العصر الأوروبي الحديث مأساة، ومحاكاته اليابانية هي الملهاة بعينها: في أيّ عصر يتجاوز ناس الصف الأول زمانهم. والمفهوم الحديث للتاريخ هو نظرية تعالج التاريخ من وجهة نظر التطور والتقدم. ربما تلزمنا نظرية أخرى تهتم بكشف ما يظلّ مستمراً وثابتاً في التاريخ. ألا يقوم ضعف الحداثة في نسيان ما يظل تاريخياً هو هو نفسه؟ يظهر الفن أو الأدب كصياغة لإنسجام أو لنظام. أليس النجاح المحض لهذا الإنجاز هو الوقت الذي تستطيع فيه الطاقة الإبداعية لدى الفنان أو الكاتب موازاة القوى التي تجرف عصرها؟ والمقصود هو الإشارة إلى ذلك التوازي حيث لا يعود الكاتب الكبير يطيع عصره، لا يعود خاضعاً له لكن لا يتركه مع ذلك. يعتقد كوباياشي أنه من الخطأ الكبير اعتبار التاريخ تطوراً أو تقدماً. وفي النهاية، يصارع الإنسان على الدوام شيئاً يظلّ هو هو. أحياناً ومن خلال هذا الصراع يصل رجل عظيم إلى الخلود.

يتدخل نيشي ـ تاني. يوافق على مظهري التاريخ: الدوام والتطور. لكنهما في نظره مترابطان ولا ينفصل واحدهما عن الآخر. فالمظهر المستمر الدوام، الخلود، لا يمكن فصله عن التاريخ الذي يتطور. يرد كوباياشي بأن التفسيرات والمفاهيم التاريخية لم تعد تعنيه. هناك شيء ما لا يتغير في التاريخ رغم مئات التفسيرات الحديثة أو المعاصرة، إنه «الجمال التاريخي»، إذا أتيح له مثل هذا التعبير. يتعلق الأمر بالحدس في التاريخ، تاريخ شكل إنسان أو عصر. ويطالب كوباياشي بعيش التاريخ كعمل فني.

من جديد يأخذ الكلام نيشي تاني: «نستطيع القول في الواقع إن عملاً

فنياً أو أدبياً يتجاوز الزّمن ليبلغ الخلود. لكن الرّوح التي تسعى لخلقه تظل داخل التاريخ. يجب البحث عما بحث عنه القدامى وليس عما بقي منه (يقال إن هذه العبارة للأمبراطور الشاعر كوتوبا الذي كان يُعتبر مثالاً لـ«روح ميجي»). أنا موافق تماماً، لكن لا نستطيع تطبيق فكر أفلاطون، كما هو، في العصر الحديث. علينا البحث عما كان قد سيبحث عنه أفلاطون لو ولد في القرن العشرين». يجيب كوباياشي: «عماذا بحث القدامى، وما هو أثر القدامى؟ بما أن هذه الألفاظ غير قابلة للتحديد تماماً، فإننا سوف نضطر للدخول في نقاش طويل دون نهاية. وكلّ هذا لا يعني إلّا شيئاً واحداً: القدامى والكلاسيكيون بلغوا الكمال. يشعر الإنسان الحديث بالتفوق على القديم لأنه فقط ولد وجاء فيما بعد. بالعكس، يجب التواضع، يجب الاعتقاد بأنّ القدامى أنجزوا كلّ شيء».

يتدخل يوشي ــ ميتسو ويقف إلى جانب كوباياشي. يوافقه على أنّ الشروط الخارجية للتاريخ بقايا ورواسب يمكن إهمالها. ما يهم هو الطور الميتافيزيقي حيث تلج النَّفس نفساً أخرى مباشرة. كوباياشي يكتشف هذا الطور في الفن، ويوشي ــ ميتسو في وجهة نظر تيولوجية يمكن مقارنتها بمفهوم «التواقت، المعية» عند كيركيغارد. إن خطأ التفسيرات الفيلولوجية أو التاريخية هو إعادة كلّ شيء إلى تأويل تطوري. من المؤكد أن هذا المذهب لا ينطبق على العالم الرّوحي.

يستأنف كوباياشي الكلام ويستشهد ببرغسون كمثال على فيلسوف يستخدم اللغة العادية: «إذا رمينا جميع الحاجات الضرورية للحياة الاجتماعية، لكن التي لا فائدة منها بالنسبة إلى حياة أخرى، عميقة وحقيقية، فسوف يستطيع كلّ النّاس فهم وإدراك الجمال بشكل مباشر. إذا سعينا حقاً إلى فهم وإدراك حاضر الكائن، فلا بدّ أن نعوّض ونرمي أولاً كمية كبيرة من التصورات والخرائط التاريخية التي تطفح بها رأس الإنسان الحديث. لأنها حقاً هدايا الشيطان.

يعترف سوزوكي بقلق المؤرخ تجاه نقاش مماثل. يوافق على نفي مفهوم التقدم لكن لا يستطيع أن ينسى تماماً مفهوم التطور أو مفهوم النمو، ويطالب كوباياشي بتوضيح ما يظل غير متغير في التّاريخ. يجيب هذا الأخير ـ بلا تردد: لا وجود للزمن ولا للتطور بالنسبة إلى ما نهوى ونحترم، لأن أثر القدامى يصير عرفاً، عادة، تقليداً، عند كلّ فنان مبدع. يوافق سوزوكي تقريباً ويستشهد بـ: ليبولد فون رانك: لا أحد يستطيع كتابة تاريخ أفضل من توسديد Thucydid . ولا أحد يستطيع كتابة مأساة أفضل من سوفوكل. كلّ عصر يكاد يلامس المطلق بشكل عامودي... ويطرح سوزوكي سؤالاً أخيراً على كوباياشي: يقال إن الإبداع تقليد، هل أنت من هذا الرأي؟ يجيب بلا تردد: نعم.

ثم طرحت مشكلة التخصص. بدأ كامي ـ كاتسو إتشيرو يشكو من ضياع الشمولي والكلي في اليابان التي استوردت وبشكل سريع حضارة غربية مجزأة. ثم يستشهد بمثال نادر: «أوشي ـ مورا، كانزو»، مهندس متخصص بتربية الأسماك، ثم تكوّن في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه يرفض أن يصير متخصصاً بأي شيء، ولا يريد أن يطيع إلّا الله خالق العالم والوجود. كامي يريد متابعته على هذه الطريق، لكن بروح وطنية مختلفة عن روحه المسيحية.

ثمّ أخذ النقاش يختلط ويتشوّش، لأننا لا نستطيع العودة لا إلى العصور الوسطى الأوروبية ولا إلى العصر البدائي في اليابان. ويجب التذكير فوراً بأن اليابان تخوض حرباً ضد القوى الغربية الأكثر حداثة والأشد قوة. لذا سوف يقع المشاركون أخيراً في تناقض دون حل. لا يزالون يناقشون جوهر التحديث في عصر ميجي، التحديث ذا الطابع الأوروبي والموجود الآن في بلدهم، ويناقشون اهتمام الشباب بالأدب الأجنبي، والصعوبة البالغة للتواصل باللغة اليابانية، لا سيما في مختلف العلوم والأقسام الحديثة، لا يزالون يناقشون النزعة الأمريكية والحداثة...

٤ ـ خلاصة:

تلكم هي العناصر الأساسية للنصوص وللنقاشات. وها هي بعض الملاحظات حول هذه الطاولة المستديرة: بعد نصف قرن وأكثر، يظلّ الوضع في اليابان هو هو. والمعاينة لم تتغير: أزمة لغة، طيش صحافي، انتهازية يابانية بامتياز، استحالة التواصل، أمركة تامة تقريباً. هذه الظواهر والمشكلات الناتجة عنها لا تزال راهنة لحد الآن. حالة اليابان من سيء إلى أسوأ. ولا بدَّ أن تكون هوية المعاينة والمشكلة المطروحة موضوع تساؤل كبير.

لماذا لم أستشهد بأعمال تاكؤتشي يوشيمي (١٩١٠ ـ ١٩٧٧) ولا بأعمال هيروماتسو ـ واتارو (١٩٠٣ ـ ١٩٩٤) اللذين تتسم وجهة نظرهما عموماً وفيما يخص هذا المؤتمر تحديداً، بالحدة الشديدة والواقعية؟ لأنهما وقعا في خطأ عقدة تفوق «من يأتون فيما بعد...» والذين تحدث عنهم كوباياشي في اللقاء. طبعاً، معهما الحق، والطاولة المستديرة على خطأ، لأنهما نجيا من الحرب ولأن هذا المؤتمر عقد سنة ١٩٤٢ . «ملعونة هذه الطاولة المستديرة»، هذه هي عبارة تاكؤتشي. وإذا أخذنا بالاعتبار جوهر فكر هيروماتسو، فلربما قال: «امبريالية وعسكرية» هذه الطاولة المستديرة.

إن هذا المؤتمر هو بالنسبة إلينا، نحن اليابانيين، وسوف يظل، نقطة انطلاقنا الوحيدة، لأنه لم تكن هناك إمكانيات أخرى. ياباني فتيٌّ، غني ومعافى الصحة، يهبط من السماء فجأة مثل جده الأسطوري، دون ماضٍ ومُبرَّأ من جميع الخطايا... هكذا ياباني لا يوجد إلّا في الخيال الذي سيطر على الديمقراطية اليابانية، ديمقراطية ما بعد الحرب...

وأخيراً. هي ذي فقرة من كتاب «الحضارة اليابانية» لصاحبه فاديم إيليسيف، تكشف عن العلاقة القوية بين الجدلية البوذية وفلسفة مدرسة كيوتو: «كان مؤسس مذهب تانداي الرّاهب سايئتشو (٧٦٧ ـ ٨٢٢) مقتنعاً بأن التعاليم قد أوحيت بالتدريج وفق فهم المستمعين، من الأبسط إلى الأكمل، من نصوص هينايانا (مركبة صغيرة) إلى نصوص ماهايانا (مركبة كبيرة). هكذا

كان يؤكد تقاليد المعلم الهندي ناغارجونا (القرن السابع) ويعززها. حسب تلك التقاليد، هناك ثلاثة أنواع من النشاطات الذهنية: الأول هو فعل الإثبات، الثاني نفي الفعل الأول، الثالث تجاوز الفعلين السابقين، ويُسمّى إشراقاً مزدوجاً، احتقاناً مزدوجاً. لا شيء يوجد بشكل مستقل، كلُّ شيء مترابط، متواقف، في تبعية متبادلة، كلُ عنصر لا شيء بذاته وجميع الأشياء فارغة. هذا الفراغ لا يعني اللا وجود، بل يعني الوجود المؤقت لتغير مستمر. لكلّ شيء إثبات ونفي في جملة ثالثة: إنّها حقائق الفراغ الثلاث، حقائق المؤقت الثلاث، حقائق الوسط الثلاث. إذاً، ينبغي وعيها والانتباه إليها في الحياة اليومية من أجل بلوغ البوذانية، وينبغي إدراك أن الحياة والموت هما النيرفانا. هذا التعايش بين المتناقضات، ووحدتها يفسّران ملمحاً من الملامح المعاصرة للروح اليابانية التي تتجنب الاستسلام لـ «لعبة المنطق الأخيرة».

لعلَّ هؤلاء المثقفين المجتمعين سنة ١٩٤٢ استسلموا للعبة المنطق الأخيرة من أجل رفض المنطق أو إظهار حدوده. يمكن أن نلومهم لوماً ارتدادياً، فلربما كان باستطاعتهم التساؤل عما إذا كان فخ المنطق الحديث هو الذي ورّط اليابان في الحرب أم هي الروح اليابانية التي فعلت ذلك. أهو المنطق الذي دفعهم إلى الاجتماع سنة ١٩٤٢ أم الروح اليابانية بغاية مناقشة تطورات وأحداث كانت ولا تزال وسوف تحوّل وتغيّر اليابان؟.

مقدمة للتساؤلات والتعقيبات

السؤال الأول، من بين أسئلة أخرى كثيرة، هو لماذا لم يفكر هؤلاء المثقفون بتجاوز الحداثة إلّا في لحظة مماثلة، لماذا لم يفكروا بالعودة إلى الروح اليابانية إلّا أثناء الحرب؟ منذ سنة ١٨٦٨ إلى ١٩٤٢ وهم يأخذون عن الغرب وينهلون من ثقافته ومن تقنيته... والآن يريدون الاغتسال من «دنس» تلك الثقافة وتلك التقنية. كيف؟ بالانقلاب عليها ورفضها عسكرياً أولاً وثقافياً ثانياً. هؤلاء المثقفون، وغيرهم كثر، هم الذين نقلوا الثقافة الغربية إلى المعاهد والجامعات. وهم الذين يريدون الآن إعادتها إلى موطنها وكأن شيئاً لم يكن...

أي منطق هذا! «الانقلاب»، الارتداد المفاجىء، تغيير الموقع بسهولة هائلة، هذه هي بعض صفات الروح اليابانية التي لا تهدأ أو تستكين إلّا في التناقضات.

تظل أعمال ذلك المؤتمر وثيقة هامة جداً من أجل فهم اليابان المعاصرة. لأن الموضوعات والأسئلة التي طرحت ونوقشت لا تزال هي هي بالنسبة إلى الياباني اليوم. كيف يمكن أن نتجاوز ما حدث. وما معنى نتجاوز وكيف... أسئلة من هذا النوع لا تزال تقلق المجتمع الياباني الذي يشعر بأنه فقد الهوية الوطنية والروح الأصلية. ولا سيما بعد الأمركة شبه التامة للحياة اليابانية... كيف نتجاوز أوروبا والغرب في سنة ١٩٤٢ ... وكيف نتجاوز اليوم النزعة الأمريكية التي تطغى على كل شيء... هل نحتاج إلى حرب جديدة مع أمريكا لكي نتجاوزها كما حاولنا مع أوروبا ورأينا النتيجة... لكن لا... الانفتاح عليها وعلى ما لديها هو الطريق السليم... التجاوز هو الدّخول في الشيء إلى نهايته... تماماًكما حدث أيام الانفتاح الأول ١٨٦٨ ... تجاوز أوروبا هو اللحاق بها، هو نقلها إلى اليابان... وهذا ما يحدث اليوم: في أمريكا فراغ، ونحن أولاد الفراغ... إذاً إلى أمريكا وإلى الفراغ الأمريكي... في أمريكا ما بعد ـ حداثة، إذاً إلى ما بعد ـ الحداثة... هكذا نتجاوز الحداثة... إعادة الإعادة... تكرار التكرار، العودة إلى تلك الدائرة اللعينة وإلى فراغها... إنه العدم الإيجابي الذي يعيد نفسه دوماً ونحن أولاده منذ القدم... هكذا هي أمريكا اليوم: إغراء يشد كلَّ ياباني كما شدَّ الإغراء الأوروبي أسلافه في عصر ميجي... وتنحسر الثقافة الأوروبية في أنحاء الأرخبيل الياباني لتحل محلّها الثقافة الأمريكية... والتقنية الأمريكية وحتى ربطة عنق رعاة البقر الأمريكية... الياباني اليوم يتقمص الأمريكي في كلِّ شيء... يعكسه ويمسك به... تماماً كما فعل أسلافه بالنسبة إلى أوروبا والغرب...

يُفكَّر بأمريكا اليوم من وجهة نظر روحية، وجهة نظر دينية بحتة. أمريكا هي مثال واضح على مأزق الثقافة الأوروبية... فالمجتمع الأمريكي وقيمه يُظهران ما كانت تحتويه الأزمة الأوروبية... أزمة قيم ومثل... إن العودة إلى أوروبا وطرح سؤال العدمية، يعني إظهار أن نهاية أوروبا ووهمية أفكارها ومثلها

وخطأ الدين الذي يؤسس حضارتها هي أشياء تدلُّ عليها الحضارة الأمريكية التي ليست سوى التكدّس والخلاصة. ولهذا فإن أوروبا تجد نفسها خاضعة للولايات المتحدة: تكتشف فيها ضعفها الذاتي وتجد أنها لا تستطيع معارضة ما كانت قد ولدته... الحضارة الأمريكية هي إذاً نهاية الحضارة الأوروبية التي بحث مؤتمر ١٩٤٢ عن كيفية تجاوزها... معركة التجاوز لا تزال مستمرة... ليست عسكرية اليوم... لقد حررتنا الهزيمة من الحلول العسكرية... إنها حرب روحية وشاملة ضد العدم السلبي الذي بلغته الحضارة الأوروبية والذي تمثله اليوم الحضارة الأمريكية... العدم الإيجابي هو الرهان ولا بدَّ أن ينتصر...

عندما انفتحت اليابان على الثقافة الأخرى، اكتشفت العدمية... ذلك الشيء الذي ينخر الحضارة التي انفتحت عليها بالقوة لأنها كانت تهددها، وتهدد سيادتها، ونظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي... منذ البداية كان هدف الانفتاح هو حماية اليابان على جميع الأصعدة... لكن ما خافت منه وقعت فيه: حدث الانفتاح، وحدثت حروب وانهزمت اليابان واحتلت... الخوف الذي ساد اليابان في القرن التاسع عشر من الغرب، وأوروبا، هو الآن سنة ١٩٤٥ حقيقة يومية قلبت الموازين والمفاهيم... بما أن الفكر الأوروبي الموجود وراء هذه التقنيات ينفي ذاته، ويضع موضع اتهام أسس الحضارة التي أنتجت تلك التكنولوجيات والتقنيات، لأنه يكتشف وهميتها وخداعها، فإن هذه العدمية تدلُّ على نهاية الأزمنة الحديثة وتؤكد أزمة الحداثة... ما العمل؟ ألا يمكن تجاوز هذه الحالة؟ كيف يمكن شرحها وفهمها وتجاوزها؟... الفكر الأوروبي ينفي ذاته، ويقع في أزمة ويصل إلى العدمية... ولا بدَّ من تجاوز تلك الأزمة وتجاوز تلك العدمية... لا بدَّ من تجاوز المفهوم الأوروبي للتجاوز، ولا بدَّ من خوض المعركة ضد هذه العدمية الأوروبية وضد مسبباتها، وضد ما قاد الحضارة الأوروبية إلى الأزمة... لكن كيف نجيب على أسئلة أخرى: هل الحروب التي شنتها الأمم الأوروبية علامة قوة أم علامة ضعف؟ ما الذي قاد اليابان إلى الحرب، ثم إلى الهزيمة؟ ثم كيف يجب تفسير الانفتاح نفسه، انفتاح عصر ميجي؟ هل هو نفي الذات وعلامة ضعف أو تأكيد وإثبات قوة؟ الانفتاح

هو نوع من العدمية إذ يقوم على نفي الذات والاعتراف بضعف، لكن من أجل إيجاد وسيلة لتجاوزه. والواقع أن اليابان لم تحتل خلال القرن التاسع عشر... والانفتاح لم يكن نفياً للذات، بل كان عدمية إيجابية لا سلبية: «لحد منتصف عصر ميجي، يقول نيشي ـ تاني سنة ١٩٤٩ أي بعد الهزيمة وبعد انكسار الحلم من جديد، كانت هناك قاعدة روحية وتقليد متطور جداً، ينبضان بالحياة في القلوب والأرواح المكوّنة للشعب. إن السبب الأساسي الذي جعل اليابان قادرة على استقبال الثقافة الغربية بسرعة لا مثيل ولا سابق لها، هو أن هذا الشعب يخفي في داخله تنظيماً صادقاً يولّده أساس روحي»... إذاً هل سيكون التجاوز عودة إلى روح عصر ميجي؟.

والحرب في آسيا، ثم في الباسيفيك؟ أينبغي التمييز بينها؟ واحدة إيجابية والأخرى سلبية؟ ولم حدثت الهزيمة؟... الروح قادرة على الولادة من جديد... هذا ما يقوله نيشي ـ تاني من خلال المعاينة التالية التابعة للنص السابق أعلاه: «في الوقت الذي كانت تجري فيه عملية الأوربة والأمركة، كانت هذه النواة الروحية قد أخذت بالذبول لدى الأجيال التالية لحدٍ لم تعد فيه اليوم إلّا فراغاً هائلاً فتح فوق ترابنا»... إذاً، دخلت العدمية الأوروبية إلى اليابان رفقة تلك التقنيات التي أريد لها أن تكون وحيدة في الطريق إلى الأرخبيل... ويبدأ الفراغ الروحي... أرادوا تقنية دون روحها، وروح تلك التقنية هي العدمية... العدمية الأوروبية مسببة الكوارث والحروب... ولا بدَّ أنها وراء تورّط اليابان في الحرب، وبالتالي الهزيمة... لا بدَّ أنها هي التي سببت تلك الحروب... إنّها ليست عدميتنا، إنها عدمية الغرب... «العدمية هي اعتراف صريح بوجود أزمة جوهرية وشمولية في أوربا الحديثة»... يقول نيشي ـ تاني مرّة ثانية سنة ١٩٤٩ ... لليابان ديانة خاصة بها... ولا بدَّ أنها الحلّ... حل تلك الأزمة وتجاوزها... ديانة تشكّل اليابان، أو اليابان مكوّنة منها... إنّها أساس الفكر الياباني... الدّين هو الذي يربط النّاس بمبدأ يتجاوزهم وفي الوقت نفسه يوجد في كلّ واحد منهم... ولهذا كان الإمبراطور قبل ١٩٤٥ إلهاً حياً، ومبدأً مجسَّداً ومجسِّداً... إلخ واليوم لم يعد إلّا رمزاً لوحدة الشعب... الرمز أكثر

روحانيةً من الإله... ما الذي يميز الفكر الأوروبي عن الفكر الياباني؟ في أوروبا، مشكلة الدين صارت مشكلة العدمية، في حين أن العدم داخل الفكر البوذي هو حقيقة العالم. إنَّ تجلي العدم، إن انكشاف العدم، عاشه الفكر الأوروبي بصفتة أزمة وانحطاطاً. كان للحياة ومن خلال الدّين المسيحي في العالم التوحيدي، أساس وللوجود معنى، سواء بالإحالة إلى الله في القرون الوسطى أو بالإحالة إلى الإنسان في العصور الحديثة... وضع أوروبا متناقض ويكشف عن ضعفها: لم تستطع احتمال تجلي العدم وانكشافه... وعندما تخلصت من الوهمين المكونين للحياة: وهم الأساس، ووهم المعنى، لم تشعر أنها تحررت، بل رات نفسها، بالعكس، في أزمة لأنها تظن أن ذلك الوهم هو الذي يكوّنها ويحملها داخل التاريخ... هكذا سقطت أوروبا في العدمية عندما اكتشفت حقيقتها... آسيا تجهل وهماً مماثلاً، لأن دينها العام والمشترك يعلِّم العدمانية وليس العدمية، أي يعلِّم غياب المعنى وانعدام الأساس، يعلِّم عبثية كلِّ بحث عن المعنى... العدمية أزمة وضعف وضياع وهم واكتشاف خطيئة ونفي للذات: «أدى وصول العدمية إلى تدمير تدريجي للمثل والقيم ولكل بنيان الحياة الأوروبية، وذلك من أجل أن يستطيع العدم الانبثاق من الأعماق»... العدمانية إيجابية... إنها الباب إلى حقيقة تقول: لا وجود لأية حقيقة، لا وجود لمعنى ولا لأساس... هو ذا نيشي ـ تاني لم يتغير منذ ١٩٤٢ وها هو موقفه يعيد نفسه في سنة ١٩٤٩ حيث قدّم سلسلة دروس حول «تجاوز العدمية» هذه المرّة وليس تجاوز الحداثة... وذلك في جامعة كيوتو...

فهو لا يقابل بين دينين، بين طريقتين أو بين مفهومين للكائن الكلي، لأنهما غير متشابهين... لا نستطيع أن نقابل وهم الدين المسيحي، وهم إلهٍ يؤسس ويعطي معنى للوجود، بأساس أو بمعنى تعلِّمه البوذية... إذا أخذنا المسيحية أو الإسلام أو اليهودية كمرجع، فإن البوذية ليست ديناً بل هي روحانية... لا يستطيع الأوروبي فهم البوذية إلّا انطلاقاً من العدمية الأوروبية ولا يستطيع العربي فهم البوذية وغيرها من الديانات الشرقية إلّا انطلاقاً من الوثنية والإلحادية... ولتجاوز العدمية الأوروبية نحتاج إلى ماهايانا (المركبة

الكبيرة) بين بودا آميدا والكائنات الإنسانية... إنها دعوة إلى الرّوحانية... وهذه الرّوحانية ليست يابانية، ولا تلعب دور المبدأ الوطني، ولكنها تجلّت في اليابان، وفي اليابان يمكن أن تعيد نفسها... ما خفنا منه وقعنا فيه، ولا نستطيع العودة إلى الوراء كي نجد أسساً أو معنى: إذاً فلنتابع مشوار الغربنة إلى النهاية... لا نستطيع مقاومة العدمية بأن نقابلها بمعنى أو بغياب معنى قد يلعب دور الأساس في النهاية... لا ينبغي الانزلاق في العدمية بسبب الضعف أو اليأس... بل تنبغي إرادة الضياع فيها، والنزول إلى قاعها... هو ذا شرط الانفتاح: على اليابان أن تواجه العدمية، وتعبرها، وتقودها إلى نهايتها، وتلغي كلّ أفكار الإصلاح والثورة... يابان ما بعد الحرب تجاوزت يابان ما قبل الحرب ـ تأمركت وصارت ديمقراطية، منفتحةً وعالميةً، عدماً روحياً من دون أساس ومن دون أي معنى... لا اساس لهذه الحياة إلّا هي ولا معنى لها إلّا هي... لا ينبغي الخوف من العدمية، بل العكس يجب الانفتاح عليها تماماً كما حدث في عصر ميجي... لا سبب للخوف من الأمركة أو الأوربة: لا تقاوم العدمية بإصلاح أو بإبداع المعنى. يجب قبولها والرغبة فيها من أجل دفعها إلى أقصاها: إذاً، فلنتمتع بالأمركة وبالاستهلاك وبعدم الإدخار كأننا نحافظ على شيء لا نعرف كيف نسميه... يجب الأمل بضياع التقاليد اليابانية ضياعاً نهائياً، بانعدام المرجع والأساس، بانعدام الجماعة والمثال...

هكذا سوف تجد العدمية نهايتها في ذاتها... وفي نهاية عدمية الإنتاج والاستهلاك والمتعة واللّهو، سوف تعيد نفسها عاجلاً أم آجلاً العدمانية والعدم والفراغ... وبعد أن يكون اليابانيون قد تجاوزوا كلَّ هذا، سوف يكتشفون أنهم عثروا على / أعادوا خلق / ما كان موجوداً دائماً هنا، ما لم يتركهم أبداً: العود الأبدي للعدم، العدم الحاضر... هذه هي الروحانية التي تفقد نفسها وتعثر على نفسها، تضيع كي تلاقي ذاتها من جديد... روحانية تعيد نفسها دون نهاية في اليابان... روحانية لها طقوس الدّين القصوى... قد لا يكون ديناً بأساس وبمعنى، لكن الموقف هو هو... عبادة هذا العود الأبدي للعدم وعبادة هذا الموقف...

الصراع ليس بين مفهومين للحياة، للإنسان، للمجتمع، على طريقة المسيحية والإسلام مثلاً، الأمر أعمق من ذلك وأبعد غوراً: إنه صراع بين وهم، وبين كشف. ينزع الوهم إلى كبح الكشف وإذابته، إلى امتلاكه، إلى الانغلاق فيه لجعله مستحيلاً... الوهم خطير: لمحاربته يُظن أولاً بضرورة امتلاك أسلحته نفسها... هكذا تصير وهماً مقابلاً ومنافساً... لكن ما هو الوهم الحديث الذي أنتج العدمية الأوروبية؟ وما هي النزعة الأمريكية التي تمثل خلاصة تلك العدمية؟ إنكار الروحانية، وديانة الإنتاج والاستهلاك، ديانة المتعة واللّهو، ديانة كلّ ما من شأنه إخفاء العدم وتوريط النّاس والمجتمعات في بناء عالم من الأشياء والأوهام، والمعارف التي لا تستخدم إلّا من أجل تصوّر وصناعة الأوهام ثم المتاجره بها... المتعة وحضارة الـ Entertainment هما ما يتبقى اليوم من العدمانية ومن الكشف في الولايات المتحدة... وعندما يظهر لسكانها فراغ هذه الحضارة وغياب معناها، لا يعرفون سوى الوقوع من هذا الوهم إلى داخل وهم آخر، إلى داخل الوهم الذي يشكل أساس تلك الحضارة، أي الدين المسيحي المذرّى إلى مذاهب عديدة. والمنخور، إذاً، من قبل العدمية... البوذية والزن يتحولان داخل تلك الحضارة إلى دين، إلى وهم، إلى عبادة للعدم... لتجاوز أمريكا وللخلاص من عدمية ولدت في أوروبا وانتصرت في الأمركة، ينبغي عدم المواجهة لأنّ الوهم سوف يكشف عن نفسه كوهم ويفضي إلى الكشف عن العدم... لذا فالحرب ليست عسكرية هذه المرة، بل هي روحية شاملة... لذا ينبغي السفر إلى أمريكا والإقامة هناك، والعمل هناك، والدراسة هناك، ثم العودة إلى اليابان من أجل إعادة اكتشاف اليابان... لكن لا نستطيع إيجاد العدم إلّا إذا افترضنا وجوده، وكنا أوفياء له منذ الأصل، وحملناه في ذاتنا كجزء لا يتجزأ من كينونتنا، كأوّل رابط لنا بالعالم، قبل أي معنى أو أساس... الولايات المتحدة إغراء كبير بالنسبة إلى الياباني اليوم: في الفراغ الأمريكي أحرار، وأحرار أكثر من شبح الهوية، ومن خيط أريان الذي يلاحق كلّ فعل من أفعالنا... في أمريكا ننسى الأصل ونذوب... ثم نعود... هكذا نعود من جديد إلى روح عصر ميجي، تقنية أمريكية وروح يابانية، لكن من دون حروب عسكرية هذه المرّة... ومن دون عرض عضلات أمام الجيران أو غيرهم.

ما بعد ـ الحداثة اسم آخر من أسماء العدم.

العدم هو ما بعد ـ الحداثة.

التجاوز؟ هو ببساطة الإعادة والتكرار.

إن مفهوم الإعادة يتيح تمييز محتوى إعادة الإعادة نفسها... إعادة ما حدث في بداية عصر ميجي... العودة إلى مبدأ كان موجوداً منذ الأساس ولا يزال... العودة إلى أصل ضاع ثم عثر عليه وأعيد اكتشافه... الإعادة بصفتها إصلاحاً وترميماً... إصلاح ما يعطي معنى، ما يُظهر المعنى... إصلاح ميجي أعاد إلى الحاضر مرجعاً يعمل كوسيط (الإمبراطور بصفته إلهاً حياً) وناقل للمعنى، حتى وإن كان المعنى غائباً باستمرار، مطموراً موارىً ومن دون وسيطه. هذا الجوهر يوحّد الشعب، يضمن له هوية ويقوده إلى الدفاع عنها شاملاً من يستطيعون المشاركة في الحفاظ عليه وحمايته... إعادة تنفي كلَّ ما يمكن أن يعود في الإعادة... ما يعاد هو إمكانية الإعادة، هو فراغ هذا الانفتاح الذي ليس سوى إمكانية الانفتاح... تجاوز الحداثة، إذاً، هو إعادة الانفتاح... هذا هو التفكير الذي يحكم جميع السيرورات التي تحدث داخل المجتمع الياباني.

ما بعد ـ الحداثة هي الحداثة لكن من طريق أخرى.

ما بعد ـ الحداثة هي العودة إلى الحداثة، هي إعادة الحداثة وإعادة التوأم الذي جاء بها، أي الإمبراطو... هل يُعاد إلى الألوهية علناً... إنه السؤال المفتوح... في المرة الأولى أعيد تنصيبه امبراطوراً وإلهاً... ذهب الإله بعد الهزيمة، وبقي الإمبراطور.. لكن على الرّغم من مرور الزمن وتأكيد دستور ديمقراطي، وحياة سياسية ديمقراطية في الظاهر، يظلّ الإمبراطور إنساناً مختلفاً تماماً عن الآخرين، فهو استثنائي، لا علاقة له بالقاعدة البشرية... صحيح هو بشر الآن، لكن ليس كالبشر... وجوده روحي كالرّوح الوطنية ومادي كالتربة اليابانية... وسيط بين النّاس (اليابانيون طبعاً) والمجهول الذي يلفّ كلَّ ما هو غير مفهوم. إنه الشكل البشري الذي تتقمصه روح اليابان، تماماً كما في كلّ

معبد شنتوي حيث يحتجب الله في واحد من الرموز الإمبراطرية المقدسة: في مرآة أو سيف أو عقد... يظل امبراطور اليابان عنصراً أساسياً من عناصر الدّين الشينتوي: سواء كان إلهاً أم لا، إنساناً أم لا. لا أهمية تذكر لذلك، إذ لا وجود لأي تناقض... فالأمر يتعلق بحالة روحية أكثر مما يتعلق بإنسان أو بدين. وفي الشينتوية مجموعة غير متجانسة من الاعتقادات وشبه الألوهيات بمقدار ما في اليابان من عيون وسواق جارية أو أشجار مُلتفَّة، أي بمقدار ما فيها من مراكز حياة، حياة مرتعشة وغير معروفة أبداً. ينتمي إلى الشينتوية كلُّ «فوق» لا يفهمه النّاس العاديون جزئياً أو كلياً. الفوقيات نفسها غير محددة بشكل واضح وتسبح على أطراف الفناء أحياناً. إن كلَّ ما يفلت من رقابة الإنسان المباشر هو «كامي» أي هو «فوق» أو إله إذا استخدمنا لغة الديانات التوحيدية: عناصر وقوى الطبيعة، الندية والحية جداً في اليابان، الكائنات الغريبة، الأموات الذين ذهبت أرواحهم المتحررة من ستارها الجسدي؛ وأول فوق من هذه الفوقيات هو الشّمس... ظهورها وغيابها يحكمان الحياة اليومية، يدوزنان اللّيل والنّهار... كانت «فوقاً» وسوف تظلُّ «فوقاً» لزمن طويل. لأنَّ التفسير العلمي لظاهرة ما، لا يعني خلع القوة عنها، أو تجريدها من تلك القوة. والأمر نفسه ينطبق على الإمبراطور: بالتأكيد لم يعد إلهاً ـ هو نفسه أكد ذلك بعيد الهزيمة، لكن يظلُّ، ويجب أن يظل مركز الكون الياباني، خوفاً من ضياع الوجود الوطني، إنه نوع من البؤرة المضمرة الكامنة، يقف وحده وراء طاقات بلد بالكامل ويديرها... شخصه البشري لم يكن ذا اهمية، وليست له أهمية. مهما كانت محاسنه ـ وهي مميزة في الغالب ـ أو عيوبه، فإنها لا تغير في شيء طبيعته العميقة كرمز، كوسيط بين الآلهة والنّاس. الإمبراطور موجود ولا يحتاج إلى إثبات. ولن يستطيع أي تدخل أجنبي تقويض الوجود الإمبراطوري. إنه بداية ونهاية الدولة.

عندما حلّت هزيمة ١٩٤٥ ، وتتالت وقتئذ انتحارات العسكريين وغيرهم كنوع من تطهير الذات والحفاظ على الكرامة، لم يكن باستطاعة الإمبراطور اللجوء إلى هذا الأسلوب، لأنه الإنسان الوحيد، في اليابان، الذي لا يستطيع اللجوء إلى الموت: فهو ممثل الوجود الوطني وعليه ألا يقطع استمرارية ذاك

الوجود بشكل مصطنع... عليه أن يتحمل، بخضوع وتسليم، جميع الإهانات الناتجة عن ذلك، دون اللجوء إلى الانتحار التقليدي الذي يحفظ كرامة النّاس العاديين... وحدهم اليابانيون يستطيعون تحديد وتغيير المحتوى السرّي للوجود الإمبراطوري... الدستور الديمقراطي، وتحديد صلاحيات الإمبراطور، أو اختزالها إلى درجة العدم، وأشياء أخرى كثيرة جاءت بعد الهزيمة: كلٌّ هذا لا يمس القيمة الروحية لشخصيته ولا القيمة الروحية للفكرة الإمبراطورية. يظلُّ المرجع الأعلى... والعنصر الروحي لم يفقد شيئاً من قوته، ولا تزال الأمة اليابانية موحدة في إمبراطورها.

الفهرس



صدر للمؤلف

■ شعر

ـ الميامر والتساعات التابعة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨ .
ـ ماحدث في السينما، دار المواقف، سورية، ١٩٩٣ .
ـ النهار يضحك على الناس، دار المواقف، سورية، ١٩٩٤ .
ـ الشعراء يلتقطون الحصى، دار المواقف، سورية، ١٩٩٤ .
ـ متون القول، دار المدى، سورية، ١٩٩٥ .
ـ يوميات طالب متقاعد، دار المدى، سورية، ١٩٩٦ .
ـ تثاؤب حديث جداً...، سلسلة اصدارات كراس، بيروت، ١٩٩٧ .

■ دراسة

ـ الشعر الحديث واغتيال الحاضر (دراسة)، دار المواقف.
ـ محطات المعراج الصوفي عند النفّري (رسالة دكتوراه بالفرنسية).

■ ترجمة إلى العربية

ـ طبول المطر (رواية)، اسماعيل كاداريه، دار الآداب ـ بيروت.
ـ سفينة الموت، ديوان الشعر الياباني الحديث، (كتاب مشترك). دار المواقف
ـ مفارقات الحداثة الخمس، انطوان كامبانيون، دار المواقف.
ـ ماوراء الخير والشر (نصوص مختارة)، فريدريك نيتشه، مكتبة مدبولي ـ القاهرة.
ـ محاضرات في التقاليد الشعرية اليابانية. تأليف: أوكا ماكوتو، دار المواقف، ١٩٩٦ .
ـ سقوط رجل (رواية)، أُوسامو ـ دازاري، دار المواقف، ١٩٩٧ .
ـ تمارين على قراءة الشعر الياباني القديم، تأليف: أوكا ـ ماكوتو، دار المواقف ١٩٩٧ .

- ترجمة إلى الفرنسية بالتعاون مع الشاعر الفرنسي جيرار فيستير

- NIFFARI, Stations, 1982, Arfuyen, paris.
- RABI'A, Chants de la recluse, 1983, Arfuyen, paris.
- SHANFARA, Chant des Arabes, 1987, Arfuyen, paris.
- Nizar KABBANI, Femmes, 1988, Arfuyen, paris.
- Kamal KHEIR - BEIK, Le temps de l'eclipse, 1989, Arfuyen, paris.



غابة المرايا اليابانية

محمد عضيمة



اليابان، الواقعة الى اقصى الشرق، حيث "يبدأ بها النهار مسيرته على الآخرين" التي تحدّت آسيا بقدرتها والهها الارضي، ثم قبلت الاستسلام السياسي والعسكري لتبدأ التنافس الاقتصادي وثورة المعلومات مع الغرب الاميركي. هذه اليابان، كيف تنظر الى خارجها؟ كيف تنظر الى العرب والمسلمين: ارهاب، نفط، تخلف، سوق، ام تراث وحضارة وصراع من اجل مستقبل افضل؟

في رحلته غير المخطط لها الا بالصدفة، حيث خطفته اليابان منذ العام ١٩٩٠ وللوقت الحاضر، يسجل محمد عضيمة بعضاً مما عنده عن "البلاد المشغولة بحالها" الساعية الى امركة نفسها دون التخلي عن ذاتها. عن الاستعراب الياباني، عن لقاءاته مع الادباء والشعراء اليابانيين، عن انطباعاته، ايامه الاولى في ذلك الارخبيل.

كتاب يحاول الاجابة على سؤال: لماذا اليابان غابة الغاز، ثكنة مرايا، لماذا اليابان هكذا؟

الناشر